

العقائد الإسلامية

مَجْمُوعٌ فِيهِ رَسَائِلٌ لِلْإِمَامِ عَمَّا هَلَّتْ مِنْهُ لَوْلَا سَطِي
الْمَعْرُوفِ بْنِ شَيْخِ الْحَرَامِيِّ

اُعْتَقَ بِهَا

مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَمَّادِيُّ

(أَبُو الْفَضْلِ الْقَوْنَوِيُّ)



DKI

دار الكتب العلمية

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah

أسسها محمد رشيد بن يوسف

سنة 1971 بيروت - لبنان

العَسَائِدُ

مَجْمُوعٌ فِيهِ رَسَائِلُ لِإِمَامٍ عَمَّا هَلَّتْ مِنْهُ الْوَسْطَى
الْمَعْرُوفُ بِابْنِ شَيْخِ الْحَرْافَةِ

اعْتَنَى بِهَا

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ

(أَبُو الْفَضْلِ الْقَوْنَوِيُّ)



دار الكتب العلمية

Dar Al-Kutob Al-Ilmiyah

DKI

أسستها في بيروت سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title : **Al-ʿImādiyyāt**

الكتاب : العماديّات

Classification: Sufism

التصنيف : تصوّف

Author : Imām ʿImāduddīn al-Wāsiṭī

المؤلف : الإمام عماد الدين الواسطي

Editor : Muḥammad ben ʿAbdullah Aḥmad

المحقق : محمد بن عبد الله أحمد

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Pages : 288

عدد الصفحات : 288

Size : 17*24

قياس الصفحات : 17*24

Year : 2010

سنة الطباعة : 2010

Printed in : Lebanon

بلد الطباعة : لبنان

Edition : 1st

الطبعة : الأولى

جميع الحقوق محفوظة
2010

ISBN 978-2-7451-6795-8

ISBN 2-7451-6795-2

9 0 0 0 0

9 782745 167958

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين محمد وآله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، أما بعد: فهذه رسائل للإمام عماد الدين الواسطي، وهو صوفي يمكن أن يقال عنه إنه من الأمثلة النادرة التي طبقت الشعار الذي أطلقه الجنيد البغدادي قديماً، والذي لم تزل الصوفية تردده حتى يوم الناس هذا، أعني قوله: "عَلَمْنَا مُقَيَّدًا بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ"⁽¹⁾، ولكنَّ تَرَدُّدَهُمْ لَهُ لَمْ يَمْنَعَهُمْ مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْحَابَ الرِّقْمِ الْقِيَاسِيِّ فِي الْعَمَلِ بِضِدِّ مُقْتَضَى كَلِمَةِ الْجَنِيدِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْإِمَامِ الْوَاسِطِيِّ فَقَدْ كَانَ فِي مَنْهَجِهِ فِي رِسَائِلِهِ مُقَيَّدًا بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ بِالْقَوْلِ وَبِالْعَمَلِ، وَإِذْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَقَدْ زَهَدَ الصُّوفِيَّةُ فِي كِتَابِ هَذَا الصُّوفِيِّ، بَلْ لَمْ يَسْلُكُوهُ فِي طَبَقَاتِ أَوْلِيَائِهِمْ، بَلْ إِنْ كَثِيراً مِنَ الصُّوفِيَّةِ يَجْهَلُونَهُ.

نعم، لقد كان المؤلف صوفياً ولكنه في هذه الرسائل لم يثنِ على فكرة صوفية محضة، وإن كتب بأسلوبهم، وامتدح طريقة أوائلهم، ولكنه لم يكن مدحاً لهم بإطلاق، بل لما قالوه من كلمات تؤكد معنى كلمة الجنيد من وجوب تقيد سالك التصوف بالكتاب والسنة.

وكان من آثار هذا التقيد بالكتاب والسنة على المؤلف ما سرى فيما كتبه من مؤلفاته، وما أعلن عنه فيها بعبارات مختلفة من محبته لأهل الحديث، فمن ذلك قوله: "ثم رأيتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَبَّلَنِي عَلَى مَحَبَّةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْإِنْفَعَالِ لَهُمْ"⁽²⁾، وقد شهد الإمام الذهبي له بأنه: "كَانَ دَاعِيَةً إِلَى السَّنَةِ وَمَتَابَعَةِ الْأَثَارِ"، وأنه: "كَانَ ذَا وَرَعٍ، وَإِخْلَاصٍ وَمُنَابَذَةٍ لِلاتِّحَادِيَّةِ، وَذَوِي الْمَعْقُولِ"⁽³⁾، وأكبر الظن أن امتداح شيخ الإسلام ابن تيمية له ووصفه إياه بـ"جُنِيدٍ وَقْتِهِ"⁽⁴⁾، إشارة منه إلى أن الواسطي من القلَّة الذين سلكوا نهج الجنيد البغدادي، والتزموا في صوفيتهم بشرطه.

(1) الرسالة القشيرية 117/1، 118. (2) السر المصون، من رسائل المؤلف المخطوطة.

(3) ذيل تاريخ الإسلام ص 109. (4) الذيل على طبقات الحنابلة 380/4-382.

عماد الدين الواسطي

1- اسمه ومولده:

هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود بن عمر، الواسطي الحزامي، عماد الدين، أبو العباس، ابن شيخ الحزامين⁽¹⁾، ولد في مدينة (واسط) في العراق، في الحادي عشر من ذي الحجة، سنة ستمئة وسبع وخمسين، من الهجرة النبوية.

2- ضبط لقبه:

لقبه: الحزامي، ويقال - أيضاً - ابن شيخ الحزامية، أو ابن شيخ الحزامين⁽²⁾، بالفتح والتشديد، و(الحزامون) محلة شرقي (واسط) كأنها - كما قال ياقوت - منسوبة إلى الذين يحزمون الأمتعة، أي يشدونها، ويفهم أن والده كان شيخ الرفاعية البطائحية⁽³⁾ فيها.

(1) وردت ترجمته في كتاب ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبد الهادي، الورقة 102، (نسخة كوبرلي) بخط ناسخ أحسب أنه من تلاميذ شيخ الإسلام، واسمه عبد الرزاق بن محمد بن أحمد الحلبي البزار (كان حياً سنة 758هـ)، وانظر المطبوعة باسم (العقود الدرية) ص 229، وذيل تاريخ الإسلام ص 109، ومعجم شيوخ الذهبي (مخطوطة طوب قابو) الورقة 2، والمطبوعة 29/1، والعبر 29/4

(2) المشتبه 224/1، وذيل تاريخ الإسلام ص 109، وتوضيح المشتبه (167/3)، ومعجم البلدان 252/2، وضبطها د. بشار عواد معروف، بكسر الحاء، وبغير تشديد، في (تاريخ الإسلام) 871/14، وكذا الدكتور عبد الرحمن العثيمين في (الذيل على طبقات الحنابلة) 380/4، وقد يكون ذلك من خطأ الطابع، لكن كتابة (الحزامين) بيّان خطأ وقع د. العثيمين، ووقعت فيه أنا في رسالتين للواسطي نشرتهما. ويبدو أن أول ظهور لهذه الياء الزائدة كانت في مطبوعات الشيخ زهير الشاويش.

(3) الرفاعية: نسبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي (ت 578هـ)، والبطائحية: نسبة إلى موضع كان يسكنه في منطقة (البطائح) فيه قريته (أم عبيدة) قرية إلى (البصرة) و(واسط)، وينسبون إلى اسم الشيخ أحمد فهم أحمدية، رفاعية، بطائحية، أما وصف الشيخ زهير الشاويش (الحزامية) بأنها طائفة معتدلة من الرفاعية، فمعلومة خاطئة كما يضح ذلك من كلام ابن شيخ الحزامين في ترجمته لنفسه في هذا المجموع!! انظر مقدمة الشيخ زهير على رسالة =

3- عصره:

وُلِدَ الإمام الواسطي في حِقْبَةٍ من التاريخ عصيبة، وأهوال مرَّ بها أناس ذلك الدهر مفضعة، فقد عاصر في طفولته تقدم خيل الغزاة المغول نحو الشام كالسيل تدكُّ قلاع مدنها قلعة قلعة، وتنسف حصونها حصناً حصناً، أما بغداد الرشيد وخلافة بني العباس فقد سقطت قبل مولده بسنة تقريباً، وتحول العراق إلى «مستعمرة» مغولية، ولم يقف ذلك السيل إلا بسيوف حملتها قلوبٌ صدقت ربّها ونصرتها، فنصرها في واقعة (عين جالوت)، وعاصر المؤلف في سنواته الأخيرة هزيمة للمغول في معركة (شقحب) وكان قد انتقل إلى الشام قبل ذلك بأعوام، والدولة الإسلامية حينئذ الدولة المصرية، التي توائمت على عرشها من أمراء المماليك عدة سلاطين عاصر المؤلف منهم (قطز)، و(بيبرس)، وابنه (السعيد) ثم (قلاوون)، فبنوه، ثم من انتزع الملك لنفسه مدة - أعني الجاشنكير - ومات في سلطنة (الناصر بن قلاوون) الثالثة.

3- نشأته ورحلته في البحث عن الهداية:

فتح الواسطي عينيه على الدنيا وهوّاؤها من حوله مشبع بانحرافات التصوف، في أسرة كان ربُّها شيخاً من شيوخ الطريقة الرفاعية التي بلغ تلوثها بالمشرب الملامي والقلندري في ذلك العهد حدَّ التشرب التام، فقد تكاثفت في عصره الخرافات، وعُظِّم المتخلفون عقلياً، ممن تلبسوا القدر بأنواعه، ومن لا يصلي المكتوبة، وأصبحوا قبلة طلاب (البركات) حتى قال قاض من معاصري المؤلف في أحد من مرَّ وصفهم: " وهذا الشيخ وَقَعَ نظره على أبي وجدي - رحمهم الله تعالى - فأفلح به غاية الفلاح، وخصَّنا الله تعالى من تلك البركة الموروثة بما عمَّنّا بأنواع الرباح، وأصناف الخير والنجاح، ولذلك صار أكثر نصيبنا لما وفقنا الله تعالى لسلوك هذه الطريق الشريف من حال الصغر من المولَّهين...".

وهنا كلمة قالها شيخ الإسلام ابن تيمية تصف حال البيئة التي نشأ فيها أناس

ذلك العصر: "...فهؤلاء يعمدون إلى الصبيان، ويربّونهم على التّوَلُّه تربيةً، ويُعوّدونهم الخروج عن العقل والدين عادة، كما يُعوّد الأنبياء والصالحون أتباعهم ملازمة العقل والدين".

وقد حكى المؤلف في رسالته التي ترجم فيها لنفسه المظاهر الشركية التي شهدتها في صغره عند قبر الرفاعي الكبير، ووصف سماع الصوفية الذي كان يفضي إلى إباحية مفضعة.

كان أكثر من نقل هذا الهبوط في التصوف إلى البلاد العربية هم غلاة الصوفية الخرسانيين، من فرس وتركمان وغيرهم، الذين كانوا ضمن أفواج الهاربين من المغول، فمنهم من قصد الأناضول وهي يومئذ فقيرة من العلم الشرعي، فلم يغير هؤلاء من هيئاتهم، وأسماء طرقهم إذ كان أهل الشريعة بها مستضعفين، فسكنوها قريري العين.

وأما الذين جاؤوا بلاد العرب، فانضوا تحت لواء طريقة من الطرق المقبولة في مجتمعهم، لأنهم إن بقوا على مسمياتهم والانتساب إلى الشيوخ الذين انتموا إليهم بخراسان، فإن أمورهم إلى العسر الذي يندر يسره، فغيروا قشرتهم دون لبّهم، وأقحموا في تصوف أهل البلاد مزيداً من الغلو والانحراف.

استقر المؤلف - إن شاء الله تعالى - في أمر المعتقد على مذهب السلف الصالح، وكان قد نشأ في وسط أشعري شافعي على معتقد أبيه ومعلميه ومذهبهم، وقد أبدى وصفاً لحاله مع هذه العقيدة التي لقنت له في شبابه وصفاً دقيقاً رائعاً.

أبث فطرة المؤلف جميع الموبقات والبدع والخرافات والعقائد الكلامية الزائغة التي لقنها شيوخ الضلالة له مذ كان صغير السنّ، وبدا أنه - حين اشتدّ عوده - كان يحاكم تلك الخرافات والعقائد في عقله، ويعرضها على ما يتعلمه من كتاب الله وسنة رسوله، فيجد التضاد بينهما بيّناً، وربما اضطربت نفسه في بعض تلك المحاكمات التي لم يقع على جواب شاف لها، وكان يدرك - برحمة الله له وتوفيقه - أن الصواب عند غير من نشأ بينهم، فارتحل طالباً للحق والصواب الذي يُرضي الله - عزّ وجلّ - فتقلّب في البلاد، وداخل طوائف عدة، واجتمع بضروب من

المتصوفة، فكان يترك الطائفة إثر الطائفة كلما خَبَرَ دَعْلَهَا، وتبين له عوار مذهبها، "فطالت في ذلك أسفاره، وامتدَّ أمدّه وانتظاره، نحواً من خمس عشرة سنة، يَتَشَأُّمُ فلا يجد بارقاً، ويتطلع فلا يرى بادياً ولا شارفاً"⁽¹⁾.

كان مذهبه الفقهي شافعيّاً كما مرَّ آنفاً، ثم إنه انتقل حنبلياً⁽²⁾.

لقد تجاهل الصوفية مؤلف هذه الرسائل في حياته كما ذكرت آنفاً، ولم يتداولوا كتبه، ولم يوصوا بها المريدين، لم يعجبهم فيها تحذيره الدؤوب لهم من فكر الوجودية الذين أحكموا مزج فلسفتهم في التصوف وفي بدعهم العملية، ولذلك لم يفيدوا من تجارب المؤلف مع طوائف الزيغ الصوفية، وكانت صاعقة له، وموقظة له ولكل من وقف عليها، كتجربته مع ابن هود، أحد أئمة الصوفية (ت 699هـ)، وكان قد جاء إليه في دمشق مسترشداً، وقال له: "أريد أن تُسلِّكني"، فقال له ابن هود: "من أي الطرق تريد أن تُسلِّك؟ من الموسوية أو المحمدية؟"، وهذا هو مذهب وحدة الأديان الذي كان عليه الجلال الرومي، أي أن كل الملل والأديان توصل - بزعمهم - إلى الله ومرضاته!!.

ولقد كان مؤلف هذه الرسائل - بعد اهتدائه إلى الصراط المستقيم - لا تأخذه هية الشخصية الصوفية فتمنعه من قول رأيه فيها، ولو كانت شخصية مشهورة كنجم الدين الكبرى (ت 618هـ)، قال الذهبي: "كان شيخنا عماد الدين الحزامي يُعظِّمُهُ، ولكن في الآخر أراني له كلاماً فيه شيء من لوازم الاتحاد، وهو - إن شاء الله - سالم من ذلك، فإنه محدّث معروف بالسنة والتعبّد، كبير الشأن. ومن مناقبه أنه استشهد في سبيل الله وذلك أن التتار لما نزلت على خوارزم، في ربيع الأول من السنة، خرج فيمن خرج ومعه جماعة من مُريديه فقاتلوا على باب خوارزم حتى قُتلوا مُقبلين غير مدبرين"⁽³⁾.

(1) من كلام الواسطي في مقدمته على مختصر السيرة النبوية. مخطوطة عندي.

(2) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية 479/2

(3) تاريخ الإسلام 905/15

(3) تاريخ الإسلام 538/13، قلت: علق الدكتور الفاضل بشار على هذا الموضع فقال: "هذه منقبة عظيمة له تنفي عنه الاتحاد - إن شاء الله - كما أشار المؤلف، فلو كان من المتصوفة =

وكان له رأي في محمد بن إبراهيم بن أحمد بن طاهر الخبزي الفيروزآبادي (ت622هـ) صاحب كتاب (برق النقا شمس اللقا) قال الذهبي: "وأراني شيخنا العماد الحزامي له خطبة كتاب فيها أشياء منكورة تدل على انحرافه في تصوّفه، والله أعلم بحقيقة أمره".⁽¹⁾

وقال الذهبي في ترجمة الشاذلي: "ورأيت شيخنا عماد الدين قد فتر عنه في الآخر، وبقي واقفاً في هذه العبارات، حائراً في الرجل، لأنه كان قد تصوف على طريقته، وصحب الشيخ نجم الدين الإصبهاني نزيل الحرم، ونجم الدين فصحب الشيخ أبا العباس المرسي صاحب الشاذلي".⁽²⁾

وكما كان المؤلف خبيراً بطب القلوب، فقد كان بصيراً بطب الأبدان. ذكر هذا تلميذه الذهبي في كتابه الطب النبوي، (مخطوطة قونية برقم 6488، الورقة 57).

5- من شيوخه وأصحابه:

أ - عز الدين الفاروئي الشافعي (ت694هـ) ذكره في بعض كتبه.

ب - مجد الدين إسماعيل بن محمد الحراني الحنبلي (ت729هـ)⁽³⁾ ذكر ابن رجب أنه كان يقرأ عليه (الكافي) في الفقه الحنبلي.⁽⁴⁾

ج - نجم الدين الأصفهاني الشاذلي، نزيل الحرم (ت721هـ).

د - شيخ الإسلام ابن تيمية:

لمعت للواسطي أنوار شيخ الإسلام⁽⁵⁾، فقد وجد فيه مرشده وشيخه المنشود،

الخانعين لما خرج للجهاد، والله أعلم. "قلت: الذهبي لم يربط نفي الاتحاد عنه بخروجه للجهاد فقط.

(1) تاريخ الإسلام 720/13 (2) تاريخ الإسلام 830/14

(3) معجم الشيوخ الذيل على طبقات الحنابلة 532/4

(4) الذيل على طبقات الحنابلة 382/4

(5) هذا تعبير للذهبي - رحمه الله - في متصوف سابق كالمؤلف هو الدباهي.

وكان المؤلف "يعظمه جداً، وتلمذ له، مع أنه كان أسنَّ منه"⁽¹⁾. ومع ذلك خاطبه شيخ الإسلام في رسالة بعث بها إليه حين كان في مصر بقوله: شيخنا.

6- أشهر تلاميذه:

أ- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله الحافظ المؤرخ، كان يأنس برأيه، وربما نقل عنه جواب ما سألته عنه، كما فسَّر له قول أحد المحدثين: "حَسَبْتُ ما اشترَيْتُ به الجَبْر إلى هذا الوقت فكان سبع مائة درهم. قلت: تفسيره على ما ذكر لي شيخنا عماد الدين الحزَّامي بواسط في نحو من ثلاثين مجلداً"⁽²⁾.

ب - ابن قيم الجوزية، يُعلم ذلك من قول ابن القيم عنه في كتابه (شفاء العليل): "شيخنا".

ج - سليمان بن عمر بن سالم بن عمرو بن عثمان الزرعي الشافعي (734هـ) صاحب الشيخ عماد الدين الواسطي وتخرج به في السلوك.⁽³⁾

7- ثناء العلماء عليه:

مرَّ بك أن شيخ الإسلام خاطبه بكلمة شيخنا، وكان من تلك الكلمات: "الإمام العارف القدوة السالك"، وقال البرزالي عنه: "رجل صالح، عارف، صاحب نسك وعبادة، وانقطاع وعزوف عن الدنيا"، وقال الذهبي: كان داعية إلى السنة ومذهبه مذهب السلف الصالح في الصفات يمرها كما جاءت، وقد انتفع به جماعة صحبوه، ولا أعلم خلف بدمشق في طريقته مثله"، وقال ابن عبد الهادي: "...وكان رجلاً صالحاً، ورعاً، كبير الشأن، منقطعاً إلى الله، متوفراً على العبادة والسلوك"⁽⁴⁾ من الصالحين العارفين⁽⁵⁾ ويكفي وصف الذهبي إياه بقوله: "شيخنا العارف"⁽⁶⁾.

(1) ذيل طبقات الحنابلة، المصدر السابق.

(2) تذكرة الحفاظ 988/3 (3) شذرات الذهب 107/6

(4) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، لابن عبد الهادي ص 229

(5) مختصر طبقات علماء الحديث: 285/4.

(6) تاريخ الإسلام 871/14، قلت: ولم أنقل كلام اليافعي على الواسطي في (مرآة الجنان) 4/ 250، 265، لأنه مع كونه منقولاً من (العبر) للذهبي نقل (قص ولزق) كما يعبر العامة، فإنه =

وقوله: "وكان من سادة السالكين له مشاركة في العلوم وعبارة عذبة ونظم جيد"⁽¹⁾ في بيان منزلته العالية في الصالحين.

8 - مؤلفاته:

هي كما قال مترجموه كثيرة⁽²⁾ وصفها الذهبي بأنها "أجزاء عديدة في السلوك، والسير إلى الله تعالى وفي الرد على الاتحادية والمبتدعة"، ووصفها بأنها: "نافعة في السلوك"⁽³⁾. وقال البرزالي عن أسلوبه فيها: "وقلمه أبسط من عبارته"، ويُلاحظ على أسلوبه ما لحظه عليه ابن رجب رحمه الله حين قال إنه: "كثير اللهج بالأذواق والتجليات والأنوار القلبية". وهذه بعض أسماء رسائله:

- 1 - مدخل أهل الفقه واللسان إلى ميدان المحبة والعرفان.
- 2 - مفتاح المعرفة والعبادة لأهل الطلب والإرادة، الراغبين في الدخول إلى دار السعادة، التي ليست منحرفة عن طريق الجادة.
- 3 - مفتاح طريق المحبين وباب الإنس لرب العالمين.
- 4 - السر المصون في العلم المخزون.
- 5 - ميزان الحق والضلال في تفصيل أحوال النجباء والأبدال.
- 6 - ميزان الشيوخ
- 7 - تلقيح الأسرار بلوامع الأنوار للعلماء الأنوار
- 8 - حياة القلوب وعمارة الأنفاس في سلوك الأذكياء الأكياس
- 9 - عمدة الطلاب من مؤمني أهل الكتاب...

كما يبدو لم يطلع على رسالة من رسائله التي يقرر فيها مذهب السلف الطيب.

(1) ذيل العبر 61/6

(2) القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية 479/2، 480

(3) ذيل تاريخ الإسلام ص 109

- 10- البلغة والإقناع في حل شبهة مسألة السماع
- 11- لوامع الاسترشاد في الفرق بين التوحيد والإتحاد
- 12- أشعة النصوص في هتك أستار الفصوص⁽¹⁾.
- 13- محمل تلقيح الأفهام في مجمل طبقات الإسلام.
- 14- قاعدة في طريق الفقر المحمدي.
- 15- قاعدة في صفة العبودية.
- 16- قاعدة في الحب في الله حقيقة.
- 17- قاعدة في أسباب المحبة لله تعالى.
- 18- قاعدة في أسباب محبة الله تعالى.
- 19- قاعدة في مقاصد السالكين.
- 20- قاعدة في بيان عمل يوم وليلة للأبرار، ويوم وليلة للسائرين.
- 21- قاعدة في أن العبد يتعين عليه معرفة الطريق إلى الله تعالى والتعرف له.
- 22- قاعدة في تقوية السالك على مطلوبه.
- 23- قاعدة في شرح حال العباد والصوفية الأفراد.
- 24- قاعدة في المستعد للتصوف.
- 25- قاعدة في خصوص طائفة الصوفية.
- 26- قاعدة يذكر فيها أمر ساكن في الابتداء.
- 27- قاعدة في اعتبار أهل الخير.
- 28- قاعدة في الإنابة إلى الله تعالى.
- 29- قاعدة في مظاهر الشهود والمعرفة.

(1) أورد الشيخ علي الشبل هذه الرسالة (أشعة النصوص) ضمن كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، انظر: (الأثبات...) ص 193

- 30- قاعدة في أصناف التأله وخصوصية تأله كل طائفة من الطوائف.
- 31- قاعدة في بيان السلوك.
- 32- قاعدة في سلوك الأولياء.
- 33- قاعدة في علامات التحقق بالقيومية.
- 34- قاعدة في بدايات الأولياء.
- 35- قاعدة في بيان الطريقة إلى الله تعالى من البداية إلى النهاية.
- 36- قاعدة في حبس النفس والعكوف على الهم.
- 37- قاعدة في تمهيد ما قبلها وتناسبها.
- 38- قاعدة في الأمور التي ينبغي أن تكون هم السالك.
- 39- قاعدة في تصفية الأخلاق استعداداً ليوم الحشر والتلاق.
- 40- قاعدة في الفرق بين كبر النفس وعزة القلب وبين البغي والشجاعة وغيرهما.
- 41- قاعدة في سلوك التحقيق إلى غاية الطالب السائر إلى ربه الذهاب.
- 42- قاعدة في أنواع التفاريق وصفة الجمع.
- 43- قاعدة تعرف العبد نصيبه من ربه.
- 44- قاعدة في الأمور الموصلة والأمور القاطعة للمبتدي والمنتهي.
- 45- قاعدة في معرفة النقص الداخل على الكمل من العارفين ومعرفة الكمال.
- 46- قاعدة في نفي الخواطر.
- 47- قاعدة في الجد والاجتهاد.
- 48- قاعدة في التجريد.
- 49- قاعدة في الفرق بين العابد والمشاهد.
- 50- قاعدة في الفرق بين المشاهدة القيومية، والتحقق بها، والفرق بين مشاهدة

الجمع والتحقق به.

- 51- قاعدة في الوصال واللقاء، وهي: بغية المحبين وروح المشتاقين.
- 52- قاعدة في ميزان الاستقامة لأهل القرب والكرامة.
- 53- قاعدة في استجلاب الوداد في معاملة رب العباد.
- 54- قاعدة في ذكر الكرامات المعجلة للمنقطعين إلى الله عز وجل في الدنيا.
- 55- قاعدة في المثل الأعلى لقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾
- 56- قاعدة في قوله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾
- 57- تنمة لهذه القاعدة.
- 58- قاعدة الروحانيات.
- 59- قاعدة نبوية.
- 60- قاعدة من دلائل النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم.
- 61- قاعدة في تعرف النبوة.
- 62- قاعدة في الصفات.
- 63- رسالة في إثبات الاستواء والفوقية وتنزيه الباري سبحانه عن الحصر والتمثيل والكيفية
- 64- رسالة في مراتب المعرفة، وهي رسالة البحر المحيط
- 65- دقائق الحقائق. وهي تنمة لرسالة البحر المحيط.
- 66- رسالة العقبات والطوارق والعوارض والطوارئ، وسياستها بحكم العلم كيلا تقطع عليه الطريق.
- 67- رسالة فيها لوائح من قواعد أهل الزيغ والضلال المبطلين ولوائح من قواعد الصادقين.
- 68- رسالة إلى الشيخ أحمد المغربي المقيم بثغر طرابلس جواباً لكتاب جاء منه.

69- الرسالة السراجية في الطريقة المنهاجية.

70- مسائل عن الفرق بين كرامة الولي وزوكة المزوكر، وعن الفرق بين الحال

الصحيح والحال الفاسد، والفرق بين الصالح والطالح، والفرق بين الصديق والزنديق وغيره:

المسألة الأولى: (الفرق بين كرامة الولي وزوكة المزوكر)

المسألة الثانية: (الفرق بين الحال الصحيح والحال الفاسد)

المسألة الثالثة: (هل يجوز أن يكون التأثير والكشف من غير الولي؟) المسألة

الرابعة: (ما علامة الكامل في الحال والناقص فيه؟)

المسألة الخامسة: (ما الفرق بين الصالح والطالح، والفرق بين الصديق

والزنديق؟) المسألة السادسة: عن قوم يرغبون ويزبدون كما يفعل من اعتراه الجنون

ثم بعد ذلك ينطقون، فيقال إنهم ك: إنهم مكاشفون، أفيحسن بهم الظنون؟ أم لهم

ميزان به يوزنون؟

مسائل في الوصول إلى الله تعالى بالقلب

مسألة: ما علامة حصول الإيمان في مرتبة علم اليقين؟.

مسألة: ما السكينة وما حدّها؟

مسألة: ما علامة العارف؟.

مسائل واضحة لأهل البداية.

مسائل في آداب التربية:

سأل فقير فقال:

صورة المسائل: قد علم أن البشر بعد محمد ﷺ لا يُعرج بأجسامهم هل يُعرج

بالقلب إلى الله تعالى؟

مسألة في معنى الصلاة.. (هناك عدة مسائل)

مسألة في قرب المصلي من الله تعالى.

71- نصيحة أرسلها الشيخ إلى شمس الدين محمد بن شيخ القنطرة.

72- عهدٌ عهده الشيخ إلى سائر محبيه وأصحابه في حياته وبعد مماته.

- 73- نصيحة أخرى كتبها لإخوانه قريب من وفاته.
- 74- وصية أوصى بها الشيخ لبعض المشتغلين بالعلم.
- 75- وصية أوصى بها الشيخ لبعض قضاة الشام من أصحابه.
- 76- شرح الاثنى عشر كلمة التي قالها الجنيد.
- 77- شرح وصية الشيخ شهاب الدين السهروردي.
- 78- شرح كلمات قالها الشاذلي.
- 79- شرح باب التوبة من كتاب منازل السائرين للهروي.
- 80- شرح باب المحاسبة من كتاب منازل السائرين.
- 81- رحلة الشيخ وشرح تقلباته في عمره من بدايته إلى نهايته
- وذكر البلاد التي سكنها. والمشايخ الذين اجتمع بهم.
- 82- مختصر سيرة ابن هشام (وقفت له على نسختين).
- 83- نصيحة لأهل الحديث والأثر. (وقد نشرتها بعنوان: نصيحتي لأهل الحديث...).
- 11- وفاته:

توفي - رحمه الله تعالى - في دمشق، في آخر يوم السبت سادس عشري ربيع
الآخرة سنة إحدى عشرة وسبعمائة (711هـ) بالمارستان الصغير، وتقدم المصلين
عليه بالجامع الأموي، أبو الوليد المالكي، والشيخ محمد بن قوام، وغيرهما، ودفن
بقاسيون، قبالة زاوية السيوفي⁽¹⁾. قلت: ويفهم من قول الذهبي أنه ممن حضر
جنازته⁽²⁾.

(1) المقتفي، رقم الترجمة 22 في الجزء الثاني، وقد بعث إلي بها محققه الأستاذ الدكتور الفاضل
عمر بن عبد السلام تدمري.

(2) معجم الشيوخ 29/1

النسخة الخطية لهذه الرسائل

ضُمَّها مجموعٌ يقع في (290) ورقة، في مكتبة (الحاج سليم آغا، برقم 404) بإصطنبول⁽¹⁾، واسم الناسخ: محمد بن عبد الرحمن الدمشقي، قال في نهايته: " هذا آخر ما وُجد من كلام الشيخ عماد الدين، رحمه الله ورضي عنه." وقد فرغ من نسخها جميعاً في آخر يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الأول سنة 805 هـ، ويحتمل أن يكون هذا الناسخ حفيد المحدث أبي عبد الله محمد بن طولوبغا، الذي ذكر الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي وقوفه على بعض كتب المؤلف بخطه، فقال: " ووقفتُ له على كلام في التصوف عجيب، ومنه ما وجدته بخط المحدث أبي عبد الله محمد بن طولوبغا. "، وذكر أنه وجد بخط الشيخ أبي العباس الواسطي، رحمة الله عليه.⁽²⁾

و لما كان ترتيبُ الرسائل، في هذا المجموع، ليس من صنيع المؤلف، فقد تَخَيَّرْتُ منها ورَتَّبْتُ ما رأيته الأولى بذلك وبالنشر، وفي النِّية أنْ يَغْقَبَ ذلك طبع بَقِيَّتِها، إن شاء الله تعالى، وأنْ يكون العنوان: (قواعد الإمام عماد الدين الواسطي في السُّلوكِ الأَثَرِيِّ).

وينحصر عملي في الكتاب، مع ما تقدّم، في تحرير النصّ وضبطه، وفي تخريج الآيات، والتعليق على مواضع من كلام المؤلف.

هذا، وأسأل الله - عزَّ وجلَّ - النفعَ بها، والحمد لله في الأولى والآخرة، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلّم.

وكتب:

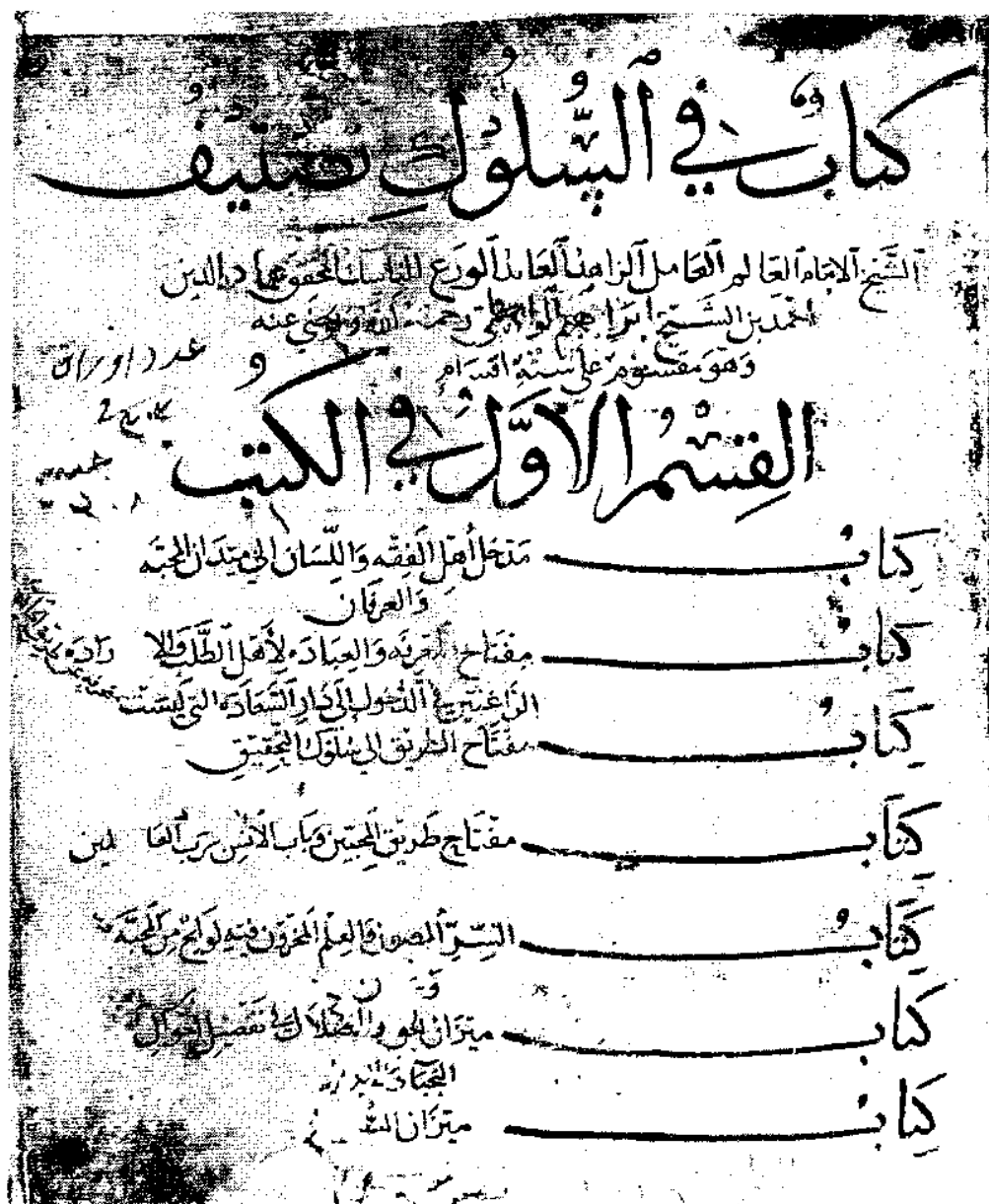
محمد بن عبد الله أحمد

(أبو الفضل القونوي)

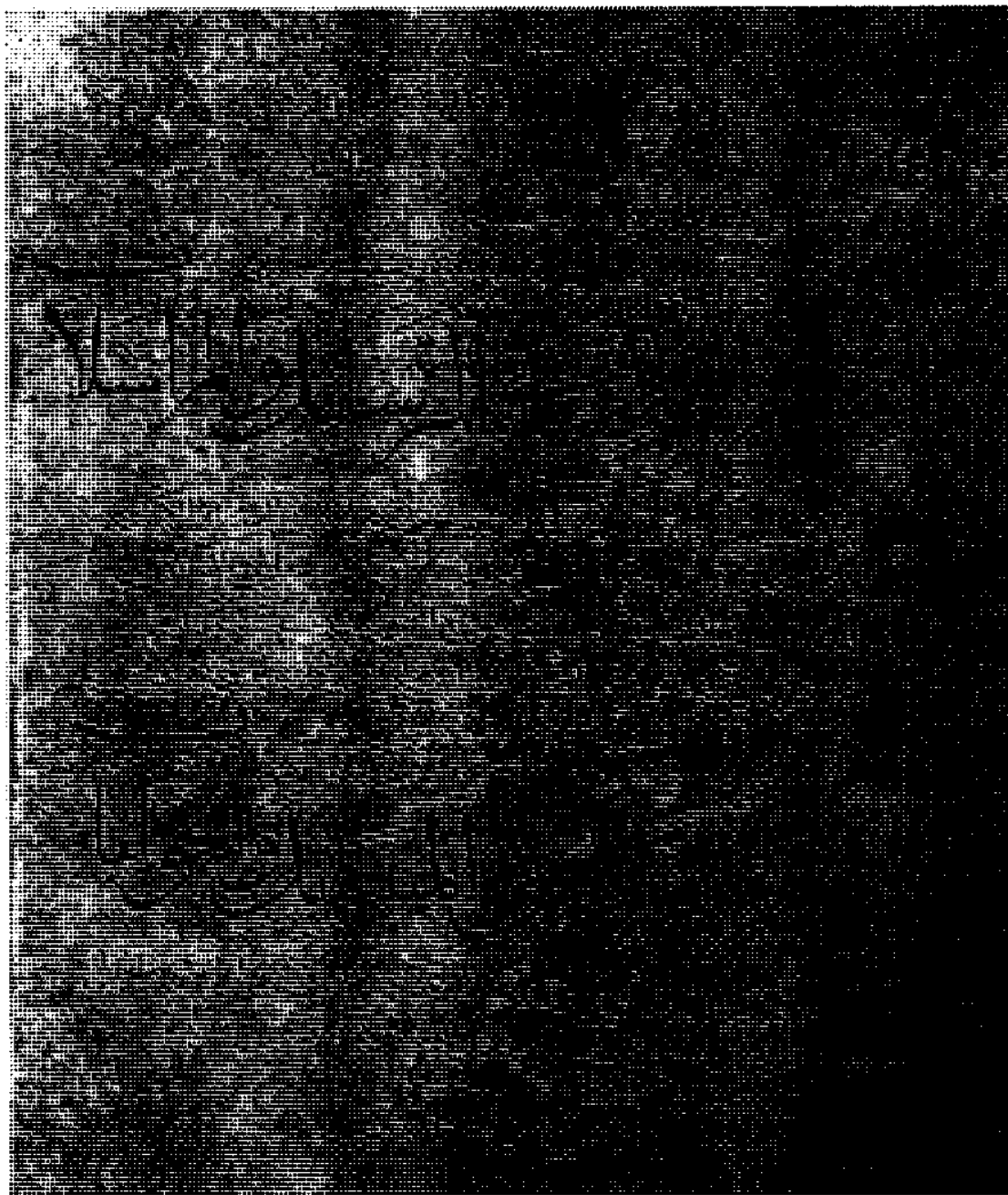
(1) إصطنبول، هكذا ينطقها أهلها، وهكذا كتبها العربُ مُذْ عرفوها، وأما: (إستانبول) فهي مكتوبة بالإملاء العثماني، ونطقها بالسين والتاء خطأ، وكل من كتبها من أدباء العربية - قديماً - بهما، فلا يعدو ذلك إلفهم لما كانت عليه المكاتبات يومئذ.

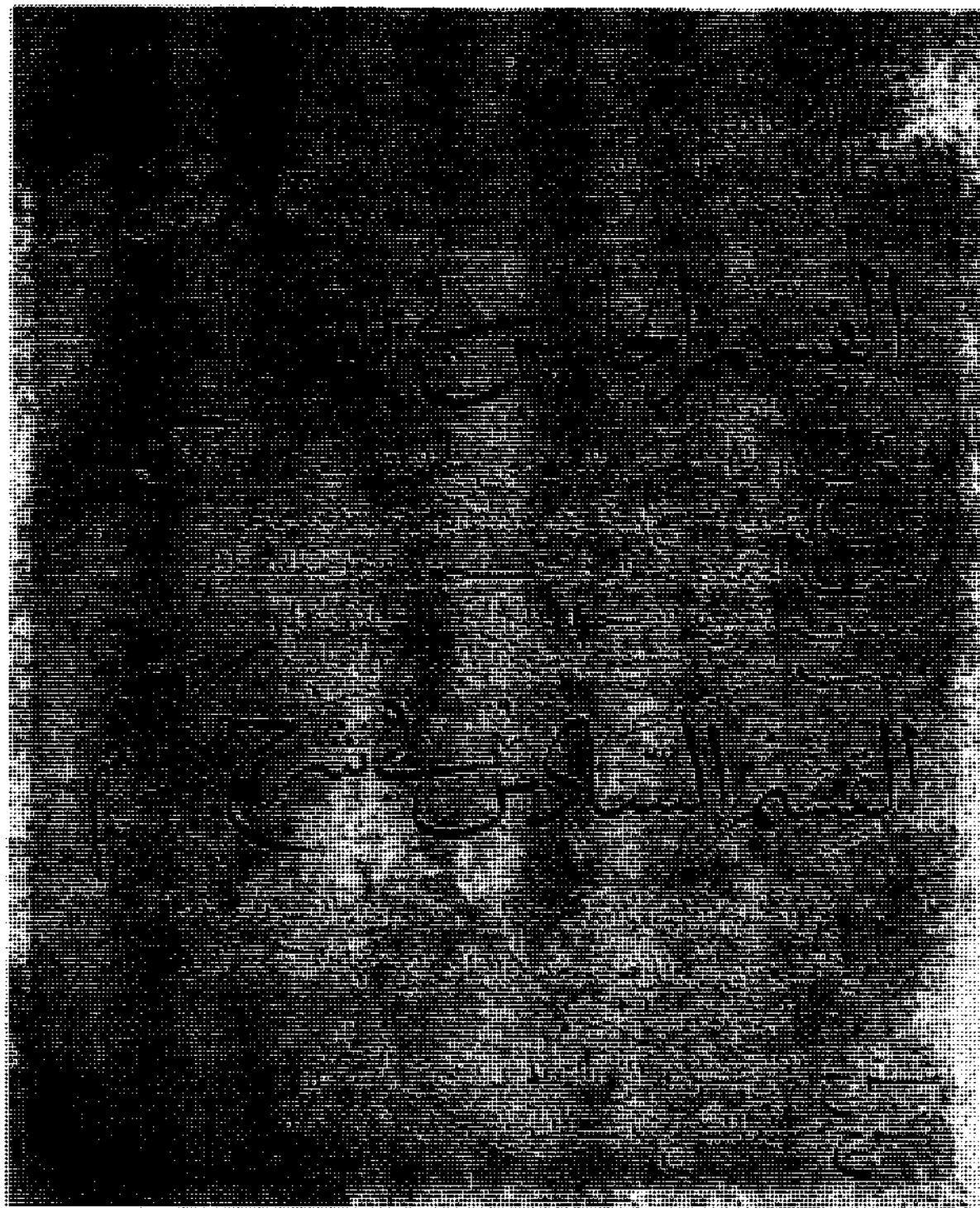
(2) المشتبه 3/ 166، ودرر العقود الفريدة 2/ 261، والضوء اللامع 4/ 132.

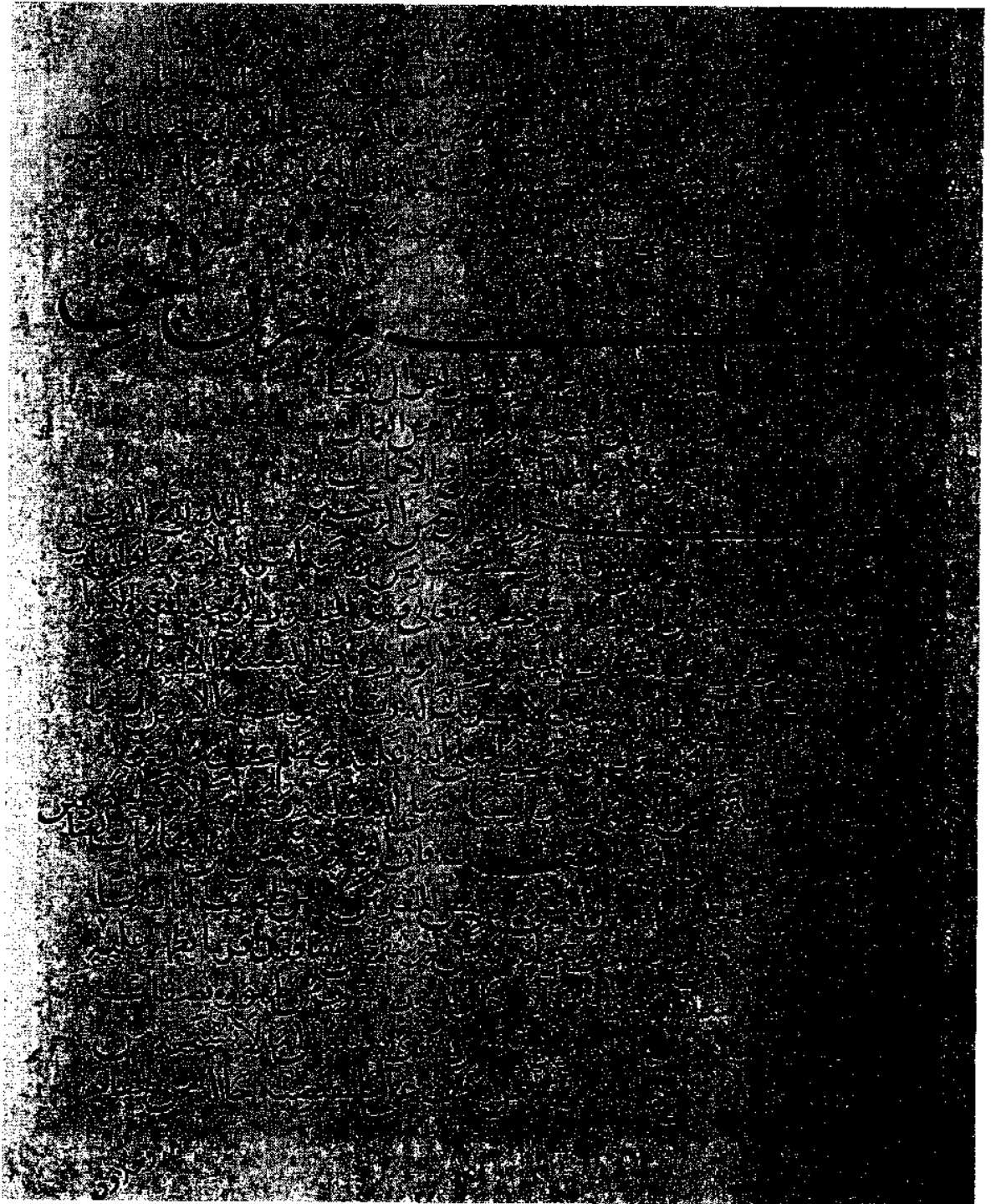
مناذج من صور المخطوط

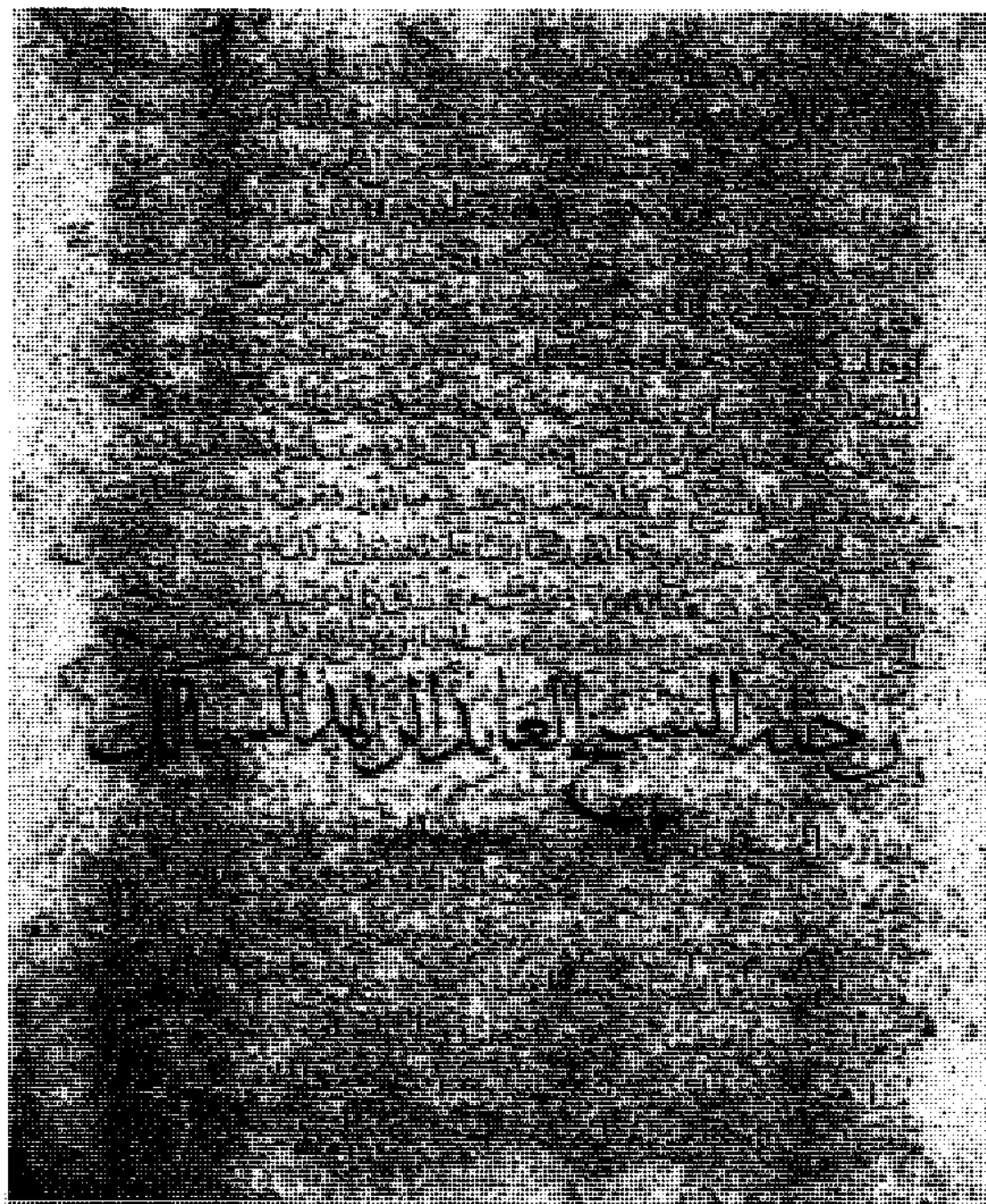


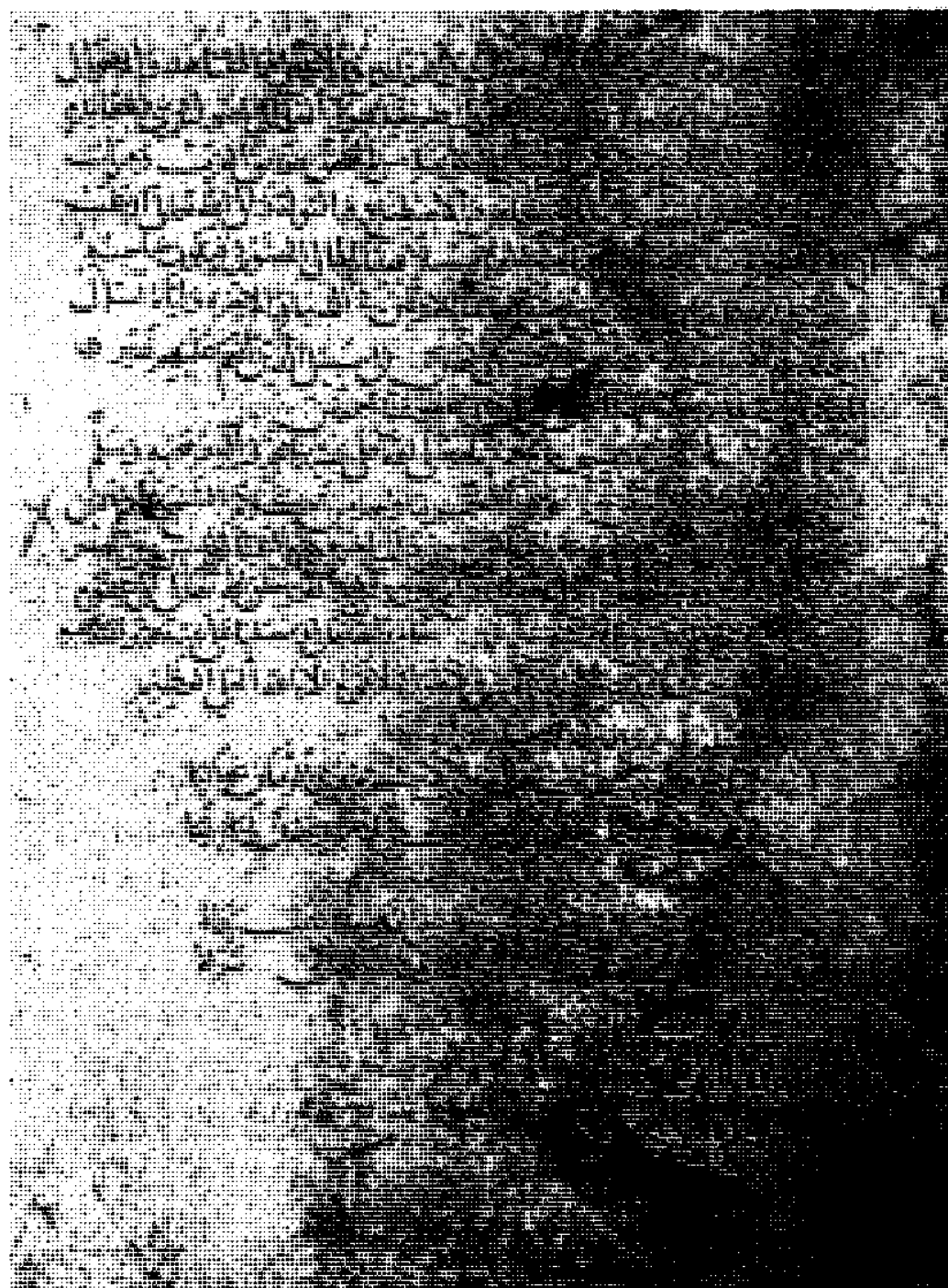












رَحَلَةُ
عِمَادِ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ
الْوَاسِطِيِّ
وَشَرْحُ تَقْلُبَاتِهِ فِي عُمُرِهِ
(ترجمة المؤلف نفسه)

النص:

رحلة الشيخ العابد الزاهد، السالك، العارف، المحقق⁽¹⁾ عماد الدين، أحمد بن الشيخ إبراهيم الواسطي، وشرح تقلباته في عمره، كُتِبَتْ لمستفيد مشتاق إلى الوقوف على أحوال أهل العصر، فيعرف بذلك سَلِيمَهُم من سَقِيمِهِم، ومُغَوِّجَهُم من مستقيمِهِم، والله - بِكَرَمِهِ - ينفع بها طالباً يريدُ بها نهج الاستقامة، واجتناب أحوال أهل الانحراف واللامعة، وذلك بعد مطالعتي لرحلة سلمان الفارسي - رضي الله عنه - في طلب الهدى، وعثوره عليه بعد عناء شديد. وجدتُ بين رحلتي ورحلته مناسبةً من بعض الوجوه، فأحببتُ تعليق جُمْلٍ منها أرجو بها النفع للمهتدين إن شاء الله تعالى، وبه التوفيق والعصمة، وهو حسبي ونعم الوكيل.

(1) المديح زيادة من الناسخ لا جرم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِن

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَيَّنَّ لِعِبَادِهِ مَنَاجِيَ سَبِيلِهِ فَعَبَدُوهُ، وَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِآيَاتِهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَعَرَفُوهُ، وَكَشَفَ لَهُمْ عَنْ قَدْرِهِ فَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَوَثِقُوا، وَظَهَرَ لِقُلُوبِهِمْ بِآثَارِ صِفَاتِهِ فَأَحَبُّوهُ وَاللَّهُوَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ إِذَا هُمْ اتَّبَعُوهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، مَا سَبَّحَهُ الْأَمْلَاكُ وَمَا قَدَّسُوهُ، وَبَعْدُ:

فَلَمَّا كَانَ بَيَانُ الْحَقِّ وَالْهُدَى، لِعِبَادِ اللَّهِ مِنَ النَّصِيحَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِبَيَانِ الانْحِرَافِ، فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ الشَّيْءُ - غَالِبًا - إِلَّا بِضِدِّهِ، وَبِالنُّورِ يَنْكَشِفُ الظُّلَامُ، وَبِالشُّعَاعِ يَتَجَلَّى الْقَتَامُ، أَحَبِّتُ أَنْ أَشْرَحَ حَالَ رِخْلَتِي فِي طَلَبِي، وَمَا لَقِيْتُهُ مِنَ الطَّوَائِفِ الْمُنْحَرِفَةِ عَنْ نَهْجِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، إِذْ فِي النَّاسِ مَنْ يَظُنُّهُمْ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ - وَرَبَّمَا يَتَوَسَّلُ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ - لِيَكُونَ ذَلِكَ لَطَالِبِ الْهُدَى فِي آخِرِ الزَّمَانِ، تَبْصِرَةً وَبُرْهَانًا، وَمَعْرَاجًا إِلَى مَعْرِفَةِ مَرَادِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عِبَادِهِ، فِي مَطَالِبِهِمْ وَعُقُودِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، لِيَقُومَ الطَّالِبُ بِذَلِكَ فَيَلْقَى رَبَّهُ تَعَالَى بِخَالِصِ الْعُبُودِيَّةِ، فَتَقَرَّرَ عَيْنُهُ بِلِقَائِهِ، وَيُجَانِبَ مَنْ ظَهَرَ انْحِرَافُهُ عَنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ الْحَقِّ، وَيَعْلَمَ مَا هِيَ أَذْوَاقِ النَّاسِ، وَحَقَائِقُ أَحْوَالِهِمْ فِي رَأْسِ السَّبْعِمِئَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَخَفَى عَلَيْهِ حَقَائِقُ أَحْوَالِهِمْ، وَيَتَغَطَّى عَنْهُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، حَيْثُ أَحْيَاهُ فِي سِتْرِ الْعَافِيَةِ، وَأَوْقَعَهُ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ طُفُولِيَّتِهِ إِلَى سِنِّ شَيْخُوخِيَّتِهِ، فَهُوَ لَا يَدْرِي مَا أَحْدَثَ النَّاسُ، وَلَا مَا يَتَقَلَّبُونَ فِيهِ مِنْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَشُرَكَائِهِ وَمَصَائِدِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا بَدَّلُوا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ.

فَيُسْتَفَادُ بِمَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْخَلْقِ أَحْوَالَ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْمُبْطِلِينَ، وَالنَّاقِصِينَ مِنَ

الكاملين، والمنحرفين من المستقيمين، ويَتَوَصَّلُ بذلك إلى سُلُوكِ الْحَقِّ واجتنابِ الباطل، ويشكر الله تعالى على نِعَمِهِ والعافية مما أبتلى به كثيراً من خلقه، وذلك بعد مطالعتي لرحلة سلمان الفارسي في سيرة النبي ﷺ، فرأيتُ رحلتي مناسبة من رحلته، فعَلَّقْتُ جُمَلًا منها، وإلى الله أَرْغَبُ في النفع بذلك.

وهذا الْفَنُّ مِنَ الْعِلْمِ حَرَامٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ بِهِ الْوَقِيعَةَ بَيْنَ النَّاسِ، لِئَلَّا أَغْرَضَهُ الْفَاسِدَةُ، أَوْ الْإِنْتِصَارَ لِهَوًى مُتَّبِعٍ. وهو مَبَاحٌ بَلْ مُسْتَحَبٌّ لِمَنْ يُرِيدُ التَّوَقِّيَ مِنَ التَّعَثُّرِ فِي الْوَرَطَاتِ، وَالْوُقُوعِ فِي الْمَزَلَاتِ، لَا لِمَنْ يُرِيدُ الْمَعَايَاةَ وَالْفُرْقَةَ وَالْمَحَاكَاةَ فَيَتَّخِذُ ذَلِكَ فُرْجَةً وَسَمَرًا، لَا مَعْرِفَةً وَعِبْرًا، فَيَكْشِفُ أَسْتَارَ النَّاسِ بِلَا نِيَّةٍ صَحِيحَةٍ، وَالْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ.

فصل

أَوَّلُ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَوْلَدِي وَمَنْشِئِي بَيْنَ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَحْمَدِيَّةِ، لِأَنَّ أَبِي - عفا الله عنه - كَانَ رَئِيسًا مِنْ رُؤَسَائِهِمْ، وَوُزَرَاءِ شِيُوخِهِمْ، وَكَانَ مُطَاعًا، يَقُولُ بِالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي، مِنْ قِضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَرَدِّ اللَّهْفَةِ، وَذَلِكَ هُوَ طَرِيقُ الْفُقَرَاءِ الْأَحْمَدِيَّةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعَامِلُ اللَّهَ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُرِيدُ بِهِ إِقَامَةَ رِئَاسَتِهِ، وَتَحْصِيلَ قِيَامِهِ وَمَادَّتِهِ، فَمَا عَرَفْتُ دِينَ الْإِسْلَامِ، وَلَا فَتَحْتُ عَيْنِي إِلَّا بَيْنَ قَوْمٍ يَتَّخِذُونَ الْغِنَاءَ شِعَارًا، وَالرَّقْصَ عَلَى الْقَصَبِ وَالْكَفِّ قُزْبَةً وَدِثَارًا، وَالْاجْتِمَاعَ عَلَى الضِّيَافَاتِ عَادَةً وَإِلْزَامًا، وَالْاجْتِمَاعَ بِالْأَجْنِبِيَّاتِ مَعْرُوفًا لَا يُنْكَرُ، وَمَحَادَثَتَهُنَّ وَمَسَامَرَتَهُنَّ مَبَاحًا لَا يَقْبَحُ.

لَا يَعْرِفُونَ تَحْرِيمَ غَضِّ الْأَبْصَارِ عَنْ [غَيْرِ] الْمَحَارِمِ، وَلَا يُفَتِّشُونَ عَلَى آدَابِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْحُدُودِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعِزَائِمِ. قَدْ أَشْكُنُوا شِيُوخَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ فِي مَحَلِّ الْعِبَادَةِ، فَإِلَيْهِمْ يَلْجَأُونَ فِي نَوَائِبِهِمْ، وَإِيَّاهُمْ يَذْكُرُونَ عِنْدَ نَوَازِلِهِمْ. الشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ، بَلْ رَبَّمَا عَظُمُوهُ فَوْقَ تَعْظِيمِ الْأَنْبِيَاءِ، مِنْ حِطِّ الرُّؤُوسِ بِالسُّجُودِ، وَكَشْفِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالْإِسْتِجَارَةِ مِنْ سَخَطِهِ وَعَقُوبَاتِهِ الْبَاطِنَةِ الْغَيْبِيَّةِ. يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَقُولُ مَا

يشاء، يُمِيتُ الْحَيَّ، وَيُبرِّئُ الْمَرِيضَ، وَيَضْرِبُ بِسَهْمِهِ مَنْ يَشَاءُ فَيَقْتُلُهُ.

وَوَجَدْتُ فِيهِمْ أَذْكَيَاءَ، يَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ، لَكِنْ حَصَلَ لَهُمْ بِسَبَبِ تَعْظِيمِهِمْ لَشَيْوْخِهِمْ رِثَاسَةً بَيْنَ النَّاسِ وَفُتُوْحًا، فَهُمْ يُقِيمُونَ جَاةَ شَيْوْخِهِمْ إِبْقَاءًا عَلَى حِظْوِ أَنْفُسِهِمْ. لَا يَعْرِفُونَ الْحَلَالَ وَلَا الْحَرَامَ، وَلَا الْوَرَعَ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْإِحْتِرَامِ. يَجِيءُ إِلَيْهِمُ الْمُحِبُّ الطَّالِبُ لَطَرِيقِ اللَّهِ فَيَتَوَبَّوْنَهُ، وَلَا يُعْلِمُونَهُ حُدُودَ اللَّهِ وَلَا أَمْرَهُ، وَكَيْفَ وَهُمْ يَجْهَلُونَهَا عِلْمًا، وَيَتْرَكُونَ أَحْكَامَهَا عَمَلًا؟ لَا يَأْمُرُونَ مَرِيدِيهِمْ بِإِتْقَانِ الْعِبَادَاتِ، وَلَا تَحْقِيقِ مَعْرِفَةِ حُدُودِهَا، مِنْ فَرَائِضِ الطَّهَارَةِ وَسُنَنِهَا، وَفَرَائِضِ الصَّلَاةِ وَسُنَنِهَا. وَيَقُولُونَ: إِذَا قِيلَ لَكُمْ: مَا مَذْهَبُكُمْ؟ فَقُولُوا: الْمَاءُ وَالْمَحْرَابُ !!

أَبْغَضُ مَا لَهُمُ الْفُقَهَاءُ، إِلَّا عِنْدَ نِكَاحِهِمْ وَطَلَاقِهِمْ أَوْ بُيُوعِهِمْ، فَيَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّ أَمْرَهُمْ لَا يَنْفُذُ إِلَّا بِذَلِكَ، وَلَوْ أَمَكْنَ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنْهُمْ لَاغْتَنَوْا، فَلَا مُحَاسَبَةَ فِي الْجَوَارِحِ، وَلَا مَرَاقِبَةَ فِي الْبَاطِنِ، وَلَا مَرَاعَاةَ لِحُدُودِ الشَّرْعِ، وَلَا حِرْصًا عَلَى آدَابِ الرَّسُولِ ﷺ فِي عِبَادَاتِهِ وَعَادَاتِهِ، بَلْ يَحْرِصُونَ عَلَى سِيرَةِ شَيْخِهِمُ الْأَكْبَرِ، مِثْلَ حُضُورِ مَجْلِسِ السَّمَاعِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، يَزْعُمُونَ أَنَّ رِجَالَ الْغَيْبِ تَحْضُرُهُ، فَتَرَى شَيْوْخَهُمْ حَرِيصِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى الْاجْتِمَاعِ، وَجَمْعِ الْهَيْمِ فِيهِ، فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ الصَّلَاةِ نَقَرُوا نَقْرَ الْغَرَابِ، لَا يُصَدِّقُ أَحَدُهُمْ مَتَى يَنْقَلِبُ مِنْ صَلَاتِهِ، فَيَخْرُجُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَى السَّمَاعِ، كَمَا يَخْرُجُ الْمُحْبُوسُ مِنْ بَيْتٍ مَظْلَمٍ ضَيْقٌ إِلَى الْفَضَاءِ.

يَسَافِرُونَ بِأَصْحَابِهِمْ مَعَهُمُ الْمَغَانِي وَالرَّايَاتِ، تَتَّبِعُهُمُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، يُقِيمُونَ السَّمَاعَ، وَتَضْرِبُ النِّسَاءُ مَنْطِقَةً حَوْلَ الرِّجَالِ، بَارِزَةً وَجُوهَهُنَّ، وَرَبَّمَا بَاتَ النِّسَاءُ فِي مَوَاضِعَهُنَّ رَغْبَةً فِي الْأَجْرِ، وَلَكُونَهُ - فِي مَعْتَقَدِهِمْ - مَجْمَعُ الْأَوْلِيَاءِ فَيَتَعَبِدُونَ بِالْمِيَّتِ حَوْلَ الرِّجَالِ، وَفِي ذَلِكَ الدَّسَائِسُ وَقِضَاءُ أَوْطَارِ النُّفُوسِ، فَإِذَا أَقَامُوا السَّمَاعَ عَمَدَ مَوْلَاهُمْ إِلَى حَيَاتٍ لَهُمْ مُعَدَّةٌ فِي الْأَكْيَاسِ، فَيَسْتَخْرِجُونَهَا وَيَقْضُمُونَهَا قَضْمَ الْخِيَارِ، وَتَسِيلُ دِمَاؤُهَا عَلَى أَشْدَاقِهِمْ، ثُمَّ يَنْفُخُونَهَا عَلَى النَّاسِ يَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَحِيلُ فِي أَفْوَاهِهِمْ زَعْفَرَانٌ وَفَاكْهَةٌ، وَرَأَيْتُ مِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ الضَّفَادِعَ يُعِدُّهَا قَبْلَ السَّمَاعِ فِي عُيْتِهِ، فَإِذَا قَامَ الطَّابِقُ أَخْرَجَ وَاحِدَةً وَقَضَمَهَا، وَلَا يُنْكِرُ ذَلِكَ أَحَدٌ

عليهم، لا من فقهاءنا ولا من صلحائنا، بل صارت هذه البدع عندنا سنة معروفة، وشعاراً ظاهراً، فيحسُّ لذلك تملُّك التَّشْرِ بلادهم واستيلاؤهم عليهم، بل هم طيِّبون في دولتهم، لأنهم معتقدون فيهم، معظِّمون لهم، فهل تقوم الطريقة العمياء إلا في الدولة السوداء؟ كما لا تقوم الطريقة المنورة إلا في الدولة البيضاء، دولة أهل الإسلام؟، وربُّما لم ينقطع أثر الخلفاء في بغداد إلا لكونهم لم ينكروا مثل هذه الأشياء، و[لَمَّا] لم يُغيِّروها وسلَّموها لهم، قطعهم الله تعالى لذلك.

أيها السالك، إن أردتَ الطريقة المثلى فاعكس هذه الأمور، واعتمد خلافها تُصِبْ مرادَ الله منك، فهذا سلوكُك لك إن فهمتَ، وهو كافيك.

أَوَّلُ التَّوْبَةِ - عندهم في البداية - الرقْصُ وخدمةُ الفقراء، والنهاية عندهم التي ينتهي إليها الطالب ويحصلُ الوصول؛ أن يصير للفقير قبولٌ بين الناس، ويصير صاحب أخذٍ وعطاء، [و] من لم يكن كذلك لم يصل، ومن حصل له ذلك فقد كُمِّلَ، ولهم مع ذلك أمورٌ تكادُ تُخرجهم من الإسلام، منها:

أنهم كانوا يأخذوني - وأنا طفلٌ - إلي زيارة قُبَّةِ الشيخ، فيمشي في المركب إلى القرية التي هو فيها مدفون - أعني أم عبيدة - فإذا لاحتِ القبة كشفوا رؤوسهم وتضرَّعوا وابتهلوا، وربُّما بكوا وانتحبوا، ورَقَّتْ قلوبهم ودَعَوْا بحوائجهم، فإذا جاؤوا إلى باب قبة الشيخ كشفوا رؤوسهم، وسجدوا على عَتَبَتِهِ، وكنتُ أسجدُ معهم في صِغَرِي، ووقفوا على بابه أدلاءً وقوفاً طويلاً، عَلِمَ اللهُ ما يعظِّمون الكعبة كما تُعظَّم قبة الشيخ، بل هناك في الرواقِ ساريةٌ، فإذا رَأَوْا قبة الشيخ - مَنْ الذي يستجرئ أن يَدْخُلَ القبة؟ بل فيهم مَنْ قد شاخَ ولا يدري ما داخل القبة - ثم يَطْفُونَ سَبْعاً بتلك السَّارِيَةِ، فيكون الوقوف على باب القبة كَعَرْفَةِ، وتلك السارية كالكعبة، فيكون ذلك حَجًّا لهم كحجِّ الرافضة إلى قبر الحسين.

وحكى لي بعض شيوخهم مادحاً لبعضهم، ومُترَحِّماً عليه، أنه: كان يُحْرِمُ إذا لاحتِ القبة، ويتجرَّد من مَخِيط الثياب حتى يدخل القرية، ويقضي أَرْبَه من الزيارة، ثم يُحِلُّ من إحرامه، وفيهم مَنْ لا يَجْزُ شاربِيه إلا عند قبة الشيخ.

وأهل الرّواق المجاورين يَتَعَبَّدُونَ برؤية قبة الشيخ كأنها إله يُعْبَد، فَيَرْمُقُونَهَا بأبصارهم، وتتصاعد لذلك أنفاسهم، ويأنسون أنس العابد بِمَعْبُودِهِ، وكيف لا؟ وهم يَرَوْنَ الْعَالَمَ مِنْ آفَاقِ الدُّنْيَا يقصدونها بالتعظيم، وَحِطَّ الرُّؤُوسُ وَالشُّجُودُ لَهَا، وَيَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ نَذْرًا لَهَا، مِنَ الدَّرَاهِمِ وَالشَّمُوعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَتَحَاشُونَ مُوَاخَاةَ النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ، وَلَا الْمَيِّتِ مَعَهُنَ وَلَا يَتَحَاشُونَ مِنْ مُوَاخَاةِ الصَّبِيِّ الْجَمِيلِ، وَلَا الْمَيِّتِ مَعَهُ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ فِي الْمَيِّتِ لَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ زِنَا، وَرَبَّمَا يَتَّخِذُ الشَّيْخُ مِنْهُمْ أَخَوَاتٍ وَبَنَاتٍ فِي اللَّهِ - بِزَعْمِهِ - فَيَنَامُ فِي جَانِبٍ وَأَخَوَاتُهُ وَبَنَاتُهُ - فِي اللَّهِ - فِي الْبَيْتِ فِي جَانِبٍ آخَرَ، ثُمَّ يُطْفِئُ الْمَصْبَاحَ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَبَرَّكَ بِقَدَمِ الشَّيْخِ - يُكَبِّسُهَا - فَلَا بَأْسَ، فَإِنْ قَبِلَ الشَّيْخُ إِحْدَاهُنَّ وَضَاجَعَهَا فَلَا يُدْرِي مَا يَصْنَعُ بَعْدَ ذَلِكَ!!.

فَإِذَا جَاءَ الشَّيْخَ الْأَكْبَرَ إِلَى مُرِيدٍ مِنْ مُرِيدِيهِ، مِمَّنْ اسْتَخْلَفَهُ وَجَعَلَهُ شَيْخًا، فَيَجِئُونَ أَصْحَابَ الشَّيْخِ الْأَصْغَرَ، وَيَطَالِبُونَهُ بِأَنْ يَجْمَعَ لَهُمْ أَخَوَاتٍ يَسْكُنُونَ إِلَيْهِنَّ، فَيَجْمَعُ الشَّيْخُ مِنْ نِسَاءِ أَصْحَابِهِ جَمْعًا، وَيُفَرِّقُهُنَّ عَلَى أَصْحَابِ الشَّيْخِ. حَدَّثَنِي مِنْ لَا أَتَهُمُهُ، سَعْدُ الْأَكْثَالِ - يَقَعُ فِي قَوَاصِرِ تَمَرٍ، فَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْكُلُهَا بِالْحَالِ - وَأَنَّهُ [لَمَّا] كَانَ صَبِيًّا يَنَامُ فِي عِنَاقِ فُلَانٍ - خَادِمِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الْكَبِيرِ - كَأَنَّهُ يَفْتَخِرُ بِذَلِكَ وَبِعِنَاقِهِ لَهُ!! فَذَكَرَ لِي - وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِصَدَقِهِ مِنْ كَذِبِهِ - أَنَّهُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي - وَهَذَا سَعْدٌ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الشَّيْخَ نَجْمَ الدِّينِ هُوَ مُدَبِّرُ الْأَمْرِ، وَأَنَّهُ حَيٌّ مَا مَاتَ، لِأَنَّهُ لَوْ مَاتَ لَمْ يَقُمْ أَمْرٌ!! سَمِعْتُ ذَاكَ مِنْ لَفْظِهِ. كَأَنَّهُ اخْتَفَى كَمَا اخْتَفَى الْمُنْتَظَرُ الَّذِي لِلرَّافِضَةِ، وَيَسْتَدِلُّ بِهَذَا أَنَّ الْمَضَاجِعَةَ عِنْدَهُمْ غَيْرَ مُحَرَّمَةٍ، يَفْعَلُهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَإِنْ تَنَزَّهَ مِنْهَا وَرَعَ مِنْ وَرَعِهِمْ، إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ تَنْزِيهًا لَا تَحْرِيمًا!!.

هَذَا الَّذِي شَرَحْتُهُ فِي حَقِّ خِيَارِهِمْ، وَأَمَّا شِرَارِهِمْ فَسَمِعْتُ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الصُّنْدُوقَ إِذَا كَانَ طَاهِرًا - يَعْنِي الصُّدْرَ - فَلَا يَضُرُّ الْمِيلَ إِذَا كَانَ فِي الْمَكْحَلَةِ. وَكَانَ يَقُولُهُ مِمَّا زَحَا، وَهُوَ جِدُّ فِي قَالِبِ هَزَلٍ. وَمِثْلُ هَذَا الْجِنْسِ إِذَا وَقَعَ فِي كَفِّهِ امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ وَاقَعَهُ فِيمَا دُونَ الْفَرْجِ، وَقَضَى شَهْوَتَهُ، لَا أَشْكُ فِي ذَلِكَ. هَذَا إِذَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ،

وكم قد أفسدوا من امرأة - وربّما حَبَلوها، ورأيت من حَبَلٍ منهنّ من الزنا⁽¹⁾ - وكم أتلّفوا صبيّاً أخرجوه عن أبويّه وحَسَنوا له الفقر، فيتَّخِذُونَهُ ولدّاً كما يتخذون في الشام الحوار، ثم يعانقونه طول الليل، جهده الاجتماع والمعاشرة والاهتمام بالرقص بالغداة والعشي، وشغل قلب بعضهم ببعض. يبتلى الصبي بذلك فيغيب عن قلبه ما يجري عليه بالليل منهم، فيُصْبِحُ من فراش أحدهم، فيُقَبِّلُ يَدَ الشيخ ويرقص، ويَعْدُو وَيَدُورُ في الطابق، يتوارى عن قلبه مخازيهم بالليل، ويقولون: السماعُ شَبَكَةٌ!! نَعَمْ شَبَكَةٌ لِمَا كَلَّتِهِمْ، ورجوعٌ من شُرود إلى شُرود.

وحكى لي من لا أتهمه: أنهم كانوا يجتمعون في بيتٍ؛ الرجال والنساء خلطاء، ثم يُقِيمُونَ السماعَ فيأخذُهُمُ الحال، فيتَعَرَّى الرجال عن جميع ملابسهم لِيُزُودَ الحال، وتبقى عوراتهم بادية - وهم بادية - فإذا انطفأ المصباح أخذ كل فقير في

(1) وإليك هذا النقل من مصدر (رفاعي) تأكيداً لكلام المؤلف، من كتاب (تشويق الأرواح) لابن السراج الدمشقي، (نسخة إصطنبول، مكتبة عمجه زاده حسين، بخط المؤلف). قال في سياق ذكر كرامات شيخ شيوخه (صالطوق)، (شخصية تركمانية صوفية، لم تتناولها دراسة بالعربية ماعلمت، اسمه في بعض المصادر العربية: سلتق، وكان حياً في سنة 696هـ، وكانت الرفاعية تعظمه جداً، قال ابن السراج: «الواقعة السادسة هي أن أميراً كبيراً من أمراء التتار، أو ملكاً، جاء زوجه، وقالت للشيخ: قال زوجي: إن لم تأت بولد، وإلا فأنت مهجورة. ولي قريب من ثلاثين سنة لم ألد، ولا لي عند زوجي (... كلمة أتت الأرضة عليها)، ودخلت على الشيخ في ذلك دخول المستجير، ووعدت الفقراء بالخير الكثير، فقال: استلقي على ظهرك، ثم أدار كعبه حول فرجها فوق ثيابها، ثم قال: بعد تسعة أشهر وعشرة أيام، تعالي وابني على كتفك، فأنت به في الميعاد، بعد يأسها من الأولاد، وجاء كصورة الشيخ سواء، لا يشبه أباً ولا أمّاً، فإنهما من المغول الملاح، والشيخ تركمانيّ أشقر اللون، أزرق العينين، وطلع مولها في الحال، لا يأنس بأحد، ويقصده الزوّار من كل فج عميق...». الورقة (181)، وقال في كتابه (تفاح الأرواح) عن صالطوق هذا: «وكان قد تابعه في جملة المتابعين (وهم الألف والكثيرة - أربعون بتاً، ومات وهنّ مقيمات في حماء، وتزوج بعضهن، وولدن بنات، فأتين بهنّ، وجعلنهنّ مكانهنّ مرابطات على العادة وأنواع المجاهدة». المنقول الواحد والعشرون وثلاثمئة، وفي جامع كرامات الأولياء (2/100) (102) كرامات أخرى!!

عناقٍ فقيرةٍ إلى الصباح⁽¹⁾، والله أعلم بما كان بعد ذلك، وذلك قُبِيلَ أَخْذِ التَّثَرُّ بِغَدَادَ بِشُؤْمِهِمْ، وَكَانَ الشَّيْخُ الْعَارِفُ نَجْمُ الدِّينِ الْأَصْفَهَانِي -أَعَادَ اللَّهُ مِنْ بَرَكَتِهِ- يَقُولُ: مَا أَتَلَفَ الدِّينَ كَطَائِفَتَيْنِ: الْأَحْمَدِيَّةُ فِي النِّسَاءِ، وَالْحَرِيرِيَّةُ فِي الصَّبِيَّانِ،⁽²⁾ وَأَقُولُ أَنَا: وَالْإِتْحَادِيَّةُ فِي الْعَقَائِدِ أَيْضاً، وَالْيُونُسِيَّةُ قَرِيبُونَ مِنْهُمْ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ أَتَلَفُوا الدِّينَ وَوَسَّخُوهُ، وَقَلَّبُوا حَقَائِقَهُ وَضَيَّعُوا حُدُودَهُ وَاسْتَهَانُوا بِهِ، وَأَحْلَوْا حَرَامَهُ، وَبَدَّلُوا أَحْكَامَهُ، وَانْتَهَكُوا حُرْمَاتِهِ، طَهَّرَ اللَّهُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ، وَأَرَاخَ الْأَرْضَ مِنْ أَنْجَاسِهِمْ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَالَّذِي أَعْتَقِدُهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - أَنَّ التَّثَرُّ لَمْ تَسْتَوِلْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِشُؤْمِ هَؤُلَاءِ الطَّوَائِفِ وَظُهُورِهِمْ، وَعَهْدُهُ مَا هُمْ عَلَيْهِ عَلَى شُيُوخِهِمِ الْأَكَابِرِ، كَالشَّيْخِ أَحْمَدَ الْكَبِيرِ وَأَمْثَالِهِ، فَإِنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ ابْتَدَعَ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ، وَلَمْ يَضْبُطُوا أَصْحَابَهُمْ عَلَى تَحْرِيمِ النَّظَرِ، وَغَضِّ الْأَبْصَارِ، وَتَحْرِيرِ الْمُرَاقَبَةِ وَالْمَحَاسَبَةِ، وَكَأَنَّ

(1) (إطفاء المصباح) من طقوس بعض الفرق التصوفية، تسرَّب إليها من ديانات الشرق القديمة، و كان منتشرًا في بعض الطرق الصوفية في الأناضول ذات الصبغة النصيرية، وهذا نصٌّ نادرٌ يفهم منه انتشار هذه الطقوس الإباحية في العراق أيضاً.
انظر: كتاب الاستقامة لابن تيمية (450/1).

(2) قَيَّدَ صُوفِي مِنَ الْأَوْحِدِيَّةِ، مُعَاَصِرٌ لِلْمُؤَلَّفِ، سَكَنَ الْأَنْاضُولَ، قَيَّدَ رِوَايَةً عَنْ زَعِيمِ الْحَرِيرِيَّةِ تَوَيْدَ مَا نَقَلَهُ الْوَاسِطِيُّ هُنَا، وَخَلَّصْتُهَا: أَنَّ الْأَوْحِدَ الْكِرْمَانِي دَخَلَ حِمَاماً فِي مِصْرَ كَانَ فِيهِ عَلِيُّ الْحَرِيرِيُّ وَمُرِيدُهُ الصَّبِيَّانُ فَوَجَدَ الْجَمِيعَ عَرَايَا، وَأَنَّ غُلَمَانَ الْحَرِيرِيِّ كَانُوا يُكَبِّسُونَ مِنْ جَسَدِهِ كُلَّ مَوْضِعٍ حَتَّى مَا لَا يَحْسُنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ، وَأَنَّ الْكِرْمَانِي سَمِعَ مِنْ مَجُونِ الْحَرِيرِيِّ يَوْمَئِذٍ مَا سَمِعَ، (انظر كتاب مناقب أَوحد الدين الكرمانى، الحكاية 67، ص 276 ترجمه من الفارسية إلى التركية الدكتور ميكائيل بايرام)، وانظر رأي محمد بن السراج الدمشقي الرفاعي في كتابه (تفاح الأرواح) قال: "إن الصبيان أقرب إلى رؤية النور الإلهي، والإنعمال الكلي للمعنى الرباني، الذي أودعه الله تعالى في أوليائه، وخزنه في قلوب أصفياه، يعلم ذلك من هداة الله، ويعتقده من أيده الله".

تفاح الأرواح، (الورقة 126) عند نقله أخبار علي الحريري الرفاعي.

لهم نصيباً من ربهم استغنوا به عن تحرير الشريعة، ومع ذلك فهم يقرؤون القرآن قراءة من لم تبلغه عن الله دعوة، ويعظمون النبي ﷺ تعظيم من لا يعلم بأي شريعة جاء، لا تجاوز قراءتهم حناجرهم، بكم غنم كالبهائم السارحة، والأنعام الراتعة، ينادون من مكان بعيد، ويرون الشريعة من بعيد، يغيضون القائمين بها - وهم العلماء - بغضاً ما عليه مزيد⁽¹⁾، فما قولكم - معشر العقلاء - في طفل لم يفتح عينه إلا بين هؤلاء؟ ولم يعرف دين الإسلام إلا هكذا؟.

ومن ألطاف الله تعالى بي أن خلق في غريزة في حال الطفولة كنت أعلم بها أن هؤلاء ليسوا على شيء، وأن الحق وراء ما يدعونه، وكنت أتشبث برسالة القشيري، وكتاب (القوت) و(الإحياء) فأعلم باطلهم علماً في القوة، ولا سبيل إلى ظهوره في الفعل، لأن الدولة لهم، فلا يمكن ظهور ذلك في الفعل أصلاً، وأكابر العلماء المحدثين، كعز الدين الفاروئي من أشياعهم وأنصارهم يحضر مجالس سماعاتهم، وحضرته - وأنا طفل - مراهق - وقلت: قال النبي ﷺ: (كل محدثة بدعة)، فكيف حال هذا السماع؟ قال: فتشاغل عن جوابي، ولم يعجبه ذلك. وكان أنهى ورعه أنه كان يكره السماع في المسجد، وربما حضره في المسجد تقيّة ومُدَارَة. رأيته في مسجد يعمل فيه السماع، فهذا حال المشايخ المحدثين العلماء، فكيف يقوم الحق المحمدي، والدين الفرقاني بين هؤلاء؟ بل كيف يعرف ويعلم فضلاً عن قيامه ونصرتيه؟

ومعلوم إذا انطاع أهل المدن لمشايخ البرّ الفلاحين فسَدَ دينهم وانقلبت أمورهم، وإن كانوا أولياء، وذلك لأن قلة العقل على أهل البرّ ظاهرة، ولم

(1) من صور بغضهم سبابهم وهم في صلب الصلاة للإمام، مثل قولهم: (أنا على بطن امرأة الإمام، وكذا وكذا من الإمام، ويصيحون صياحاً عظيماً). انظر ما حكى عنهم في مجموع الفتاوى لابن تيمية (453/11، 452، 456، 461، 458، 462، 474)، وتفاح الأرواح (الورقة 192)

يَبْعَثُ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْ أَهْلِ الْبَرِّ قَطُّ، وَلَا مِنْ عَرَبِ الْبَادِيَةِ، فَإِذَا انْطَاعَ أَهْلُ الْمَدَنِ لِلْعُلَمَاءِ صَلُحَ أَحْوَالُهُمْ، وَتَمَتَّى انْطَاعُوا لِفُقَرَاءِ الْبَرِّ فَسَدَتْ أَحْوَالُهُمْ، ثُمَّ سَرَتْ هَذِهِ الْبِدْعُ مِنَ الْأَحْمَدِيَةِ فِي سَائِرِ طَوَائِفِ فَقَرَاءِ الْبَطَائِحِ وَمَشَايِخِهِمْ، مِنْ مَوَاحِدَةِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ وَمُضَاجَعَتِهِمْ، وَمَسْكِ الْحَيَاتِ، وَنُزُولِ النَّارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَخَازِي، فَالْوَفَائِيَّةُ - عِنْدَنَا - يَنْزِلُونَ النَّارَ، وَالْبَدْرِيَّةُ - عِنْدَنَا أَيْضًا - يَوَافُونَ الْمَرْدَانَ، وَأَنْسَبُ الطَّوَائِفِ - عِنْدَنَا - الْحُلُوبِيَّةُ، أَصْحَابُ الشَّيْخِ ابْنِ حُلُوبَا، عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنَ التَّمَسُّكِ، لَكِنْ غَلِبَتْهُمْ طَرِيقَةُ الْأَحْمَدِيَةِ، مِنْ إِظْهَارِ شَعَارِ السَّمَاعِ بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ، وَاجْتِمَاعِ النِّسَاءِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ فِي السُّطُوحِ يَتَفَرِّجُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَتَهْتَكُهُمْ، فَالْأَحْمَدِيَّةُ كَانُوا كَالْجَرَبِ جَرَبَ بِهِمُ النَّاسَ، وَاقْتَبَسُوا مِنْ ظُلُمَاتِهِمْ، وَقَامَتْ دَوْلَتُهُمْ أَيَّ قِيَامٍ، فَكَيْفَ يَقُومُ الدِّينُ مَعَ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ؟

فصل

ثُمَّ انْتَقَلْتُ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ إِلَى طَبَقَةِ الْفُقَهَاءِ الشَّافِعِيِّينَ لِأَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ، فَوَقَعْتُ بَيْنَ طَائِفَةٍ خَيْرٍ مِنَ الطَّائِفَةِ الْأُولَى، عِنْدَهُمْ عِلْمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ، وَعِلْمُ مَا يَجُوزُ وَمَا لَا يَجُوزُ، وَعِلْمُ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَاعْتِقَادُ ذَلِكَ وَعِلْمُهُ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ نَوْرٌ وَهْدًى، فَضَلَّ عَنْ الْعَمَلِ بِهِ، لَكِنْ الْقَوْمُ فِيهِمْ الْفَقْهُ لَا غَيْرَ، وَفِيهِمْ مَنْ يَشَارِكُ فِي أَصُولِ الْفَقْهِ، وَاصْطِلَاحِ ابْنِ الْخَطِيبِ مَعَ تَعْظِيمِهِ وَتَبْجِيلِهِ، وَالْإِقْرَارِ بِأَنَّهُ الْأَمَامُ الْأَعْظَمُ، وَأَنَّهُ رَكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ، وَإِذَا ذُكِرَ [ذُكِرَ] قَبْلَ الْإِمَامِ وَتُرْضِي عَنْهُ، وَغَالِبٌ مَا فِيهِمْ عِلْمُ خُصُومَاتِ النَّاسِ وَوَقَائِعِهِمْ، فَقُلُوبُهُمْ مَشْحُونَةٌ بِمَسَائِلِ (التَّنْبِيهِ)، وَ(الْمَهْذَبِ)، وَ(الْوَجِيزِ)، وَ(الْوَسِيطِ)، وَ(شَرْحِ الْوَجِيزِ)، وَ(الْحَاوِيِ)، وَ(الْبَابِ)، وَ(الْعُجَابِ) لِعَبْدِ الْغَفَارِ، وَ(الْمَحَرَّرِ) لِلرَّافِعِيِّ.

لَا يَوْجَدُ عِنْدَهُمْ أَصُولُ السَّنَةِ؛ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَقَوَاعِدِهِ، وَمَعْرِفَةِ رَجَالِهِ، وَعِلْمِ صَحِيحِهِ مِنْ سَقِيمِهِ، وَلَا عِلْمِ مَعَامَلَةِ اللَّهِ بِالسُّنَةِ، وَلَا مَعْرِفَةِ عِنْدَهُمْ بِقَوَاعِدِ الْإِعْتِقَادِ، مِنْ طَرِيقِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ الْأَوَّلِ، كَالشُّفَيَانِيِّينَ، وَالْحَمَّادِيِّينَ، وَابْنَ

المبارك، وأحمد، وإسحق، وأمثالهم بل قواعد عقائدهم من أصول المتكلمين بالعقل والنظر. والصالح الورع فيهم الممسك عن الخوض في العقائد، ويسلم أمر ذلك إلى مراد الله، فيؤمن بذلك إيماناً مجملاً، لا تفصيل فيه، يابسة طباغهم، خالية قلوبهم عن روائح المحبة لله، والخوف منه، والتعظيم له، والشوق إليه، لا يشم منهم روائح العبودية، ولا الصدق في المعاملة و[لا] الإخلاص فيها، ولا المسارعة إلى البر بالقصد الصحيح وانشراح الصدر، متكالبين على الرئاسة والمعلوم، مزاحمين على المناصب، تخرج نفس أحدهم إذا جلس أحدهم فوق مرتبته، حتى ربما ينغص عليه طعامه وشرابه، وربما وقع فيه بالغية والطعن، فهم أوعية فقه وأحكام وخصومات الناس لا غير.

إذا جاءت حكومة فرجوا عنها بما ينقلونه من الكتب لإباحتها، ولا تفتيش على أصل هذه المسألة من الحديث، بل إذا وصل الأمر إلى الشرح أو إلى نص فلان انتهى الأمر عنده، ومع ذلك فوالله لقد استفدت منهم علم ما يجوز وما لا يجوز، ومن العجائب أنني أجد فيهم من يعتقد في تلك الطائفة، ويزوره مع علمه بانحراف طريقهم، فاستدل بذلك على أنه ليس عنده من النور المحمدي ما ينكشف به أحوال القوم، فبقيت معهم برهة من الزمان محبوساً كالطائر في القفص، ولا أشم الهواء إلا من كتب الصوفية.

فصل

ثم انتقلت عنهم إلى ضحبة مطاوعة البغادة وفقراهم، فوجدتهم خيراً من أولئك الأولين بألف طبقة: يحرمون الحرام، ويحلون الحلال، ويتمسكون بمعظم مذاهب الفقهاء غير أنهم أهل دلو، ومزقات، وشرائح رقائق، ظراف لطاف، غالب همهم في الشهوات، من طيب الطعام، وحسن اللباس، وهندام الثياب، ومنادمة الأغنياء، ومصادقتهم ومباستطهم والتواضع الزائد لهم، والمزح معهم، واستجلاب رفقتهم، وفتوحهم.

غالبٌ حَدِيثُهُمْ فِي نَهَارِهِمُ الْخَلَاعَةَ وَالْبَسْطُ وَالتَّرْتُّمُ بِالْأَنْغَامِ وَالْقَصَائِدُ وَالتَّطَايُبُ عَلَيْهَا، فَإِذَا رَقَّصُوا فَلَهُمْ فِي رَقْصِهِمْ هَيْئَةٌ ظَرِيفَةٌ مِنَ التَّوْقِيعِ عَلَى الْمَوْسِيقَا، مِثْلُ أَنْ يَرْفَعَ رِجْلًا وَيَحْطُ أُخْرَى، وَمِثْلُ أَنْ يَتَحَدَّثُوا وَيَنْطُطُوا نَظًّا عَلَى ذَلِكَ الْإِنْجِدَابِ رَاكِعِينَ. لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْأَذْوَاقِ، وَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ ذُبُولُ الْعِبَادِيَّةِ، وَلَا سِيَمَاءُ الْخَوْفِ، وَلَا حُرْقَةُ الْمَحَبَّةِ، وَلَا جَمْعُ الْهَمِّ عَلَى الْعِبَادَةِ بِالْقَصْدِ الصَّحِيحِ، وَلَا يَوْجَدُ مِنْهُمْ رَوَائِحَ الطَّلَبِ، وَلَا يُسْمَعُ مِنْهُمْ قَوَاعِدَ السَّيْرِ وَالسَّلُوكِ وَالْوُصُولِ، وَقَطَعَ عَقَبَاتِ النَّفْسِ، وَوَجَدَانِ الْأَذْوَاقِ مِنَ الطَّوَالِعِ وَالْبَوَارِقِ وَاللَّوَائِحِ، وَلَا يُرَى عَلَيْهِمْ ذُبُولُ الْخَوْفِ، وَلَا سِيَمَاءُ الْمَحَبَّةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا فِي السَّمَاعِ، رَبِّمَا رَقُّوا وَخَشَعُوا، فَإِذَا خَرَجُوا عَنِ السَّمَاعِ عَادُوا إِلَى تِلْكَ الْعَوَائِدِ النَّفْسَانِيَّةِ، وَالْأَوْضَاعِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ، لَكِنْهُمْ أَهْلُ تَأَلُّفٍ، وَتَوَادُّدٍ وَتَوَاصُلٍ وَتَرَاحُمٍ، وَخُلُقٍ وَإِثَارٍ، بَلْ غَالِبٌ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْخَلَاعَةِ، وَالتَّرْتُّمِ بِظَاهِرِ الدِّينِ، وَفِيهِمْ مَنْ لَهُ وَرْدٌ بِاللَّيْلِ وَصِيَامٌ وَحَجٌّ، بَلْ غَالِبٌ مُجَاهَدَتُهُمْ الْمَجَاوِرَةُ بِمَكَّةَ، فَمَنْ جَاوَرَ سَنَةً انْتَهَى سَيْرُهُ فِي سُلُوكِهِ!!.

الْعَادَاتُ عَلَيْهِمْ غَالِبَةٌ، وَتُفَوِّسُهُمْ عَنِ الْحَقَائِقِ مَخْجُوبَةٌ، لَمْ أَرَ فِيهِمْ نَاقِدًا، وَلَا طَالِبًا، وَلَا مَنْ يُشِيرُ إِلَى طَلَبِ الْوُصُولِ أَصْلًا. هَذَا فَنٌّ قَدْ مَاتَ عِنْدَهُمْ، وَلَيْسَ الْفَقِيرُ عِنْدَهُمْ إِلَّا مَنْ مَدَّ كُسِيرَةً، أَوْ يُكْرِمُ الْأَخْوَانَ بِالضِّيَافَةِ، أَوْ يَفْتَحُ الطَّابِقَ بِالسَّمَاعِ فَتَرُقُّ الْقُلُوبُ لَهُ، فَيُضَيِّفُ النَّاسَ بَرَقَةَ الْقُلُوبِ. هَذَا أَعَزُّ أَحْوَالِهِمْ وَأَعْلَاهَا، وَانْتَهَى الْأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ.

يُعْظَمُونَ الْمَشَايخَ لَا كَتَعْظِيمِ أَوْلَئِكَ، بَلْ فِيهِمْ شُعْبَةٌ مِنْهُمْ، يَكْشِفُونَ رُؤُوسَهُمْ عِنْدَ قَبَةِ ابْنِ إِدْرِيسٍ مِنَ الصَّحَرَاءِ، وَيُقَبِّلُونَ عَتَبَةَ بَابِهِ - فَعَلْتُ ذَلِكَ مَعَهُمْ وَأَنَا شَابٌّ - إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَقْعُونَ فِي تِلْكَ الْمَنَاجِسِ، وَرَبِّمَا عَشِقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَمْرَدَ عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ لَا يَجُوزُ. وَإِذَا رَأَوْا صَاحِبَ عِبَادَةٍ وَوَرَعَ لَا يَتَكَايَسُ مَعَهُمْ، وَلَا يَحْضُرُ السَّمَاعَ، وَلَا يَطِيبُ فِيهِ، قَالُوا: هَذَا يَابِسٌ ثَقِيلٌ، فَعَاشَرْتُهُمْ، فَلَمْ تُعْجِبْنِي حَالَهُمْ، وَعَرَفْتُ بِغَرِيزَتِي أَنَّ الْأَمْرَ فَوْقَ ذَلِكَ. وَلَا أَشْمُ الْهَوَاءَ إِلَّا مِنْ كِتَابِ

الصوفية.

فصل

فَأَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِي مَعْرِفَتَهُ وَقُرْبَهُ، وَهَامَ قَلْبِي بِذَلِكَ، وَلَا أَعْلَمُ حَقِيقَةَ مَا وَقَعَ بِقَلْبِي، وَلَا أَجِدُ مَنْ يَذُنُّنِي عَلَى مَطْلَبِي، وَلَا مَنْ يُوقِعُنِي عَلَى ذَوَائِي، وَلَا مَنْ يُعَرِّفُنِي مَا هَذَا الْهَيْمَانُ الَّذِي وَقَعَ بِي، فَبَقِيتُ مُتَحِيرًا وَالْهَاءُ لَا أَجِدُ الْقَرَارَ، وَصَدْرِي يَضِيقُ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ الَّتِي صَحِبْتُهَا وَعَاشَرْتُهَا، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَلَاثَةِ وَثَمَانِينَ وَسِتْمِئَةِ (683هـ) أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، فَهَاجَرْتُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمِصْرَ، فَوَجَدْتُ بِهَا مِنَ الطَّوَائِفِ مِثْلَ الَّذِينَ شَرَحْتُ أَحْوَالَهُمْ، مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَطَاوِعَةِ سِوَاءَ بِسِوَاءٍ، وَمَعَ ذَلِكَ أَجِدُ قَوْمًا أَهْلَ سِيَمَاءٍ حَسَنٍ وَعِبَادَةٍ، يَسِيرُونَ إِلَى صِيَامِ الدَّهْرِ وَالْعِبَادَةِ، وَلَا شُعُورَ عِنْدَهُمْ بِالطَّلَبِ وَلَا الْمَطْلُوبِ، وَلَا السَّيْرِ وَلَا السُّلُوكِ. عُبَادُ صِرْفٍ، أَوْ فُقَهَاءُ صِرْفٍ أَوْ مَطَاوِعَةُ صِرْفٍ. لَا أَجِدُ مَنْ يُشِيرُ إِلَى الْمَطْلُوبِ أَوْ يُعَبِّرُ عَنْهُ، فَلَطَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِي، فَوَقَعْتُ فِي الْإِسْكَانْدَرِيَةِ بِطَائِفَةِ عَرَفُوا مَقْصِدِي وَمَطْلَبِي، فَأَنْسَيْتُ بِهِمْ بَعْضَ الْأَنْسِ.

شَهِدَ قَلْبِي بِأَنَّ مَعَهُمْ شَيْئًا صَحِيحًا، فَإِنِّي وَجَدْتُهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى مَعْرِفَةِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْعِبُودِيَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَطَرِيقَ ذَلِكَ، وَبِأَيِّ وَجْهِ يَحْصُلُ ذَلِكَ، وَيُشِيرُونَ إِلَى مَحَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَالانْجِدَابَ بِالْهَمَّةِ إِلَيْهِ، وَشَمَمْتُ مِنْ أَنْفَاسِهِمْ أَنَّ هُنَاكَ قَوْمًا خُضُّوا بِالْمَحَبَةِ وَالْإِصْطِفَاءِ وَالتَّخْصِصِ وَالتَّوَلِيَةِ، دَخَلُوا فِي خَضَرَاتِ الْأَسْمَاءِ، وَتَحَقَّقُوا بِشَيْءٍ مِنْهَا، وَأَعْطُوا حَقِيقَةَ اسْمٍ أَوْصَفَ عَرَفُوا اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهَا، فَهَامُوا بِحَبِّهِ، وَانْقَادُوا لِإِرَادَتِهِ، وَصَارَتْ بِذَلِكَ إِرَادَتُهُمْ تَبْعًا لِإِرَادَةِ رَبِّهِمْ، ثُمَّ كَشَفَ لَهُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْ سُبُحَاتِ الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ وَالْبَهَاءِ وَالْكَمَالِ، وَالْبَقَاءِ الْأَزَلِيِّ وَالْجَمَالِ، فَلَزِمَ قُلُوبَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْكَشْفِ هَيْمَانٌ وَاخْتِرَاقٌ فَهُمْ يُرَاقِبُونَ مَشِئَاتِهِ وَيَرْضَوْنَ بِهَا، وَيَرَاعُونَ أَوَامِرَهُ وَيَقُومُونَ بِهَا،

وأرواحهم مختطفةً بأشعة عظمتهم وكبريائهم، والهةً بقربه، وأعضاؤهم ومفاصلهم مُمتلئةٌ من أنواره المخزونة من أنوار جلاله وعظمتهم، وفيهم من له مكالمة ومحادثة وتعريفات من ربه، يعرفه بها في اليقظة والمنام، وفيهم من له هاتف وتعريف من الإلهام.

ووجدتهم أشدَّ الناس تعظيماً للشرعية والأوامر والنواهي، زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة، محبين لله والهيئ بقربه، قد رفضوا كل شيء سواه، فلما خَلَّتْ قلوبهم من غيره امتلأت من حُبِّه، ومن كَشَفَ أسمائه وصفاته، وعظمتهم وقُدُس ذاته، يرى أحدهم تَدْبِيرَه واختياره من أكبر الذنوب، فهو فَرِحَ مستبشراً بحُسن اختيارِ رَبِّه، مطمئن إليه، ساكنٌ إلى ما ذكره به في أزلِّه، على وَفْق حِكْمته ورحمته، حتى كأن أحدهم مع ربه، يراه عياناً بقلبه، ويشرق على وجهه آثارُ جلاله ومحَبته وتعظيمه والانقياد لحُكْمه، ووجدت آثارَ ذلك فيهم وفي حركاتهم وسكناتهم وتَقْلُبَاتهم، فوالله لقد فرحتُ بهم فرحاً شديداً، وسَكَنَ قلبي إليهم وإلى طريقهم بعض السكون، لأنني رأيتُ معهم شيئاً هو غاية الغايات، ومنتهى الطَّلِبَات.

ثمَّ إِنِّي فَتَشْتُ على أساس هذه الذروة التي عندهم على أي أساس قام من العقائد والأصول، فوجدت القوم لا شعور لهم بالشُّنَّة، ولا الأيام النبوية، ولا السَّير الصَّحَابِيَّة، ولا الأخلاق الدينية، ووجدتهم يعتقدون شيئاً من التَّجَهُم، إلا أَنِّي لم أجدهم يُصَرِّحون بالتعطيل، بل ميلهم إلى الوقوف، ولا أَشْكُ أَنَّهُم ينكرون بعض الصفات أو يقفون فيها، كما هو مذهب المتكلمين، ومن ذلك وجدت عليهم كَسْفَةً، وفي لَمَحَات وجوههم سَعْفَةٌ، ووجدت هذه الأحوال المذكورة عندهم قد اقتبسوها من شيوخهم، فهم لا يذكرون إلا شيوخهم، لا يستندون فيها إلى الحديث، وإن لم تخالفه لكن مادتهم من أنفاس شيوخهم، وشيوخهم قَبْل قلوبهم، إليهم يتوجَّهون في أحوالهم، وعلى كشفهم يُعَوِّلون، ولا يعرفون ربهم إلا من حيث قَدَمُه وأزليَّته، حيث كان ولا شيء معه، ولا يشيرون إلى كشوف القرآن، ولا إلى تجليات الصفات في تلاوته، ولكن مع ذلك وجدت معهم شيئاً وأي شيء، كما قيل:

على مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَإِنْ كُنْتُ مِنْ لَيْلَى عَلَى الْهَجْرِ طَاوِيَا

فحصّلت بتوفيق الله تعالى ما حصّلت من فوائدهم، وبركة صحبتهم ضمن ما حصلته من فوائد الفقهاء اليايسين، من معرفة ما يجوز وما لا يجوز، فصار ذلك كالقلب الجسمي وهذا كالروح، لكن كلاهما يابسان، فقه يابس عن رطوبة الحديث، ومقابلة النبي ﷺ في الأحكام والأخلاق، وحال يابس عن مقابلة الرسول ﷺ، فقه مقابل لأئمة الفقه، وحال مقابل لأئمة التصوف والرسول ﷺ له السكّة والخطبة، والحكم والتوجّه إلى غيره، فبقيت كالعائز الذي حصّل أول الدرجات ولاحت له أعلاها وهو عائز بينهما من الدرج، فقنّعت بذلك في الحالة الراهنة وتغذى قلبي بذلك من جوعه، فإن الجائع يتغذى بمهما كان قوتاً.

فصل

فوقّعت بعد ذلك بين طوائف صوفية الرّسم، في الرباط، فوجدت قوماً أهل سيماء ظاهرة، وسجّادات وهيئة، وأشكال وذقونٍ مُسرّحة، وشيء من الأنوار لائحة، فصحبتهم، فوجدتهم يُشيرون إلى الذّكر والخلوّة، وتناول المعلوم، والاشتغال بالعبادة، لكنني وجدت قلوبهم مشحونة بحركات إخوانهم، لا يطرف بعضهم إنكاراً وتطلعاً، وحسداً وغيبة. يقولون: خرج فلان، دخل فلان، رأيته يتحدّث في السوق مع فلان، فتوجه كذا. فلان له معلوم كذا، بحيث لا يخلو قلب من يصحبهم عن حركاتهم، إلا نادراً، ومع ذلك فربانيّة الرسوم في صدورهم يعبدونها، قد استعبدتهم وملكتهم، لا تخلص لهم فريضة لله، مثاله:

يتوضأ أحدهم حتى يصلي الله الفريضة، وهو مع ذلك ملّفت إلى الخُدّام إن تأخر عن الصلاة مع الجماعة في الرباط أن يتكلموا فيه، وإن دام ذلك التخلّف منه يوماً أو يومين خاف أن يقطعوا معلومه، ولذلك يخاف أحدهم إن فاتته وظيفة العصر معهم، أو وظيفة يوم الجمعة أن يتكلموا فيه، ولو تأخر عن ذلك أياماً قطعوا معلومه، وأخرجوه من بينهم فقط، لا تخلص عبادتهم لله، وكيف تخلص عبادة من يخاف غير الله؟ أو يعمل عملاً لغير الله؟ وإن كان الله فهو مشوب بالنظر إلى غير الله.

يخاف أحدهم بينهم من رُتَّة ثيابه أو وَسَخِه أن يمقتوه، أو يخرجوه من بينهم، وكذا لا يقدر بينهم أن يلبس عباءة مخطَّطة إلا سوداء أو بيضاء، فيخاف أحدهم أن يخرج عن هيئتهم، إذ لو خرج عنها لقطعوا معلومه.

وفيهـم شيء من طـبيعة التَّـرُّ كُـلُّ من قام بالرسم قَبْلُوه ؛ اتحاديًّا كان أو زنديقًا، لا يعترضون عليه، وكذلك - دائماً - يكون عندهم الصُّـدْرِيَّة والعَرَبِيَّة مع علمهم بانحرافهم. كذلك التَّـرُّ، كُـلُّ من قام بالطاعة قَبْلُوه يهودياً كان أو نصرانياً. ويرون القيام بِذَمِّ البدع فضولاً، ليس من وظيفة الصوفي ذلك، بل وظيفته السكوت والقيام بالرسم، وتناول المعلوم، [و] إذا قام بذلك حَصَلَ المقصود.

يُعْظَمُونَ - بينهم - ذا الهيئة من صاحب المزدوجة الكبيرة، والأكمام الواسعة والذقن الطويلة خصوصاً إذا كانت بيضاء، كان هو المشار إليه بينهم. فوجدت - قطعاً - [قوماً] لا يقدر العبد على عبادة الله وحده، لا شريك له بينهم، ولا يجد بينهم لذة الطاعة، ولا الامتلاء من الذكر، ولا استيلاء ربانية الحق على القلوب، ولا وجود ذوق خالص العبودية، ووجدتهم في ظُلْمة وعماء، لهم صورة بين العالم، وقلوبهم مغمورة برسم العبادة، وشيء يَسِيرُ من الحقائق، مخلوط بأمثاله من ربانية المخلوقين وأوضاعهم، فاسترحت بينهم من وجهه، ولم أسترح من وجه آخر، فالراحة بينهم بسبب الجمعية لصفاء النظر، فإن ذلك إنما يكون بالكفاية والقطع عن الشواغل، وذلك موجود بينهم، فلما صفا العقل والفكر، وأبصر الإنسان ما بين يديه، وأراد أن يعبد الله بكمال العبادة وجد نفسه مقيداً بينهم عن النفوذ.

فصل

واعترني في الرُّبُط قوم يشيرون إلى المحبة والتوحيد، ويشيرون إليه، ويقولون: فلان موحد، وفلان ما شَمَّ من التوحيد شيئاً، ويعظمون شأن توحيدهم، ويقولون: من يصل إليه ؟ ويذكرون شيوخهم كابن عربي، والصدر القُونَوِي، فبقيت مدة أُفْتُش على التوحيد الذي يشيرون، فوجدتُ حاصلَ توحيدهم أنهم يجعلون الحق تعالى هو الوجود المُطْلَق الساري في جميع الأكوان، وأنه حقيقة الأعيان، من

الحيوان والجماد، ويزعمون أن من وصل إلى ذلك شهد الكل في الكل، فهم قوم يقولون: (الله)، والله عندهم هو الوجود الساري، الذي هو ضدّ العدم الذي سرى في كل شيء، فوجدت - على ما يزعمونه - أن إلههم الذي هو الوجود سارٍ في الكلاب، والخنازير، والفئران، والخنافس، تعالى الله البائن بذاته وصفاته، عن جميع مخلوقاته، أن يكون بهذه المثابة، فإنهم لا يقولون وجوداً قديماً، ووجوداً حادثاً، بل الوجود عندهم وجود واحد، سارٍ في كل شيء، والعبد عندهم لا وجود له، إنما الوجود الذي هو الحق، والحق هو الوجود فيه، والعبد كالمظهر له ظهر الوجود بواسطته، إذ لولاه لم يظهر الوجود، ولولا الوجود لم يظهر هو. وحقيقة معتقدتهم أن الباري - تعالى - ليس شيئاً منفصلاً عن الخلق فوق العرش، بل عندهم الحق شيء ظهر في السماوات والأرض، وفي كل شيء ظهر فيه بذاته.

هو مطلقٌ تقيّد في هذا، وفي هذا، والمجموع شيء واحد، فالوجود الذي قام بالإنسان، والكلب، والنبي، والملك، والسلطان هو وجودٌ واحدٌ عندهم، وهو الحق تعالى، ليس الحق شيئاً زائداً على مطلق الوجود.

هو بعينه الوجود المطلق، الذي تقيّد بالإنسان والحيوان، والنبات والجماد، والكلاب والحمير، والبقر والذباب، والحيات والعقارب، فمثاله عندهم كالحرارة المطلقة، التي تقيّدت بالأشياء الحارة في كل حارٍّ، على اختلاف أجناسها وأشكالها وأنواعها، هذا حارٌّ، وهذا حارٌّ، فالحرارة شيء واحد، مطلقة فتقيّدت بعين هذا الحارٍّ وكذلك عندهم الحق تعالى، وحدة مطلقة تقيّدت بالوحدة بهذا الموجود، وبهذا الموجود رفيعاً - كان - أو خسيساً.

فلما رأيتهم بهذه المثابة نفرّ قلبي منهم نفوراً شديداً، ولم أكن أقدر على تفصيل معتقدتهم، لكنني أسمع شيئاً أكرهه ولا أحبه بفطرتي، فإني وجدتهم مُنحَلِّين في باب الحلال والحرام والحدود، وربما قيل لي عن رجلٍ منهم: إنه يبقى جنباً أياماً، وربما صلى بنا إماماً.

وإذا قصدوا ملكاً أو صاحب ولاية، يخاطبونه ويتضرّعون إليه كما يتضرّعون

إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ - عِنْدَهُمْ - هُوَ مَظْهَرُ وَجُودِهِ، وَإِنَّمَا يَخَاطَبُونَ الْوُجُودَ فِيهِ.
وَكَانَ مِنْ شِيُوخِهِمْ مَنْ يَقُولُ لِلشُّجَاعِيِّ - وَكَانَ نَائِبَ السُّلْطَانَةِ مَعْرُوفًا بِالظُّلْمِ
وَالْإِعْتِدَاءِ - يَقُولُ لَهُ: أَنْتَ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

ثُمَّ الْأَمْرُذُ الْجَمِيلُ - عِنْدَهُمْ - فِي رُتْبَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْمَظَاهِرِ الْجَمَالِيَةِ الْإِلَهِيَةِ ⁽¹⁾.
وَالسَّمَاغُ عِنْدَهُمْ أَشْهَى شَيْءٍ، يُحَرِّكُ بَوَاعِثَهُمْ، وَيُثَوِّرُ فِيهَا مَعَارِفَ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ.
وَيَتَكَلَّمُونَ عَلَى مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ، كَأَنَّهُمْ مِنْ فَوْقَهُمْ. وَالشَّرِيعَةُ عِنْدَهُمْ سِيَاحُ طَائِمٍ
لِصَلَاحِ الْعَالَمِ، وَإِلَّا فَمَنْ الْعَابِدُ؟ وَمَنْ الْمَعْبُودُ؟ الْأَمْرُ عِنْدَهُمْ كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ:

مَا الْأَمْرُ إِلَّا نَسَقٌ وَاحِدٌ مَا فِيهِ مِنْ مَدْحٍ وَلَا ذَمٍّ
وَإِنَّمَا الْعَادَةُ قَدْ خَصَّصَتْ وَالطَّبَعُ وَالشَّارِعُ بِالْحُكْمِ

وَوَجَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ كِتَابَ (الْفُصُوصِ) لِابْنِ عَرَبِي دَالًّا عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ
الْخَبِيثِ، فِي تَفْصِيلِهِ بِعِبَارَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، يَقُولُ: مَا ثَمَّ غَيْرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: فَاخْتَلَطَ الْأَمْرُ
وَأَنْبَهُمْ، وَيَقُولُ:

فَيَعْبُدُنِي وَأَعْبُدُهُ وَيَحْمَدُنِي وَأَحْمَدُهُ

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، فَفَصَّلَ بِذَلِكَ مَذْهَبَهُمْ، وَعَرَفْتُ بِهِ حَقِيقَةَ مَقَاصِدِهِمْ، فَتَعَبْتُ بِهِمْ

(1) هَذَا نَقْلٌ مِنْ مَصْدَرَيْنِ صُوفِيَيْنِ يُؤَيِّدَانِ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ مِنْ تَأْلِيهِمْ لِلصَّبِيَّانِ الْحَسَّانِ، قَالَ ابْنُ
نُوحٍ الْقُوصِي وَقَدْ أورد قصة أحد الدراويش، وفيها أن الصوفي الفقير لقي أمرد، فقال
مخاطباً إياه: «أنا أطلبك في السموات، وأنت معي في الأرض!». انظر كتاب: الوحيد في
سلوك أهل التوحيد (الورقة 257-260). والنقل الآخر من منقولات محمد بن السراج
الدمشقي قال: «... إن له بداية عجيبة» يعني أحد أوليائه الذين جمع أخبارهم، واسمه: داود
الصِّمَادِي، نحكي ما ثبت منها، وهو أنه لما كان صبيًا، جاء إلى زاوية والده رجلٌ من
العَجَمِ، فأقام بها ثلاثًا، فقال والده: قل للفقير: ما حاجتك؟ فسأله. فقال: أريد أن أبيت أنا
وأنت في فراش، خلوة عريائين، فقال الشيخُ يعني أباه: افعل. فلما خلعا ما عليهما خلوة،
جعل ظهره إلى صدره، وضُمَّهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ خَلَا، ولم يره بعدها، فسأله والده بُكَرَةً، يعني كيف
جرت الأمور في الخلوة فقال: لما ضَمَّنِي أَحْسَسْتُ بِيَدِهِ فِي بطني، وأدارها في أمعائي،
وغبْتُ عَنْ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، فقال والده: هذا جاء أعطاك نصيبك!!». تفاح الأرواح (ورقة
189).

دهراً طويلاً.

فصل

ثُمَّ فَتَشْتُ الحَاصِلَ الَّذِي حَصَلَ لِي مِنْ مَجْمُوعِ الطَّوَائِفِ، فَلَمْ أَجِدْنِي أَنْتَفَعْتُ إِلَّا بِطَائِفَتَيْنِ - كَمَا سَبَقَ - بِالْفُقَهَاءِ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ، وَأَنَّ الطَّاعَةَ مُوجِبَةٌ لِلثَّوَابِ، وَالْمَعْصِيَةَ مُوجِبَةٌ لِلْعِقَابِ، وَاعْتَقَدْتُ ذَلِكَ عَقِيدَةً، وَذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَأَنْتَفَعْتُ بِطَائِفَةِ الصُّوفِيَةِ الْإِسْكَندَرَانِيَّيْنِ، عَرَفْتُ بِهِمِ الْمَطْلُوبَ، وَصِفَةَ الصِّدِّيقَيْنِ، وَالْوَاصِلِينَ وَالْمَحْبَبِينَ وَالْمُحْبُوبِينَ، وَأَحْكَامَ الْعِبَادَةِ، وَصِفَاتِ الْمُتَوَكِّلِينَ وَالرَّاضِينَ، وَالزَّاهِدِينَ وَالْمُصْطَلَمِينَ، وَذَلِكَ - أَيْضاً - خَيْرٌ كَثِيرٌ وَوَجَدْتُ نَفْسِي - كَمَا سَبَقَ ذَكَرَهُ - قَدْ حَصَلَ لَهَا الدَّرَجَةُ الْأُولَى وَالْعُلْيَا، وَهِيَ عَائِزَةٌ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ قَوَاعِدِ الدِّينِ وَأَصُولِهِ وَتَفَاصِيلِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَجِدُ جَمِيعَ ذَلِكَ الْعِلْمِ الظَّاهِرِ، وَالْحَالِ الْبَاطِنِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ.

فصل

فَلَمْ أَزَلْ فِي هَذَا الْعَوَزِ حَتَّى لَطَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِي، وَاجْتَمَعَتْ بِطَائِفَةٍ بِدَمَشَقَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيَّ بِهِمْ، فَوَجَدْتُهُمْ عَارِفِينَ بِأَيَّامِ النُّبُوَّةِ، وَالسَّيْرِ الصَّحَابِيَّةِ، وَمَعَانِي التَّنْزِيلِ وَأَصُولِ الْعُقَائِدِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، عَارِفِينَ بِأَذْوَاقِ السَّالِكِينَ وَبِدَايَاتِهِمْ، وَتَفَاصِيلِ أَحْوَالِهِمْ، يَرُونَهَا مِنْ كَمَالِ الدِّينِ، لَا يَتِمُّ الدِّينُ إِلَّا بِهَا، وَلَا تُشَبِّهُ أَنْفَاسُهُمْ أَنْفَاسَ أَهْلِ الْعَصْرِ مِنْ فُقَهَائِهِمْ وَصُوفِيَّتِهِمْ، وَمَا شَبَّهْتُ أَنْفَاسَهُمْ إِلَّا بِأَنْفَاسِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِيِ وَالثَّلَاثِ، فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ، وَكَأَنِّي - بِاجْتِمَاعِي بِهِمْ، وَرُؤْيَيْتِهِمْ - وَجَدْتُ أَبَا بَكْرَ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيَّ، وَوَجَدْتُ التَّابِعِينَ كَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَالرَّبِيعِ بْنِ خَثِيمٍ، وَثَابِتِ الْبُنَّانِيِّ، وَأَمْثَالَهُمْ وَكَأَنِّي وَجَدْتُ - بِرُؤْيَيْتِهِمْ - مَالِكاً وَالشَّافِعِيَّ وَالسُّفْيَانِيَّ وَالْحَمَّادَيْنِ وَابْنَ الْمُبَارَكِ، وَإِسْحَاقَ، وَأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، وَأَقْرَانَهُمْ، وَنَظَرَاءَهُمْ،

فإني وجدتهم عارفين بحقائق العلم الذي أنزل من السماء على محمد ﷺ، مسارعين إلى إقامة أوامر الله تعالى، كمسارعة أصحاب رسول الله ﷺ، معظمين للدين، مهتمين بإقامته وإظهار شرائعه وشعائره، حنقين على من هتك حدود الدين، أو انتقص شريعة من شرائعه، اعتقاداً أو عملاً، وليست أصولهم أصول المتكلمين، بل أصول عقائدهم على الآيات والأخبار الصحيحة، وأمروا الصفات كما جاءت بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، وأثبتوا حقائقها لله كما يليق به من الاستواء أو النزول، وجميع الصفات وظهر لهم - مع ذلك - معارف صحيحة، وأنوار ظاهرة من معرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته القائمة بذاته ذوقاً وحالاً، مع العلم والنظر، ووجدت آثارها في قلوبهم عند صلاتهم وأذكارهم ودعوتهم إلى الله تعالى.

يعرفون ربهم من فوقهم، ويعبدونه كما وردت به النصوص الدالة على أنه فوق العرش، بذاته وصفاته بفوقية تليق بجلاله وعظمته، لا يجعلونه محصوراً في الفوقية، بل كان ولا شيء معه، قبل خلق العرش والأكوان، فلم يكن هناك في الفردانية شيء غيره، فيقال: هو فوقه، فلما أحدثت الأكوان حدثت في جهة التخت بالنسبة إلى علوه الذاتي، فإنه سبحانه بالذات عليّ على كل شيء، ولا يجوز أن يكون سبحانه تحت الأكوان، لا ممتزجاً بها، ولا بائناً عنها، وليس تحتها فلزم بالضرورة أن يكون فوقها.⁽¹⁾

ثم من صفاتهم: يتذّلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وإقامة الدين، يعرفون قدر الدين، وقدر أهله وحملته، والقائمين به، لأنهم أهله وأنصار السنة والحديث، وأعوان الرسول ﷺ، وأعوان دينه، وأركان شريعته. يؤالون من والاه، ويعادون من عاداه، مستعملون مكارم الأخلاق، من الرحمة والتؤدّد، والإنصاف والصدق، والبذل والمواساة، والحلم والصبر، وكظم الغيظ والرحمة للخلق، وإعانة

(1) في الأصل: ولا يجوز أن يكون سبحانه تحت الأكوان، لا ممتزجاً عنها، بل بائناً عنها، وليس تحتها لزم بالضرورة أن يكون فوقها.

المضطّر، وإغاثة الملهوف، والشدة على الجبارة، والكيفية الحادة على الفراعنة، لا يخافون في الله لومة لائم.

في أغلب أمورهم يُحِبُّون في الله وَيُبْغِضُونَ فيه، ويعدلون في الحكم، وينصفون في الوزن، ولا يبخسون أحداً بشراً ظهر منه، بل يزنون خيره وشره، ويؤفون مَرَّتَبَتَهُ ﴿أَذَلُّوْا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] ضَبْرٌ عند اللقاء، يتعافون عن الزلة في حقوق أنفسهم، لا في حقوق الله، ليسوا بفظاظٍ ولا غلاظ، ولا صحابين في الأسواق، بل يَعْفُونَ وَيُصْفَحُونَ ويحلمون، ويكافئون بالحسنة من أساء إليهم. يحبون الشنن ويُمِيتون البدع ويمحقونها.

أهل حُضُورٍ في الصلاة، خاشعين فيها لله. يعرفون لمن يصلون، ولمن يعبدون، إذا ذكروا في الصلاة صَغُرَ عندهم ما سوى الله، وما سوى أمره في قلوبهم. يتلون كتاب الله ويتدبرونه. أهل الفناء في أمر الله. أفنوا ذواتهم في طاعته، ورضوا بأقداره وأقضيته. الرسول ﷺ نُصِبَ أعينهم، كلما حدثت حادثة شَخَصُوا بِبَصَرٍ بصائرهم نحوه، فيستمعون من سُنَّتِهِ ما يؤديه عن ربه، فيعملون بذلك. ينفذون أحكامه وقضاياه. قد بذلوا نفوسهم لنفع المتعدي في مصالح الإسلام وأهله، وإصلاح ما فسد من أديانهم في عقائدهم وأعمالهم وأحوال قلوبهم.

ورثة الأنبياء. مصابيح الدين. غيظ المنافقين. فرح المؤمنين. غبطة النبيين. بهجة الصادقين. قدوة الصالحين. أئمة المقتفين. نور أهل الأرض وسراجها.

بهم عُرِفَ الدين وحقائقه، وعُرف السلف وطرائقهم، كأنهم قد صحبوا الصحابة، فما أشبههم بِسَمَتِهِمْ ودَلَّهِمْ وبَذَلِهِمْ. والذي أعتقد فيهم أنهم لا يعجزون عن شأن الصوفية الذين وجدتهم بالإسكندرية في حقائقهم وأحوالهم، لكن شَغَلَهُمْ عن ذلك الاصطلام بالاهتمام بمصالح الدين والإسلام - هذا وإن كان أولئك أصحابي - شغلاً عظيماً بربهم. قد هامت به قلوبهم بَهْتَةً وتعظيماً وإجلالاً، لكن من هو في إقامة الدين، وإظهار شرائعه وشعائره، لا يليق به أن يَصْطَلِمَ كاضطلام أولئك الذين لم يبقَ لهم متسع إلا خالقهم، ولو تفرغوا عن الاشتغال

لتفرغهم لم يعجزوا عن مقامهم، ولم يقصروا عنهم، إن شاء الله.

لكن الشغل بجزئيات الشريعة، وإقامتها مع انصراف الهم الشديد إليها، يُوجب أن تبقى عند المقيم لها، والمهتم بها بقية من طبعه ونفسه وبشريته، ليُقابل النفوس بها، لأن مَنْ قابل شيئاً اقتضى أن يكون بينه وبينها نسبة، ولولا النسبة التي بين الأنبياء والعالم، لم ينتفع بهم أحد، إذ لو واجهوهم بما هم به من قرب الله تعالى، لم تقدر العامة أن تفهم عنهم شيئاً، لكن جعل الله تعالى بينهم قدراً مشتركاً ليحصل بذلك الانتفاع منهم، فكَذلك هؤلاء لا يصلح لهم تذويب النفوس بالأصالة لأنهم يحتاجون إلى قوة غَضَبِيَّة يقيمون الحق بها، أو حالة طَبِيعِيَّة يُمازجون أهل الطباع بها ليستوي بواسطة تلك الممازجة أمرُ الله ودينه إليهم، وربما يورد بعض محبي مشايخنا ويقول: أنت ذكرت عن مشايخنا أنهم عارفون وذكرت عن أولئك أنهم عارفون أيضاً، فاشترك الجميع في المعرفة فما وجه الخصوصية التي لأولئك وليست لمشايخنا؟

فنقول: تلك الخصوصية أنَّ لهم كَيْفِيَّة حَادَّة، يُؤثِّرون في الطالب بمجرد الرؤية وسماع الكلام محبةً لله والانجذاب إليه والإرادة له ونسيان ما سواه، وهذه الخصوصية لهم ليست لغيرهم.

وجه ثانٍ وهو أنهم إذا رُؤوا ذُكِرَ الله، وصل نوره بحدة وقوة إلى قلب الرائي، ومشايخنا إذا رُؤوا ذُكِرَ الدين والسنة والشريعة، فأولئك اندرجت الشريعة في حالهم اندراجاً لظهورهم بكيفية المعرفة، وهؤلاء اندرجت المعرفة في حالهم اندراجاً لظهورهم بكيفية الشريعة، ومجموع هؤلاء العلماء أفضل من انفراد أولئك بتلك الخصوصية، لاحتوائهم على الأصول الصحيحة والفروع، بل تلك الخصوصية بلا هذه الأصول لا تستقر ولا تثبت، والذي حققته أن دين هؤلاء أقوى وأثبت، وأمكن في الأصول والفروع، وقلوبهم أنور، لأنها مُنَوَّرَةٌ بالكتاب وفهمه، وبالسنة ونورها، ومن ذلك اقتبس عقائدها ومشاهدها وعلومها وأحوالها، وهم أقوم بالدين من كُلِّ من رأيته في عصري هذا، في رأس السبعمئة من الهجرة النبوية، وأتبع لسنة رسول الله ﷺ، من كل أحد، فإنهم يمشون على حَذْوِهِ وطريقته، كأنهم من أصحابه

الذين رأوه وشاهدوه، وشاهدوا أيامه ووقائعهم ومغازيه، فهم يحرسون على حذو طريقه وآثاره، وهم أشبه الناس بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأتبع الناس في هذا الزمان لهما، وأولئك الصوفية وجدتهم أحد قلوباً وأقوى اصطلاماً وأشد اشتياقاً وأعظم بالله وجداً، وأتم زهداً وفراغاً، عما يشغل القلوب عن الله، فإنهم أفنوا نفوسهم في الطلب، فقبلوا بالأمر الكلي، وهو حال له حدة وصوله، ليس كحال غيرهم، فإنما حال غيرهم أنوار مع انشراح الصدور بالله وبدينه، وأحوال أولئك مطالعات خاصة حادة موجبة لجذب الأرواح إلى مواطن القرب، بتقرب خاص، ليس لغيرهم كما أنه أعظم بأمر الله علماً وعملاً، وذلك - أيضاً - من تعظيمهم لله تعالى والوجد، لكن لكل قوم خصوصية، لا تُجهل، ولا يُظلمون بطرحها في مقابلة فضل غيرهم، وكذلك أولئك الصوفية أقوم على سياسة الطبيعة وتصفيتهما من أخلاقها، وأقوم على الخواطر وزمها، فإنني - كما شاهدته والله أعلم بحقيقة ذلك منهم - شبهتهم بالملائكة في حضرة الله تعالى، الحافين بعزسه وإن لم يشبهوهم من كل وجه، ولا تعجب فإن قلوبهم بين عساكر الأولياء حول العرش فانقلبت طباعهم في أغلب أحوالهم عن البشر إلى الملائكة، وهذه خصوصية لهم، لا تنكر، ولا يقدر غيرهم أن يقوم بها، فإن نفوسهم فانية، وأرواحهم متعلقة وطائرة، وأبدانهم نحلة بالية، وأكبادهم مشتاقة محترقة، قد ملكهم الوجد بالله، واستولى ذلك على أعضائهم، ومفاصلهم، فأعضاؤهم ومفاصلهم ممثلة بحب الله، محشوة بأنوار قربه، تلوح عليهم بهجة المحبة، وسيماء المعرفة وعرف الوجدان كما قيل:

أَشْمُ مِنْكَ نَسِيماً لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَظُنْ مَيَّةً جَرَّتْ فِيكَ أَرْدَانَا

وهؤلاء - شيوخنا - شبهتهم بخلفاء الرُّسل، حيث شبهت أولئك بالملائكة، فشبهتهم بورثة الأنبياء، بل فيهم نسبة من الأنبياء، لقيامهم بدين الله تعالى ونصرتهم، والذَّبُّ عنه باللسان والقلم والجنان، والحرص على إقامته حيث ارتضاه الله تعالى لنفسه، وهذه خصوصية لهم لا تنكر، ولا يقدر غيرهم من أولئك الصوفية على القيام بها.

مثال الخصوصية التي عند الصوفية وليست عند غيرهم؛ كمن يريد كيفية مذهب مالك وتفصيله، فإنه لا يجد ذلك إلا عند أصحاب مالك، ولو طلب الطالب ذلك من شيوخنا، لوجد عندهم مذهب مالك معروفاً، بلا تلك الكيفية بل هو عندهم ضمناً وتبعاً، والطالب لا يُعْنِيهِ إلا الكيفية، فكَذَلِكَ طالب حقائق التصوف، لا يجد تلك الكيفية إلا عند أهلها، ويجدها عند شيوخنا الفقهاء مفرقةً ضمناً وتبعاً لعلمهم.

والكيفية الصوفية إذا حصلت لا تُعْنِي بغير قواعد شيوخنا، لأنها أصول لها تحفظها، وإلا فتبقى تلك الكيفية مقطوعة، لا أساس لها، فالحمدُ لله الذي تَمَّ لي رَحْلَتِي، وجمع لي مطلبي، في لقاء من يكمل به ديني، وعِلْمَ طريقي وحالي.

وَجَدْتُ أَوَّلًا مَنْ عَبَّرَ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، ثُمَّ عَبَّرَ عَنِ حَقَائِقِ الْمَطْلُوبِ وَهَيْئَةِ الْوُصُولِ، ثُمَّ مِنْ عَبَّرَ عَنِ الْأَصُولِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَصُولُ الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ وَالْمَشَاهِدِ وَالْأَحْوَالِ.

فَأَرْجُو مِنْ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُوَفِّقَنِي لِسُلُوكِ طَرِيقَةِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ، فِي أَصُولِ دِينِي وَعَقَائِدِهِ، وَأَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَأَنْ يُحَقِّقَنِي بِحَقَائِقِ إِخْوَانِي الصُّوفِيَّةِ مِنَ التَّحَقُّقِ بِحَقَائِقِ الْقُرْبِ، وَمَرَاتِبِ الْوُصُولِ وَالْحِظْوَةِ بِالْمَحْبُوبِيَّةِ، وَالِاخْتِصَاصِ وَالِاصْطِنَاعِ وَالتَّوَلِّيِ، وَإِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَرْغَبُ أَنْ يَحْشُرَنِي عَلَى هَذَا الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ، مُتَّصِلًا بِهَذَا الْحَالِ الصُّوفِيِّ، فَيَكُونَ صَاحِبَهُ مِمَّنْ تَمَّ حَالُهُ وَكَمُلَ، وَأَنْ يُعِيدَنِي مِنْ ضُحْبَةِ أَوْلَئِكَ الْأَوَّلِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِيَّاهُ أَسْأَلُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ أَجْمَعِينَ، وَيُخْرِجَهُمْ عَنِ سَبِيلِ الْعَمِينَ إِلَى سَبِيلِ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ، وَأَنْ يَعْفوَ عَنَّا أَجْمَعِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَامٍ، وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَشِعَّةُ النَّصُوصِ
فِي هَتِّكَ أَسْتَارِ « الْفُصُوصِ »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَوَّرَ بِصَائِرِ الْمُهْتَدِينَ بِأَنْوَارِ مَعْرِفَتِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ عَنْ طَرِيقِهِ وَمَحَجَّتِهِ، وَوَفَّقَهُمْ لِاتِّبَاعِ طَرِيقِ أَنْبِيَائِهِ وَأَهْلِ رِسَالَتِهِ، وَجَعَلَ لَهُمْ مُتَّبِعِينَ لِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنْ فُرْقَانِهِ وَإِبَاتَتِهِ، وَحَمَاهُمْ عَنْ قَلْبِ الْحَقَائِقِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالضُّوَرِيَّةِ بِالْأَغَالِيطِ الْمُتَوَهِّمَةِ الظُّلُمَةِ، مِنْ كُلِّ مَا شِئَ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِتِهِ، وَعَاقَبَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ فِي سَيْرِهِ وَسِيرَتِهِ، وَأَضَلَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَبَصِيرَتِهِ، يَتَعَثَّرُ فِي آبَارِ الْمِهَالِكِ وَالْمَعَاطِبِ مِنْ عَمَاوَتِهِ وَخَيْرَتِهِ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتفرد بذاته وفردانيته عن جميع مخلوقاته وبريئته، الذي اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ، وَتَسَمَّى بِالْأَسْمَاءِ فِي قَدَمِهِ وَأَزَلِّيَّتِهِ، وَأشهد أن محمداً صلى الله تعالى عليه، عبده ورسوله، الذي بَعَثَهُ إِلَى الْخَلْقِ بِرَحْمَتِهِ وَهُدَايَتِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، أَهْلِ وَدِّهِ وَوِلَايَتِهِ، وَبَعْدُ:

فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَفِيَّ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف ٣٣]

الآية، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المُلْك 22]، فقد حَرَّمَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ عَلَيْهِ - سُبْحَانَهُ - مَا لَا نَعْلَمُ، كَمَا رَضِيَ لَنَا أَنْ نَمْشِيَ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ لِلْأَشْيَاءِ حُدُودًا يَتَمَيَّزُ بِعَظْمِهَا عَنْ بَعْضٍ، فَالْخَلْقُ مُحَدودٌ مَرْتُوبٌ، يَتَصَرَّفُ فِيهِ الْبَارِي - تَعَالَى - بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيَّتِهِ، لَيْسَ الْخَلْقُ بَعْضًا مِنْ أَعْضَائِهِ، وَلَا صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ، وَلَا هُوَ عَيْنُ أَسْمَائِهِ، بَلْ هُوَ - سُبْحَانَهُ - ذَاتٌ مُتَفَرِّدٌ بِنَفْسِهِ، قَدِيمٌ، بَائِنٌ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَوُجُودِهِ، فَجَمِيعُ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ فِي الْخَلْقِ صَادِرَةٌ عَنْ مَشِيَّتِهِ، وَلَيْسَ هُوَ الْمُتَحَرِّكُ فِيهَا، بَلْ هُوَ الْمُحَرِّكُ لَهَا، وَلَيْسَ وُجُودُهَا وَجُودُهُ، بَلْ لَهَا وَجُودٌ مُحَدَّثٌ مُفْتَقِرٌ إِلَى مُوَجِّدِهِ، كَمَا أَنَّ لِلْمُوجِدِ - سُبْحَانَهُ - وَجُودًا آخَرَ غَيْرَ وَجُودِهَا قَائِمٌ بِهِ - كَمَا يَلِيقُ بِرُبُوبِيَّتِهِ - وَلِلْمَخْلُوقِ وَجُودٌ قَائِمٌ بِهِ، مُفْتَقِرٌ كَمَا يَلِيقُ بِغُبُودِيَّتِهِ، فَمَنْ جَعَلَ الْوُجُودَ وَجُودًا وَاحِدًا سَارِيًّا فِي كُلِّ مَا هِيَ، مِنَ الْحَقِّ وَالْخَلْقِ،

فقد ضلَّ واعتدى، ومن زعم أنَّ الخلقَ إنما يمتازُ عن الحقِّ بحَيِّثِيَّةٍ ما اقتضاهُ استِعْدادهُ من قبولِ الفيضِ فقط - حيثُ كانَ في العدمِ ثابتاً متعدداً متنوعاً - فقد زاعَ عن المحجَّةِ الصحيحةِ، والنَّهْجِ السَّوِيِّ. قاتَلَ اللهُ القائلينَ بهذه المقالةِ، فأنى يُؤفَّكونَ.

والسَّبَبُ المُوجِبُ لِتَسْطِيرِ هذه الأحرفِ، ما وَقَرَ في القُلُوبِ مِنْ تُرْهَاتِ ابنِ عربيٍّ، حيثُ صارَ لها شأنٌ في قُلُوبِ السَّالِكِينَ، وخطَرَ عندَ المبتدئينَ مِنَ الطَّالِبِينَ، وما ذاكَ إلا لِقُصُورِ فَهْمِهِمْ عن مقاصِدِهِ، وعَجْزِ بصائرِهِمْ عن ملاحظةِ إلحادهِ في شَقاشِقِهِ، فاستخرَّتُ اللهُ تعالى بتعليقِ كلماتٍ تكونُ - إن شاء اللهُ - كَشْفاً لِسُتْرِ مَقَالَتِهِ، وتَنْبِيهاً على إلحادهِ وضلالَتِهِ، مما نَقَلْتُهُ مِنْ كَلَامِهِ في (فُصُوصِ الْحِكَمِ) نَقَلَ الْمُسْطَرَّةَ، لِيُزَوَّلَ عَنِ الْكَاشِفِ لِسُتْرِهِ كُلُّ تُهْمَةٍ، وَلِيُزَنَ الْعَاقِلُ مَقَالَتَهُ على ما دَلَّ عَلَيْهِ دِينُ الرِّسُولِ ﷺ، فَيَزِنَهُ بِالَّذِينَ النَّاقدُ الْبَصِيرُ يَظْهَرُ لَهُ زَيْغُهُ وانحرافُهُ، وَتَهْوُكُهُ وَعِثَارُهُ، وَلَعَمْرِي لَا يَقْدِرُ على هذا الْوِزْنِ إِلَّا مَنْ حَقَّقَ الدِّينَ، وَنَفَذَ فِيهِ ذَوْقاً وَرُسُوخاً، فَالْمِشَارُ إِلَيْهِ رَاسِخٌ فِي زَنْدَقَتِهِ، ضَلِيعٌ فِي سِياقَةٍ مَا يُلْقِيهِ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ لَقَلَقَتِهِ، لاختِوائِهِ على فُتُونٍ كَثِيرَةٍ، مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالرِّيَاضِيَّةِ، وَالْفَلَسَفِيَّةِ، فَعِبَارَتُهُ فِي ذَلِكَ عَذْبَةٌ غَرِيبَةٌ، وَمَقَاصِدُهُ فِيهَا غَامِضَةٌ، لَا يَفْطِنُ لَهَا إِلَّا كُلُّ نَقَّادٍ يَعْرِفُ غَوْرَهُ فِي مَقَالَاتِهِ وَتَرَاتِيبِهِ.

فصل

جميعُ ما يُبْدِيهِ في مصنفاتِهِ، من الكلامِ الحقِّ النافعِ، هو رِبْطٌ واستِجْلَابٌ لِقُلُوبِ الطَّلَبَةِ، كما يُشِيرُ إِلَيْهِ في (الْفُتُوحَاتِ)، و(المُحَكَّمِ الْمَرْبُوطِ) ⁽¹⁾ وغيرهما، فإنَّ الدَّاعِيَ إِلَى الْبِدْعَةِ لَا يُسْتَجَابُ لَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَا بَصِيرَةٍ بِالْدَّعْوَةِ، يَرْفُقُ فِي دَعْوَتِهِ، وَيَسْتَدْرِجُ الْخَلْقَ فِيهَا بِلَطِيفِ الْاسْتِدْرَاجِ، بَحِيثٌ يَنْقُلُهُمْ مِنْ مَرْتَبَةٍ فِي عُقُولِهِمْ إِلَى مَرْتَبَةٍ أُخْرَى أَعْلَى مِنْهَا، بَحِيثٌ تَكُونُ تِلْكَ الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى ثَابِتَةً فِي الْعُقُولِ، فَيُسْكَنُ

(1) كتاب لابن عربي اسمه: "الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل طريق الله من الشروط".

إليه في ذلك أولاً، ثُمَّ يُدَقِّقُ العبارة، فتشتاق القلوب إلى حلِّ ذلك أولاً، ثُمَّ تشتاق إلى ذوقه ثانياً، فلا تَذُوقُه إلا وقد انحَلَّت عنها الشَّرَائِعُ والأديانُ، وصار الكلُّ واحداً، فَمَنِ العابدُ؟ وَمَنِ المعبودُ؟ وَمَنِ الشاهدُ؟ وَمَنِ المشهودُ؟ كما أنشد:

إِنْ قَلْتَ عَبْدٌ فَذَاكَ مَيْتٌ أَوْ قَلْتَ رَبٌّ فَأَنْتَى يُكَلِّفُ

فصل

نبدأ بعونِ الله ﷻ في قاعدةٍ مَذْهَبِيَّةٍ، قَبْلَ نَقْلِ كَلَامِهِ، لِنَتَّضِحَ القاعدةُ أولاً في ذَهْنِ العاقلِ، ثُمَّ يَتَفَضَّلُ عليها جَمِيعُ ما نَقُلُهُ من كَلَامِهِ، وَيُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ ما يَقُولُهُ في كُتُبِهِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُهَا، وَتَنَوَّعَتْ أَنْحَاؤُهَا وَإِشَارَاتُهَا، نَظْماً وَنَثْراً، فَهُوَ مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ حَقِيقَةُ القاعدةِ الْآتِي ذِكْرُهَا، فَهُوَ يَقُولُ: وَنَقُولُ، ثُمَّ يَحْطُ عَلَيْهَا، فَلَا يَتَجَاوَزُهَا، فَمَتَى فَهَمَّهَا الْعَارِفُ، عَرَفَ جَمِيعَ ما يَقُولُهُ فِي مَجْمُوعِ كَلَامِهِ وَمُتَفَرِّقِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فصل

قاعدةُ هذا الرجلِ في اعتقاده، وَكَشْفُهُ الباطلِ، الذي هو عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَالْعُقَلَاءِ خَيَالٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَوَهْمٌ فَاسِدٌ تَوَهَّمَهُ، وَبَنَى عَلَى ذَلِكَ الْوَهْمِ أُصُولُهُ وَدَلَائِلُهُ، هُوَ أَنَّهُ يَجْعَلُ الْمَعْدُومَ شَيْئاً، وَيَجْعَلُ الْمَاهِيَّاتِ بِأَسْرِهَا، مِنْ جَمِيعِ ما عَلِمَ مِنَ الْأَكْوَانِ، غُلُوبِهَا وَسُفْلِيَّهَا، أَشْيَاءَ ثَابِتَةً فِي أَنْفُسِهَا ⁽¹⁾، لَكِنْ لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ، فَأَفَاضَ الْحَقُّ تَعَالَى عَلَيْهَا وُجُودَهُ الذَّاتِيَّ، فَقَبِلَتْ الْوُجُودَ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهَا، فَظَهَرَتْ بِعَيْنِ وُجُودِ الْحَقِّ الذَّاتِيَّ، فَكَانَ هُوَ الظَّاهِرُ فِيهَا - بِحُكْمِ الْوُجُودِ - وَكَانَتْ هِيَ الظَّاهِرَةُ فِيهِ - بِحُكْمِ

(1) تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية على خيال ابن عربي في خرافة (الأعيان الثابتة) في غير ما موضع من كتبه. انظر - مثلاً - قوله: "مقالته مبنية على أصليين: أحدهما أن المعدوم شيء ثابت في العدم..."

مجموع الفتاوى (143/2)، وانظر مقالة لفاروق الدسوقي تشرح معنى هذا الإلحاد، نشرتها في ذيل كتاب: أخبار جلال الدين الرومي (ص 477 - 493).

الأسماء - لِتَنَوُّعِهَا وَتَعَدُّدِهَا.

وَيَجْعَلُ السَّبَبَ الَّذِي بَيْنَ الدُّوَاتِ وَالْوُجُودِ، هِيَ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لَوْلَا [هَا] لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ تَعَالَى اسْمٌ، فَإِنَّ الْوُجُودَ لَمَّا فَاضَ عَلَى الْمَاهِيَّاتِ الثَّابِتَةِ - عِنْدَهُ - قُبِلَتْ كُلُّ مَاهِيَّةٍ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهَا. مَثَلًا: كَانَ الْمَرْزُوقُ، وَالْمُنْتَقَمُ، وَالْمَرْحُومُ ثَابِتًا فِي الْعَدَمِ، فَلَمَّا فَاضَ عَلَيْهِمُ الْوُجُودُ الدَّائِي، ظَهَرَ الْمَرْزُوقُ مَرْزُوقًا، وَالْمُنْتَقَمُ مِنْهُ مُنْتَقَمًا، وَالْمَرْحُومُ مَرْحُومًا، وَالْجَمِيلُ جَمِيلًا، فَقُبِلَتْ كُلُّ مَاهِيَّةٍ بِحَسَبِ مَا اقْتَضَاهُ اسْتِعْدَادُهَا مِنْ ذَلِكَ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ، فَظَهَرَ بِذَلِكَ الْأِسْمِ: الرَّازِقُ، وَالرَّحِيمُ، وَالْمُنْتَقَمُ، وَلَوْلَا فَيُضْ هَذَا الْوُجُودِ، لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ - تَعَالَى - اسْمٌ أَصْلًا، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْئًا مُطْلَقًا لَا وُجُودَ لَهُ. يَتَعَيَّنُ هَذَا عَلَى قَوَاعِدِهِ وَاصْطِلَاحِهِ فِي تَوْهُمَاتِهِ.

ومذهبُ المسلمين: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ تَزَلْ أَسْمَاؤُهُ قَدِيمَةً مُوجُودَةً، كَمَا لَمْ تَزَلْ ذَاتُهُ الْمُقَدَّسَةُ قَدِيمَةً مُوجُودَةً لَمْ يَتَجَدَّدْ لَهُ بِمَا أَحْدَثَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي قَدَمِهِ، وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي انْتَحَلَهُ هَذَا الرَّجُلُ، يَقْتَضِي أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - كَانَ لَا وُجُودَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ، كَانَ وَجُودُهُ وَجُودًا مُطْلَقًا، لَا يُوصَفُ بِصِفَةٍ، وَلَا يُسَمَّى بِاسْمٍ، فَأَرَادَ أَنْ يُعَرِّفَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، فَتَجَلَّى بِوُجُودِهِ عَلَى الْمَاهِيَّاتِ، فَرَأَى نَفْسَهُ فِيهَا، فَحِينَئِذٍ عَرَفَ نَفْسَهُ، فَكَانَتْ هِيَ مَرَاتَهُ رَأَى نَفْسَهُ فِيهَا، كَمَا قَالَ التِّلْمِسَانِيُّ:

رَأَيْتَ نَفْسَكَ فِينَا وَهِيَ وَاحِدَةٌ كَثِيرَةٌ ذَاتُ أَسْمَاءٍ وَأَوْصَافٍ

فلما رأى نفسه ظَهَرَتْ الْأَسْمَاءُ بِاعْتِبَارِ النَّسَبِ الَّتِي بَيْنَ الْمَاهِيَّاتِ وَالْوُجُودِ الْفَائِضِ، فَلَمَّا أَفَاضَ عَيْنَ وَجُودِهِ عَلَى الْمَاهِيَّاتِ بِذَلِكَ صَارَ مُوجُودًا فِي الظَّاهِرِ، فَظَهَرَتْ الْوَاحِدَةُ فِي الْكثَرَةِ، مُتَكَرِّرَةً فِيهَا لَا مُتَعَدِّدَةً، لِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ كَتَكَرُّرِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي الْأَشْخَاصِ الْمُتَعَدِّدَةِ، وَهِيَ إِنْسَانِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، فَهُوَ الْمَوْجُودُ فِي الْكثَرَةِ، لَا مَوْجُودَ غَيْرِهِ، وَالْكُلُّ هُوَ.

هو الظاهرُ الَّذِي ظَهَرَ بِوُجُودِهِ فِي بَرِّيَّتِهِ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ لَهُ نِسْبَةٌ فِي وَجُودِ الْحَقِّ لَمَّا قَبْلَهُ اسْتِعْدَادُهُ، فَتِلْكَ النِّسْبَةُ هِيَ عَيْنُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَصَارَ الْحَقُّ - عِنْدَهُ -

كالإنسانية المطلقة، السارية في كلِّ شخصٍ بلا تكرارٍ، فكلُّ واحدٍ إنسانٌ، وبهذه الأشخاص ظهرت الإنسانية في الخارج، ولولا هم كانت شيئاً ثابتاً في الذهن، مطلقةً، لا حقيقة لها في الخارج مُتَعَيِّنَةٌ، فكذلك الرَّبُّ - عنده - كان شيئاً مُطْلَقاً، لا ظهور له، فأفاض وجوده على الأكوانِ كَفَيْضِ الإنسانية في الخارج، لتعلُّقها بالأشخاص المُتَعَيِّنِينَ.

فإلى الله تعالى الشكوى مما انتحلته هذه الطائفة المبطلة، التي قَلَبَتِ الحقائق، وشَعَبَتْ على ضَعَفَاءِ هذه الأمة عُقُولُها، ومَزَّقَتِ الرُّبُوبِيَّةَ كُلَّ مَمَزَّقٍ، وَقَلَبَتْ صورةَ الشريعةِ وَمَسَخَتْها، فاستهلك الإيمان والإسلام في صُورَةٍ ما انتحلوه، كاستهلاك الإنسانية في القِرْدِ الممسوخ، مَسَخَهُمُ اللهُ، كما مَسَخُوا دِينَهُ، وَقَلَبَهُمُ في النار، كما قَلَبُوا شريعته، وبالله المستعان.

فَمَذْهَبُ هَذَا الرَّجُلِ: أَنَّ الْأَعْيَانَ كَانَتْ ثَابِتَةً فِي الْعَدَمِ، فَهِيَ غِذَاؤُهُ بِالْأَحْكَامِ. يعني يتغذى بها الحقُّ لِظُهُورِ أَحْكَامِ أَسْمَائِهِ فِيهَا، وَذَلِكَ يَقْتَضِي افْتِقَارَهُ إِلَيْهَا، لِأَنَّ مَنْ يَتَغَذَّى بِالشَّيْءِ كَانَ مُفْتَقِراً إِلَيْهِ، وَلِذَلِكَ أَفَاضَ عَلَيْهَا وَجُودَهُ، لِيُظْهَرَ فِيهَا بِأَسْمَائِهِ وَوُجُودِهِ، إِذْ لَوْلَا هَا لَمْ يَظْهَرْ فِي الْخَارِجِ وَجُودُهُ وَلَا أَسْمَاؤُهُ، فَصَارَتْ غِذَاءٌ لَهُ، وَكَذَلِكَ - عِنْدَهُ - هُوَ غِذَاءٌ لَهَا أَيْضاً بِالْوُجُودِ، لِأَنَّ بَوُجُودَهُ ظَهَرَتْ، إِذْ لَوْلَا وَجُودُهُ الْفَائِضُ عَلَيْهَا مِنْهُ، لَكَانَتْ عَدَمًا فِي حَالِ ثُبُوتِهَا فِي عَدَمِهَا، فَلَمَّا فَاضَ وَجُودُهُ الْذَاتِيَّ عَلَيْهَا ظَهَرَتْ بِهِ، فَهِيَ غِذَاؤُهُ بِالْأَحْكَامِ، وَهُوَ غِذَاؤُهَا بِالْوُجُودِ زِيَادَةً بَيَانٍ وَإِضَاحٍ لِمَذْهَبِهِ الْبَعِيدِ، عَلَى اصْطِلَاحِهِ.

يَتَصَرَّفُونَ فِي رَبِّهِمْ، لَمَّا قَبِلُوهُ مِنَ الْوُجُودِ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهِمْ، فَالرَّبُّ تَعَالَى - عِنْدَهُ - لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ فِي مَقَادِيرِ اسْتِعْدَادِ كُلِّ مَوْجُودٍ فِيمَا قَبْلَهُ مِنَ الْوُجُودِ، لَكِنْ لَهُ اخْتِيَارٌ فِي إِفَاضَةِ الْوُجُودِ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاضَ الْوُجُودَ عَلَيْهِ، تَصَرَّفَ الْمَوْجُودُ فِي الْوُجُودِ، وَهُوَ اللَّهُ بِحَسَبِ مَا اقْتَضَاهُ اسْتِعْدَادُهُ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا يَأْتِي مِنْ كَلَامِهِ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَكَذَلِكَ - عِنْدَهُ - أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى كَمَا تَصَرَّفُوا هُمْ فِيهِ، يَتَصَرَّفُ هُوَ - أَيْضاً - فِيهِمْ، فِي إِفَاضَةِ وَجُودِهِ عَلَيْهِمْ فَقَطْ لَا غَيْرَ ذَلِكَ، فَكَانَ الْحَاصِلُ مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ، أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى - عَلَى زَعْمِهِ - كَانَ وَحْدَةً مُطْلَقَةً، لَا يَرَى نَفْسَهُ وَلَا

يعرف إياها، ولا يوصف باسم، ولا صفة حتى رأى نفسه بتجليه في الماهيات فكانت كالمرآة له، رأى وجوده فيها، ولزم من ذلك ظهور الأسماء، ومن قبل كان لا اسم له ولا صفة، بل شيئاً مطلقاً، لأن الأسماء هي من لوازم الظهور، والوجود، وتعلق الوجود بالموجودات، فباعتبار تعلق كل موجود بالموجود يكون للوجود اسم، فلما أراد الله سبحانه أن يكون له ظهور أفاض وجوده على الماهيات الثابتة في العدم، فظهر بوجوده، وكان هو الظاهر من حيث وجوده، وكانت الماهيات هي الظاهرة من حيث أسماؤه.

فصل

فمن وفقه الله تعالى، وفهم هذه القاعدة، وحققها في ذهنه الصحيح، وعقله الراجح، ونور الله قلبه بنور الإسلام، فعرف أن هذا وهم فاسد، وخيال باطل في زخرف من القول وزوره، لما دل عليه الكتاب والسنة، من قدم الباري تعالى بذاته المقدسة، وجميع أسمائه وصفاته، وكان موجوداً بوجود قديم يختص به، يعلم نفسه، ويرى وجوده. وأن وجود الأكوان، ليس هو عين وجوده، بل هو وجود محدث، لم يفيض عليه من وجود الحق شيء، لأن وجود الحق لا يفيض على مخلوق. هو وجود قائم به سبحانه، لا ينتقل إلى غيره، ولا يحل في سواه، وهو - سبحانه - يمدد الأكوان بهذا الوجود المحدث، الذي يليق بالأكوان، وهو خلق من خلقه، لا من فيضه الذاتي، يريد إمداده، فيكون كما قال ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل ٤٠] وليس عين ذلك الذي يمدده من الوجود عين وجوده سبحانه تعالى.

لم يحدث له بإظهار الكون اسم لم يكن له في قدمه، ولا صفة لم يوصف بها في أزله، بظهور الأكوان ووجودها لم يزدد بها مثقال ذرة من اسم ولا صفة، كما أنه لو لم يظهرها لم ينتقص بذلك، ولم تخف أسماؤه ولا صفاته، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، وها نحن - إن شاء الله - ننقل من كلامه نقل

المسطرة بلا زيادة ولا نقصان، لنستدل بذلك على صحة ما بيّنا من مذهبه، لِيَتَفَتَّنَ له العقلاء السالكون، والنبلاء الطالبون. ونُفَرِّقُ بين ما يقوله هو، وبين ما نُفَسِّرُهُ من كلامه بفاصل يَتَمَيَّزُ عنه، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال في الكلمة الآدمية، ساق الكلام في آدم إلى أن قال: (فسمي هذا المذكور إنساناً وخليفة، فأما إنسانيته فلعوم نشأته وحصره الحقائق كلها)، قوله: (لعوم نشأته وحصره الحقائق) يعني به أن آدم هو العالم الأصغر، قد جمع وحوى جميع ما في العالم الأكبر.

ثم قال: (وهو للحق تعالى بمنزلة [إنسان] ⁽¹⁾ العين من العين الذي به يكون النظر، وهو المعبر عنه بالبصر، فلهذا سُمِّيَ إنساناً)، يقول: إنه إنما سمي إنساناً لأنه من الحق بمثابة إنسان العين، وكفى بهذا كفراً لمن نَظَرَ وأنصف.

ثم قال: (فإنه به نظر الحق تعالى إلى خلقه فرحمهم، فهو الإنسان الحادث الأزلي، والنشء الدائم الأبدي) ⁽²⁾، قوله: (به نظر الحق إلى خلقه)، أي أكسبهم الوجود بسببه، فهو الإنسان الحادث بصورته، الأزلي لأنه كان ثابتاً في العدم والنشء الدائم، الأبدي لأنه صار بالوجود الدائم الأبدي.

وقال في الكلمة الشَّيْئِيَّة: (ومن هؤلاء من يعلم أن علم الله به في جميع أحواله هو ما كان عليه في حال ثبوت عينه قبل وجودها، ويعلم أن الحق لا يعطيه إلا ما أعطاه عينه من العلم به، وهو ما كان عليه في حال ثبوته، فيعلم علم الله [به] من أين حصل، وما ثم صنف من أهل الله أعلى وأكشف من هذا الصنف، فهم الواقفون على سرِّ القدر) ⁽³⁾، وهذا الذي قاله

(1) الزيادة من الفصوص.

(2) الفصوص: 49، 50

(3) الفصوص: 60

يقتضي أن قوماً يعلمون علم الله بهم من أين حصل، فيطابق علمهم علم الحق بهم من جميع الوجوه، وهذا لم يثبت في الشرع أنه حصل للأنبياء لأنهم ما كانوا يعلمون من علم الله إلا ما علّمهم الله، وما خفي عنهم أكثر مما علموه، فكيف يدعي مدع أن في الأمة من يعلم علم الله به من أين حصل؟ وهذا هو الضلال المبين البعيد.

قال: (ثم نرجع إلى الأعطيات، فنقول: إن الأعطيات إما ذاتية، [أو] أسمائية، فأما المِنَح والهِبَاتُ والعطايا الذاتية، فلا تكون أبداً إلا عن تجلٍ إلهي. والتجلي من الذات لا يكون أبداً إلا بصورة استعداد المتجلى له وغير ذلك لا يكون. فإذاً المتجلي له ما رأى سوى صورته في مرآة الحق، وما رأى الحق (ولا يمكن أن يراه مع علمه أنه ما رأى صورته إلا فيه).⁽¹⁾، معناه في قوله: (إذاً المتجلي له ما رأى سوى صورته في مرآة الحق)، فإنه بفيض الوجود رأى نفسه، ولولا فيض الوجود ما رأى نفسه.

وقوله: (ولا رأى الحق)، أي أنه مُطْلَقٌ شائع، والمُطْلَق لا يَرى حقيقةً إلا مُتَعَيِّناً، فلذلك قال: (ولا يمكن أن يراه)، مع علمه بأنه ما رأى وجود نفسه الثابتة في العدم إلا بوجود الحق الفائض عليه، فكان الوجود مرآة رأى نفسه فيها.

ثم ساق الكلام إلى أن قال: (فهو مرآتك في رؤيتك نفسك، وأنت مرآته في رؤيته أسماءه، وظهور أحكامها)، ثم قال: (وليست سوى عينه، فاختلط الأمر وانبتهم، فمنّا من جهل في علمه فقال: (والعجز عن درك الإدراك إدراك)⁽²⁾ أقول: وهذا ضربة في الصديق - رضي الله عنه - فإنه نُقِلَ عنه أنه قال:

(1) الفصوص: 61

(2) الفصوص: 62

(العجز عن دَرْكِ الإدراك إدراكٌ).⁽¹⁾ قال: (ومنا من علم فلم يقل مثل هذا، وهو أعلى القول، بل أعطاه العلمُ السكوتَ)⁽²⁾، معاشر العقلاء !! تدبَّروا هذا الكلام، وتفهموا محطَّه.

قال: (فهو مرآتك في رؤيتك نفسك)، هل تفهمون ما معناه؟ معناه أنه لما فاض وجوده الذي عليك، كان كالمرآة فيه رأيت ثبوتك في عدمك موجوداً، فكان وجود الحق مرآتك رأيت فيه نفسك، ثم قال: (وأنت مرآته في رؤيته أسمائه، وظهور أحكامها)، معناه: لولاك ما ظهرت أسماؤه، فأنت مرآة له في ظهور أسمائه، كما هو مرآتك في ظهور نفسك، وهذا نصٌّ صريحٌ في القاعدة التي قرناها أولاً من مذهبه، مطابقة لها، لمن فهمه وعقل زندقته.

ثم قال: (وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى أن الرسل لا يرونه - متى رأوه - إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإن الرسالة والنبوة - أعني نبوة التشريع ورسالته - تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبداً. فالمرسلون - من كونهم أولياء - لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابِعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع، فذلك لا يقدح في مقامه، ولا يناقض ما ذهبنا إليه،

(1) قال شيخ الإسلام ابن تيمية تعليقاً على هذا الموضع من كلام ابن عربي: "...وهذا الكلام مشهور - عندهم - نسبتُه إلى أبي بكر الصديق، فجعله جاهلاً، وإن كان هذا اللفظ لم يحفظ عن أبي بكر، ولا هو مأثور عنه في شيء من النقول المعتمدة، وإنما ذكر ابن أبي الدنيا في (كتاب الشكر) نحوه من ذلك عن بعض التابعين غير مسمى، وإنما يرسل عنه إرسالاً من جهة من يكثر الخطأ في مراسيلهم". انظر مجموع الفتاوى 216/2

فإنه من وجه يكون أنزل كما أنه من وجه يكون أعلى. وقد ظهر في ظاهر شرعنا ما يؤيد ما ذهبنا إليه في فضل عمر في أسارى بدر بالحكم فيهم، وفي تأبير النخل، فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم في كل شيء⁽¹⁾.

هل تفهمون - معاشر العقلاء - ما يقول هذا الضال؟ جعل الرُّسل والأنبياء لا يرون العلم بالله إلا من مشكاة خاتم الأولياء، الآتي في آخر الزمان، فهذا عنده محمد وموسى وعيسى لا يرون العلم بالله إلا من مشكاة خاتم الأولياء. ليت شعري

(1) الفصوص: 62، 63، وأنقل لك بعض مفهوم الولاية التي لا تنقطع عند ابن عربي، ولا تنس أنه قد يقول الشيء وضده في موضع آخر فإن وجدت كلاماً له يبدو منه خلاف ما يقوله هنا، فذلك من ربط القلوب الذي يتتهجه الزنادقة. الوليُّ عنده نبِّي "مع وقف التنفيذ" بتعبير أهل عصرنا، أعني أنه نبي لكنه لا يأتي بشريعة أخرى - بزعمهم - فواقعه الذي كان عليه - وأمثاله - يكذبه في هذه الضلالة التي حمل لواءها، واقرأ كيف فتح باب التشريع على مصراعيه، عند قوله: "...وأما حالة أنبياء الأولياء في هذه الأمة فهو: كل شخص أقامه الحق في تجل من تجلياته، وأقام له مظهر محمد ﷺ ومظهر جبريل عليه السلام، فأسمعه ذلك المظهر الروحاني (قد يكون ابن عربي صادقاً في الذي يظهر له ولأمثاله في خلواتهم، لكنه يجهل أن هذا المظهر الروحاني ما هو إلا شيطان أو جنّي كافر يتلعب بالحالمين بالنبوة) خطاب الأحكام المشروعة لمظهر محمد ﷺ..."، ثم قال: "...فُزِبَ حديث ضعيف قد تُرك العمل به لضعف طريقه من أجل وضاع كان في رواته، يكون صحيحاً في نفس الأمر، ويكون هذا الواضع مما صدق في هذا الحديث، ولم يضعه، وإنما ردّه المحدث لعدم الثقة بقوله في نقله..."، حتى قال: "وهذا وليُّ قد سمعه من الروح (يعني المظهر الروحاني) يلقيه على حقيقة محمد ﷺ كما سمع الصحابة في حديث جبريل عليه السلام مع محمد ﷺ في الإسلام والإيمان والإحسان..."، حتى قال: "ورب حديث يكون صحيحاً من طريق رواته يحصل لهذا المكاشف الذي قد عاين هذا المظهر، فسأل النبي ﷺ عن هذا الحديث الصحيح فأنكره وقال له: لم أقله ولا حكمت به، فيعلم ضعفه، فيترك العمل به عن بينة من ربه، وإن كان قد عمل به أهل النقل لصحة طريقه.... انظر الفتوحات المكية: 150/1، الباب الرابع عشر، وهو: "في معرفة أسرار الأنبياء، أعني أنبياء الأولياء....." فينبغي أن تعدد وسائل التحذير من رجل كتب سخفاً وكفراً، يتلقاه العامة وغير العامة بكل تعظيم، فليسهم كتاب الصحف اليومية وغيرهم في التحذير من ابن عربي، فإن من كتبه الوجودية ما يباع في بعض البلاد الإسلامية عند باعة الجرائد على الأرصفة !!

بِأَيَّةِ حُجَّةٍ؟ أم بأيِّ دليل؟ بأية آية؟ أم بأيِّ خبر؟ أم بأيِّ معقول؟ ثمَّ انظروا إلى حجته في قصة عمر بن الخطاب، وكونه ﷺ مرَّ على قوم يُلْقِحُونَ النخل، فقال: (لو تركتم هذا لَصَلَحَ)، فتركوه فصار شَيْصاً، فقال لهم: (أنتم أعلم بأمر دنياكم، وأنا أعلم بأمر دينكم) أو كما قال (فإني لن أكذب على الله). معاشر العقلاء !! فهل في قضية عمر حجة على ما قال؟ هل كان رسول الله ﷺ يرى العلم بالله من مشكاة عمر؟.

ولو فرضناه في قصة مخصوصة هل يلزم من ذلك أن يكون جميع الأنبياء والرسل يرون العلم بالله جميعه من مشكاة خاتم الأولياء؟.

وهل في قضية التأبير دلالة على أنه ﷺ وجد العلم بالله من مشكاة أهل النخل؟! نعم، الرسول ﷺ بعثه الله بشيراً ونذيراً، وداعياً إليه، لم يبعثه بالفلاحة والتأبير والزراعة، فكونُ أنَّ القوم كانوا أعلم بأمر دنياهم هل في ذلك دلالة على أن جميع الأنبياء والرسل يرون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء؟!

تَعَقَّلُوا - رحمكم الله - ما يقول هذا الضال، واستدلوا على بعض كلامه ببعض تَفْهَمُوا انحلاله، بل تعرفوا خَبْطَهُ وتَعَثَّرَهُ في وَهْمِهِ وَخَيَالِهِ، وأنه وإنَّ كَانَ ملتزماً بشيء من الشريعة في مقالِهِ، فَإِنَّ ذلك رِبْطٌ للقلوب، واستدراجٌ لها، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴾ [النور ٤٠].

ثمَّ انظروا - رحمكم الله - كيف قلب الحقائق وأعيانها في الكلمة التَّوْحِيَّةِ فقال: (لو أن نوحاً جمع بين الدعوتين لأجابوه، فدعاهم جهاراً، ثمَّ دعاهم إسراراً، ثمَّ قال لهم ﴿ اَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ وقال ﴿ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿ ١٠١ ﴾ [نوح] وذكر عن قومه أنهم تصاموا عن دعوته لعلمهم بما يجب عليهم بإجابة دعوته، فعلم العلماء بالله ما أشار إليه نوح عليه السلام في حق قومه من الثناء عليهم بلسان الذم، وعلم أنهم لم يجيبوا دعوته لما فيها من الفرقان، والأمر قرآن لا فرقان، ومن أقيم في القرآن لا يُصْغِي إلى الفرقان وإنَّ كَانَ فيه،

فإن القرآن يتضمّن الفرقان، والفرقان لا يتضمن القرآن، ولهذا ما اختصّ بالقرآن إلا محمد ﷺ، وهذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس. فليس كمثله شيء، فجمع الأمرين في أمر واحد⁽¹⁾، فلو أن نوحاً يأتي بمثل هذه الآية لفظاً لأجابوه، فإنه شبه ونزه في آية واحدة، [بل في نصف آية]⁽²⁾، ونوح عليه السلام دعا قومه ليلاً من حيث عقولهم وروحانيتهم فإنها غيب، ونهاراً دعاهم - أيضاً - من حيث ظاهر صورهم وحسّهم، وما جمع في الدعوة مثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى] فنفّرت بواطنهم لهذا الفرقان، فزادهم فراراً، ثم قال عن نفسه إذ دعاهم ليغفر لهم، لا ليكشف لهم، وفهموا ذلك منه، لذلك ﴿جَعَلُوا أَصَبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ وهذه كلها صورة الستر التي دعاهم إليها فأجابوا دعوته بالفعل لا بلبّيك، ففي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ إثبات المثل ونفيه، وبهذا قال عن نفسه إنه أوتي جوامع الكلم، فما دعا محمد قومه ليلاً ونهاراً، بل دعاهم ليلاً في نهار، ونهاراً في ليل، فقال نوح في حكمته لقومه ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ وهي المعارف العقلية في المعاني والنظر الاعتباري ﴿وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ﴾ [نوح 11، 12] أي: بما يميل بكم إليه، فإذا مال بكم إليه رأيتم صوركم فيه، فمن تخيل منكم أنه رآه فما عرف، ومن عرف منكم أنه رأى نفسه فهو العارف⁽³⁾، ثم ساق الكلام إلى أن قال: (فقالوا في مكرهم

(1) في طبعة (عفيفي) من الفصوص: "يجمع الأمرين في أمر واحد".

(2) الزيادة من المطبوعة.

(3) الفصوص: 70، 71

﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح] فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء، فإن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله. في المحمديين ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء] أي: حَكَمَ، فالعالم يعلم من عبد، وفي أي صورة ظهر حتى عبد، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية، فما عبد غير الله في كل معبود، فالأدنى من تخيل فيه الألوهية فلولا هذا التخيل ما عبد الحجر ولا غيره).

ثم ساق الكلام إلى أن قال: (والأعلى العالم يقول إنما إلهكم إله واحد فله أسلموا حيث ظهر)، فقله: (ما عبد غير الله في كل معبود)، أي إن عبادة الأصنام كان فيهم خاصة وعامة، وعامة عارفون، ومحجوبون، فالعامة المحجوبون تخيلوا أن في الأصنام ألوهة، وأما العلماء العارفون من عباد الأصنام يقول العارف منهم: إنما إلهكم إله واحد فله أسلموا، حيث ظهر أسلم للصنم وعبدته، حيث ظهر الحق فيه بوجوده الفاض عليه. افهموا رموزه، تعقلوا عنه.

ثم قال ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج] الذين خَبَتِ نَارُ طَبِيعَتِهِمْ، فقالوا: إلهاً ولم يقولوا طبيعة، ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ أي خيروهم في تعداد الواحد بالوجوه والنسب، ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم المضطفين، الذين أوتوا الكتاب، فقدّمه على المقتصد والسابق، ﴿ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ إلا حيرة المحمدي (زدني فيك تحيراً)⁽¹⁾، ثم ساق الكلام والتخليط إلى أن قال ﴿ مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ ﴾

(1) هذا من الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وما يذكره بعض الناس عنه أنه قال (زدني فيك تحيراً) كذب باتفاق أهل العلم بحديثه، بل هذا سؤال من هو حائر، وقد سأل المزيد من الحيرة، ولا يجوز لأحد أن يسأل ويدعو بمزيد الحيرة إذا كان =

فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله، وهو الحيرة، ﴿ فَأَدْخِلُوا نَارًا ﴾ في عين الماء في المحدثين. ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۖ ﴾ [التكوير 6]: سَجَرَتِ التنور إذا أوقدته.

﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ [نوح] وكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد، فلو أخرجهم إلى السيف، سيف الطبيعة، لنزل بهم عن هذه الدرجة الرفيعة، وإن كان الكل لله، وبالله، بل هو الله، ثم ساق الكلام والخطب إلى أن قال ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ ﴾ أي تدعهم وتتركهم ﴿ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أي يحَيِّروهم فيخرجوهم من العبودية إلى ما فيهم من أسرار الرُبُوبِيَّة فينظرون أنفسهم أرباباً بعد ما كانوا عند أنفسهم عبيداً، فهم العبيد الأرباب.⁽¹⁾

انظروا - معاشر العقلاء، رحمكم الله - في هذا الكلام في الكلمة النُوحِيَّة، وما يلزم منها في قوله في حق نوح عليه السلام أنه حيرهم حيث دعاهم ليلاً ونهاراً، وكان الواجب أن يدعوهم ليلاً في نهار، ونهاراً في ليل، ومن قوله: (فإذا مال بكم إليه رأيتم صورته فيه)، ومن قوله: (فالعالم يعلم من عبد، وفي أي صورة ظهر حتى عبد، وإن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية، فما عبد غير الله في كل معبود). ثم ذكر الأدنى يقول: كذا، والأعلى يقول: (إنما إلهكم إله واحد فله أسلموا

حائراً، بل يسأل الهدى والعلم، فكيف بمن هو هادي الخلق من الضلالة، وإنما ينقل مثل هذا عن بعض الشيوخ الذين لا يقتدى بهم في مثل هذا إن صح النقل عنه". انظر مجموع

الفتاوى 179/5، ودرء التعارض 225/5

(1) الفصوص: 72، 74

حيث ظهر)، وقوله: (أي حيروهم في تعداد الواحد بالوجوه والنسب) فقد جعل الكون تفرقة من وحدة الحق، كالأعضاء في الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية، يفسر ذلك قوله: (حيروهم في تعداد الواحد بالوجوه والنسب) أي أن الأمر هو شيء واحد لكنه متعدد بالوجوه والنسب والإضافات الأسمائية، التي لزمّت من ظهور الذوات الثابتة لفيض الوجود عليها، وعلل قول الكفار من قوم نوح في قولهم: ﴿ لَا تَدْرُنَّ ءِلهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وَدًّا ﴾ [نوح] إنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا، فإن للحق في كل معبود وجهاً، فأقام عُذْرَهُم في عبادتهم الأصنام، ومهّد لهم دينهم ودين كل من عبد وثناً أو صنماً، فما ألقى الكفار في قوله ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر] وجميع ذلك يُقَرِّر ما نبهنا عليه أولاً من بيان قاعدته في مذهبه لمن عقله أو فهم مراده وبالله المستعان.

وجملة ما يشير إليه هو أن وجود الحق الذاتي سارٍ في كل مُتَعَيِّن. قَبْلَ منه كُلُّ مُتَعَيِّنٍ على قدره وحده. أعطى كل شيء حسب ما يناسبه، كالماء يكون في الأواني الزجاج المتلونة فإنه يكون الماء في الأحمر أحمر، وفي الأخضر أخضر، وفي الأسود أسود، والماء شيء واحد، لكنه يكون في كلّ آنية بحسب ما يستعده، وتلك النسبة الموجودة في الماء إلى الأواني من حمرة وصفرة وخضرته وسواده هي أسماء الماء، كذلك لما فاض وجود الحق على الماهيات صار الوجود في كل ماهية بحسب ما تستعده تلك الماهية إنساناً وجمالاً وفرساً وحماراً وقطاً وفأراً وكلباً وخنزيراً وقرداً ونجاسة، والوجود وحدة مطلقة، فلما فاض المُطْلَق على الماهيات قبلت منه بحسب ما تستعده كل ماهية، وذلك هو ظهور الحق المُطْلَق المغيب إلى الوجود في عالم الحس وتلك النسب المتعددة باختلاف استعداد الماهيات هي أسماء الحق، لولاها لم يكن للوجود المُطْلَق اسم.

مثال آخر - نُكْرِر الكلام، ونُكْثِر الأمثلة لتظهر هذه الشبهة التي قد فتن بها كثير من السالكين، واغترّ بها كثير من الجاهلين - أوعية مختلفة

الأشكال، مثل: مثلثة، ومربّعة، ومخمّسة، ومسدّسة، ومسبّعة، ومثمّنة مثلاً، فأفاض عليها ماء، فإن الماء يتشكّل على شكل كلّ إناء، يكون في المثلث مثلاً، وفي المربع مربعاً، وهلمّ جراً، وهذا المثل إنما يستقيم من حيثية الاستعداد الكائن في الأشكال المختلفة، لا من حيثية الوجود، فإنه من حيثية الوجود سبب لظهور الأشكال التي هي محلّ الوجود، لأنها كانت ثابتة في العدم، والوجود هو الذي أظهرها بفيضه عليها. لكن نقول: من حيثية استعداد كلّ محل فكذلك - عنده - وجود الحق لما فاض على الماهيات تشكّلت كلّ ماهية بوجودها بحسب استعدادها وقبولها منه.

فافهموا ذلك - معاشر الألباء - ننحلّ عنكم شبهة هؤلاء الزنادقة القرامطة، الذين مذهبهم هذا المذهب الخبيث هو عين مذهب النصيرية والإسماعيلية، لكن تختلف فيه العبارات والإشارات، والمقصود شيء واحد، وبالله المستعان.

ولذلك يقول ابن سبعين في بعض تصانيفه: يظهر في الماء بلونه، وفي النار بلونها. ويشير إلى أن الوجود يظهر في كلّ ماهية بلونها، فالإله الشكوى من ضلال هؤلاء وإضلالهم ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (١٧) [يس]

وقال في الكلمة الإدريسية - زادنا الله بصيرة في قلبه للحقائق - قال: (وكذلك الخلفاء من الناس لو كان علوهم بالخلافة علواً ذاتياً، لكان لكل إنسان. فلما لم يعمّ عرفنا أن ذلك العلوّ للمكانة. ومن أسمائه الحسنی: العلي، على من وما ثمّ إلا هو؟ فهو العلي لذاته، أو عن ماذا وما هو إلا هو؟، فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى: (محدّثات)، هي العلية لذاتها، وليست إلا هو. فهو العلي لا علوّ إضافة، لأن الأعيان التي لها العدم الثابتة فيه ما شمت رائحة الوجود، فهي على حالها مع تعداد الصور في الموجودات، والعين واحدة من المجموع في

المجموع. فوجود الكثرة في الأسماء، وهي النسب، وهي أمور عدمية. وليس إلا العين الذي هو الذات، فهو العليُّ لنفسه لا بالإضافة، فما في العالم من هذه الحيثية علوٌّ إضافة، لكن الوجوه الوجودية متفاضلة، فعلو الإضافة موجود في العين الواحدة من حيث الوجوه الكثيرة⁽¹⁾.

افهموا - معاشر العقلاء - ما يقول، قال: - عليّ على مَنْ؟ وما ثمَّ إلا هو -، باعتبار الوجود، فإن الوجود كله في الماهيات هو عين وجوده، وإذا كان كذلك فعلى من يعلو؟ ثم صرَّح بذلك فقال: (وهو من حيث الوجود هو عين الموجودات فالمسمى محدثات هي العلية بذاتها)، وهذا نصٌّ صريحٌ لا يحتاج إلى تفسير، فعلى هذا يكون الكلُّ علا بذاته، والقرد، والدُّبُّ، والفأر كلُّ واحد منهم علا بذاته لأن وجوده عين الوجود المُطلق الذاتي. صرَّح الرجل وما أقصر، وأبان عن مذهبه الخفي في هذا الكلام حيث قال: (وهو من حيث الوجود عين الموجودات)، ثم فسَّر ذلك فقال: (فالمسمى محدثات هي العلية بذاتها)، وما بعد هذا الإيضاح بَعْدُ؟ وَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ مُراده بعد هذا التصريح، فقد أبان عن بلادَةِ طَبْعِهِ وجموده، وبالله المستعان.

وقال أيضاً في الكلمة الإدريسية: (وَمَنْ عَرَفَ ما قررنا في الإعداد، وأن نفيا عين إثباتها، علم أن الحق المنزَّه هو الخلق المشبَّه، وإن كان قد تميَّز الخلق من الخالق⁽²⁾) يعني باعتبار الذوات المتعددة، فبهذا يتميز الخلق من الخالق، وأما باعتبار الوجود فيكون كما قال أولاً: (فاختلط الأمرُ وانْبَهَمَ)، فإن كلامه يُفَسِّر بعضه بعضاً.

ثم قال: (فالأمر الخالق المخلوق، والأمر المخلوق الخالق كلٌّ من

(1) الفصوص: 76

(2) الفصوص: 78

عين واحدة، لا، بل هو العين الواحدة، وهو العيون الكثيرة). فقوله: (الأمر الخالق) أي هو المخلوق، وكذلك الأمر المخلوق هو الخالق، ثم صرح بهذا المراد في قوله (لا بل هو العين الواحدة، وهو العيون الكثيرة) وهذا ظاهر من مراده الذي قدمناه بلا إشكال. ثم قال: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَأَتَّىٰ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ ﴿[الصفات] والولد عين أبيه، فما رأى يذبح سوى نفسه، وفداه بذبح عظيم، فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان، وظهر بصورة ولد، لا، بل بحكم ولد من هو عين الوالد، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء] فما نكح سوى نفسه، فمنه الصاحبة والولد، والأمر واحد في العدد، فمن الطبيعة ومن الظاهر منها، وما رأيناها نقصت بما ظهر منها ولا زادت بعدم ما ظهر؟ وما الذي ظهر غيرها؟ وما هي عين ما ظهر لاختلاف الصور بالحكم عليها، فهذا بارد يابس، وهذا حار يابس، فجمع باليبس وأبان بغير ذلك. والجامع الطبيعة، لا، بل العين الطبيعية، فعالم الطبيعة صور في مرآة واحدة، لا، بل صورة واحدة في مرآة مختلفة. فما ثم إلا حيرة لتفرق النظر، ومن عرف ما قلناه لم يحز. وإن كان في مزيد علم فليس إلا من حكم المحل، والمحل عين العين الثابتة، فيها ينبوع الحق في المجلى فتشوع الأحكام عليه، فيقبل كل حكم، وما يحكم عليه إلا عين ما تجلى فيه ما ثم إلا هذا⁽¹⁾.

معاشر العقلاء!! هل تفهمون ما يقول هذا الضال في ضلالته؟ افهموا إن كنتم تعقلون، قال: (الولد عين أبيه) باعتبار الوجود، فإنه واحد فيه وفي ابنه (فما رأي

(1) الفصوص: 78، 79

يذبح سوى نفسه) باعتبار الوجود، فإنه واحد، فعلى هذا يكونُ فرعونُ عين موسى، وأبو جهلٍ عين الصديق، وزيدُ عين عمرو باعتبار الوجود، فإنه واحد فيه وفي كل شيء، ويكون الملكُ عين البشر، والصديقُ عين العدو، ثم صرح بذلك في قوله: (وظهر في صورة كبش من ظهر بصورة إنسان، لا، بحكم ولد من هو عين الوالد) والكلُّ هو الحق، الكبش، والإنسان، والولد، والوالد تارة. يظهر باعتبار الوجود في صورة كبشٍ من ظهر في صورة إنسان، وبحكم ولد من هو عين الوالد، وما ثمَّ إلا هو، لكن يتعدد المحلُّ والمجلى والعينُ واحدةً. فهذا عنده البشرُ عين الولد وهو عين الوالد، فجعل الخليل ﷺ كبشاً، وجعل الولد والدًا. ثم فسَّر ذلك وصرَّح به في قوله ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، فما نكح سوى نفسه، فباعتبار الوجود هو الناكح وهو المنكوح والكل هو، فمن الناكح ومن المنكوح ؟

فهل سمعتم - معاشر العقلاء - كفراً أفحش من هذا ؟ وتمزيقاً للربوبية أعظم من هذا؟ مَنْ أبو جهلٍ عند هذا ؟ كَانَ أَبُو جَهْلٍ جَلْفًا بليداً [و] كَانَ يُبْغِضُ الْحَقَّ ويعادي رسول الله ﷺ [لكنه] والله ما وصل كفره وفحشه إلى هذا، ولا وصلتْ فطنته إلى قَلْبِ الْحَقَائِقِ والأعيان كما قَلْبُ هَذَا الْحَقَائِقِ وجعل الخالق مخلوقاً، والمخلوق خالقاً.

ثم حقق ذلك فقال: (وما الذي ظهر غيرها، وما هي عين ما ظهر لاختلاف الصور) في الحكم الأول باعتبار الوجود ما ظهر منها غيرها فإن الموجود واحد والثاني باعتبار المحل والمجلى الذي تجلى فيه الحق ما هي عين ما ظهر منها لاختلاف الصور، وهي الذوات، في الحكم الموجب للأسماء، ثم مثَّلَ على ذلك مثلاً، فقال: (فهذا باردٌ يابس، وهذا حارٌ يابس، فجمع باليبس وأبان بغير ذلك) يعني الحرارة، والجامع الطبيعة، لا، بل العين الطبيعية، فعالمُ الطبيعة صورٌ في مرآة واحدة، لا، بل صورةٌ واحدةٌ في مرآة مختلفة. فما ثمَّ إلا حيرة لتَفَرُّقِ النَّظَرِ ثم قال: (فليس إلا من حكم المحل، والمحل

عين العين الثابتة، فيها ينبوع الحق في المجلى فتتنوع الأحكام عليه). هل تفهمون ما يقول؟ جعل طبيعة اليبس الجامعة للحرّ والبارد بمثابة الوجود، فإنه جامع للأشياء كلها، واليبس جامع للأشياء حارّها وباردها، وجعل الحرارة والبرودة أحكاماً وأسماء الطبع الواحد الجامع وهو طبيعة اليبس، ثم قال: (فعالم الطبيعة صور في مرآة واحدة) يعني صوراً مختلفة: يابس بارد. هذا هو الاختلاف، لكنّ هذا الاختلاف في مرآة واحدة، وهو اليبس من حيث هو ييبس، فهو مرآة واحدة لأنه أمرٌ واحد للأشياء المختلفة.

ثم قال: (لا بل صورة واحدة في مرايا مختلفة) فإنه طبيعة واحدة في مرايا مختلفة في الحرّ والبارد هما مختلفان وهذا تقريبٌ للوجود الفاض، جعل الطبيعة اليابسة بمثابة الوجود الجامع وجعل الحرارة والبرودة بمثابة أحكام الأسماء للوجود، فعلى هذا يكون الوجود صوراً في مرآة واحدة يعني أن لكل عين وجوداً منفرداً لكنه في مرآة واحدة وهو الوجود المطلق.

ثم قال: (لا بل صورة واحدة في مرايا مختلفة) فإن الوجود المطلق شيء واحد فاض في مرايا مختلفة، ثم قال: (فليس الأمر إلا من حكم المحلّ والمحلّ عين العين الثابتة) يعني الذوات الثابتة في العدم (فيها يتنوع الحق في المجلى فتتنوع الأحكام عليه) أي تنوع حين فاض بحسب قبول المحل فتتنوع الأحكام وهي الأسماء الموجودة بحسب الاستعداد، وكل هذا يقرر ما قدمناه أولاً من بيان أصل مذهبه لا يحتمل معنى غيره لمن فهمه، والله الموفق للصواب.

ثم أنشد:

فالحقُ خلقٌ بهذا الوجه فاعتبروا وليس خلقاً بذاك الوجه فادّكروا

يعني أن الحق خلق باعتبار الوجود، فإن وجود الجميع واحد، وليس خلقاً بذاك الوجه لتنوع المحلات لمحل الحق بحسب استعداد كل محل.

مَنْ يَذَرِ مَا قَلْتُ لَمْ تُخَذَلْ بِصِيرَتِهِ وَلَيْسَ يَذَرِيهِ إِلَّا مَنْ لَهُ بَصَرٌ
جَمَعَ وَفَرَّقَ فَإِنَّ الْعَيْنَ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الْكَثِيرَةُ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ
وقال - زادنا الله فيه بصيرةً - في الكلمة الإبراهيمية: (فإن بعض الحكماء -
وأبا حامدٍ - ادعى أنه يُعَرِّفُ الله من غير نظَرٍ في العالَمِ وهذا غلط. نعم
تُعرف ذاتٌ قديمة أزلية لا يُعرف أنها إله حتى يُعرف المألوه، فهو الدليل
عليه. ثم بعد هذا في ثاني حال يعطيك الكشف أن الحق نفسه سبحانه
كانَ عين الدليل على نفسه وعلى ألوهيته، وأن العالم ليس إلا تجلّيه في
صور أعيانهم الثابتة التي يستحيل وجودها بدونه وأنه يتنوّع ويتصور
بحسب حقائق هذه الأعيان وأحوالها، وهذا بعد العلم به منا أنه إله لنا،
ثم يأتي الكشف الآخر فيظهر لك صورنا فيه، فيظهر بعضنا لبعض في
الحق⁽¹⁾). يريد بهذا الكلام أن الكشف لا يكون في أول مرة، بل لا يعرف الإله
حتى يعرف المألوه، ولا يُعرف المألوه إلا بمعرفة مَنْ ألَّهه، ثم بعد ذلك يعطيك
الكشف بأن العالم ليس إلا تجلّيه في صور أعيانهم الثابتة التي يستحيل وجودها
بتجلي فيض الوجود الذاتي على مرّائي الأعيان الثابتة في العدم - كما مرَّ أولاً - فإن
عنده أن الأعيان كانت ثابتة في العدم ليس لها وجود، فلما فاض عليها الوجودُ
وُجِدَتْ فصارت بوجودها عالماً، فليس العالمُ عنده إلا بمجرد التجلي في صور
الأعيان، ثم يأتي الكشف الثاني فيظهر لك صورنا فيه - أي في وجوده الذاتي -
بصور مختلفة لاختلاف أحكام أسمائها لتنوع استعدادها وهي أسماء وجوده، ثم
قال: (فيظهر بعضنا لبعض في الحق).

وبلغنا أن في أن بلاد المشرق يجتمعون فيظهر لهم هذا الوهم الفاسد، وهو
ظهور صورهم المختلفة في الوجود الذاتي، فيستجد بعضهم لبعض لأنهم تعارفوا
في الحق، فسجد كل واحد لصاحبه، ويتوهم أنه عينه، وإنما سجد لوجوده في هذا

الحق الجامع للكل) فأُتي مخرفةً وأخْمُوقة تبلغ هذا ١٩ ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا
الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: 24]، وبالله المستعان.

وقال في الكلمة الإبراهيمية أيضاً: (ولذلك كثر المؤمنون، وقلَّ العارفون
أصحاب الكشف ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصفات: 164] وهو ما
كنت به في ثبوتك ظهرت به في وجودك، هذا إن ثبت أن لك وجوداً،
فإن ثبت أن الوجود للحق لا لك، فالحكم لك بلا شك في وجود الحق.
وإن ثبت أنك الموجود فالحكم لك بلا شك، وإن كان الحاكم الحق.
فليس له إفاضة الوجود عليك والحكم لك عليك، فلا تحمد إلا نفسك
ولا تدم إلا نفسك، وما يبقى للحق إلا حمد إفاضة الوجود، لأن ذلك له
لا لك، فأنت غذاؤه بالأحكام وهو غذاؤك بالوجود، فتعين عليه ما تعين
عليك. فالأمر منه إليك ومنك إليه، غير أنك تُسمى مكلفاً وما كلفك إلا
بما قلت له كلفني بحالك وبما أنت عليه، ولا يسمى مكلفاً: اسم مفعول.

فيحمدنني وأحمدنني ويعبدنني فاعبدني
ففي حال أقرب به وفي الأعيان أجد به
فيعرفنني وأنكره وأعرفه فأشهد به
فأنني بالغنى وأنا أسأله وأستعده؟
لذلك الحق أوجدني فأعلمه فأوجد به
بذا جاء الحديث لنا وحقق في مقصده⁽¹⁾

وحاصل هذا أن الحق سبحانه وتعالى - على زعمه - ليس يُحمد إلا لإفاضة
الوجود فقط ليس له فيك من التصرف غير هذا، وما عدا هذا من أحوالك وشؤونك

فهو منك بمقتضى استعدادك لأن محلّك اقتضى أن يأخذ من الوجود ما استعدّ له وبذلك يسمى بالأسماء المختلفة - التي عنده هي أسماء الحق - فأنت غذاء الحق بالأحكام، فإنه لولاك لم تظهر أسماؤه فيك، فصرت بذلك غذاءه، وهو غذاؤك بالوجود، لولا وجوده الذاتي الفائض عليك ما ظهرت، فتعيّن على العبد ما تعين على الرّب، فصار لكل منهما على الآخر حق، فافتقر كل منهما إلى الآخر - على زعمه - فكَذلك قال:

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده

يعني: (يعبدني) لأنني محلّ أسمائه، وللأسماء فيه تصرّف لأنها من فيضه (وأعبده) لأنني بوجوده ظهرت فكلّ منا يعبد الآخر.

انتبهوا - معاشِرَ العقلاء - ولا تصامموا، ولا تتأولوا، ولا تقولوا: هذه حقائق ما نفهمها. بلى - والله - يفهمها من كان له أدنى مُسَكَّةٍ من عقلٍ صحيح، وانصحوا الله، وجاهدوا هؤلاء الكفرة الفجرة، الذين قد تَفَنَّنوا في كفرهم بطرائف لم يسبقهم إليها أحدٌ من كفرة خلق الله، وملحديهم، وبيّنوا غوارهم للخلق، وأهينوا كُتُبهم وأسماءهم، فإنهم أهانوا الرُّبُوبِيَّةَ ومزقوها، مزّقهم الله كلّ ممزّق، في الدنيا والآخرة. اسمعوا ما يقول:

فيحمدني وأحمده ويعبدني فأعبد

ففي حالٍ أقرب به وفي الأعاليان أجحده

يعني: باعتبار الوجود أقرب به، وفي الكثرة والتعينات أجحده، فإنه واحد وهي متعددة كثيرة.

فيعرفني وأنكره وأعرفه فأشهده

(فأشهده فيعرفني): هو بكثرة أسمائه المتعدّدة فيّ، وأعرفه أنا بوجوده الفائض عليّ، فأشهده.

وقوله: فأني بالغنى وأنا أساعده فأُسعده

أي: أنى بوجوده الفائض عليّ وبأحكامي، التي هي أسماؤه أساعده، لأنني محلّ

أسمائه، فبذلك تكون مساعدتي له.

وجميع ما في الكتاب إشارة إلى هذا المعنى الواحد، الذي تكرر ذكره من أول الكتاب إلى هنا، ولولا محبتي للإفصاح عن مذهبه بنقل كلامه، وحله وتفصيله على القاعدة الأولى لحصلت الكفاية ببعض ما تقدم ذكره من تكرار المعنى الواحد في هذه العبارات المختلفة، وبالله المستعان.

وقال في الكلمة اليعقوبية: (وأما سره وباطنه، فإنه تجلّ في مرآة وجود الحق، فلا يعود على الممكنات من الحق إلا ما تُعطيه ذواتهم في أحوالها، فإن لهم في كل حال صورة، فتختلف صورهم لاختلاف أحوالهم، فيختلف التجلي لاختلاف الحال، فيقع الأثر في العبد بحسب ما يكون، فما أعطاه الخير سواه، ولا أعطاه ضد الخير غيره، بل هو مُنعم ذاته ومُعذّبها، ولا يذمّن إلا نفسه، ولا يحمدن إلا نفسه).

ثم قال: (السر الذي فوق هذا في مثل هذه المسألة أن الممكنات على أصلها من العدم، وليس وجوداً إلا وجود الحق بصور أحوال ما هي عليه الممكنات في أنفسها وأعيانها، فقد علمت من يلتذ ومن يتألم، وما يعُقب كلّ حال من الأحوال، وبه سمي عقوبة وعقاباً، وهو سائغ في الخير والشر غير أن العُرف سمّاه في الخير ثواباً وفي الشر عقاباً، وبهذا سمي أو شرح الدين بالعادة، لأنه عاد عليه ما يقتضيه ويطلبه⁽¹⁾، قوله: (من يلتذ ومن يتألم) يُريد أن العارف يعرف أن الملتذ هو الله - ويأتي شرحه من نفس كلامه في الكلمة الأيوبية - ليعرف أنه أراد ذلك حقيقة، وكفي بذلك كفراً وزندقة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ونستغني عن شرح هذا الفضل، فإنه قد سبق في

مواضع عدَّة أشياء إذا فُهِمَت فُهِمَ معنى ما قاله هنا، وبالله المستعان.

وقال في الكلمة اليوسفية: (اعلم أن المقول عليه: -سوى الحق- أو مسمى (العالم) هو بالنسبة إلى الحقِّ كالظل للشخص وهو ظل الله، وهو عين نسبة الوجود إلى العالم لأن الظل موجود بلا شك في الحسِّ، ولكن إذا كَانَ ثَمَّ من يظهر فيه ذلك الظل حتى لو قدرت عدم من يظهر فيه ذلك الظل كَانَ الظل معقولاً غير موجود في الحس، بل يكون بالقوة في ذات الشخص المنسوب إليه الظل، فمحلُّ ظهور هذا الظل الإلهي المسمى بالعالم إنما هو أعيان الممكنات عليها امتدَّ هذا الظل، فتدرك من هذا الظل بحسب ما امتدَّ عليه من وجود هذه الذات، ولكن باسمه النور وقع الإدراك وامتدَّ هذا الظل على أعيان الممكنات في صورة الغيب (المجهول)⁽¹⁾.

ثُمَّ ساق الكلام إلى أن قال ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان 46] وإنما قبضه إليه لأنه ظله، فمنه ظهر وإليه يرجع الأمر كله، فهو ولا غيره، فكل ما تُدركه فهو وجود الحق في أعيان الممكنات، فمن حيث هُويَّة الحق هو وجوده، ومن حيث اختلاف الصور فيه هو عين الممكنات، فكما لا يزول باختلاف الصور اسم الظل، كذلك لا يزول عنه باختلاف الصور اسم (العالم) أو اسم (سوى الحق)، فمن حيث أحدية كونه ظلاً هو الحق لأنه الواحد الأحد، ومن حيث كثرة الصور هو (العالم)، فتفطن وتحقّق ما أوضحته لك، وإذا كَانَ الأمر على ما ذكرته لك، فالعالم متوهّم ما له وجودٌ حقيقي، وهذا معنى الخيال، أي خُيِّلَ لك أنه أمرٌ زائدٌ، قائمٌ

بنفسه، خارجٌ عن الحقِّ، وليس كذلك في نفس الأمر. ألا تراه في الحس متصلًا بالشخص الذي امتد عنه يستحيل عليه الانفكاك عن ذلك الاتصال لأنه يستحيل على الشيء الانفكاك عن ذاته ؟ فاعرف عينك، ومن أنت، وما هويتك، وما نسبته إلى الحق، وبما أنت حق، وبما أنت (عالمٌ) و(سوى) و(غيرٌ) ⁽¹⁾.

وحاصل هذا الفصل الذي ذكره أنه جعل نسبة العالم إلى وجود الحق كنسبة الظل إلى الشخص، وعنده أن وجود الحق امتدَّ على الأعيان الممكنات في العدم كما امتد الظل على محله، فهي ثلاثة فافهمها:

- محلّ.

- وظلّ يقع عليه.

- وشخص يكون عنه الظلّ.

فالمحلّ: الممكنات، والظلّ: الوجود، فكما يقبل المحلّ من الظلّ بقدر استعداده كذلك - على زعمه - يقبل الممكن من وجود الحق على قدر استعداده، ثمّ حقّق ذلك فقال: (العالمُ مُتَوَهِّمٌ ماله وجودٌ حقيقي)، أي: كما أن الظلّ ليس له وجودٌ حقيقي.

ثمّ قال: (فاعرف عينك ومن أنت وما هويتك). وفي هذا الكلام شبهةٌ حق ربّما أشكل على بعض الناس وهو قوله: (ألا تراه - يعني الظل - في الحس متصلًا بالشخص الذي امتد عنه يستحيل عليه الانفكاك من ذلك الاتصال)، نعم، الكون متصلٌ بتدبير الحق له وإمداده من قدرته ما يتيّم به وجوده وبقاؤه، وليس اتّصاله بالحقّ كاتّصال الظلّ بالشخص، كلّما تحرّك تحرّك، أو سَكَنَ سَكَن. هذا مثالٌ فاسدٌ لا يستقيم في نسبة الكون إلى الحق باعتبار أنّ عين وجود

الكون هو عين وجود الحق، وقد سبق أن للحق تعالى وجوداً قائماً به، قديماً أزلياً، وللكون وجود آخر محدث، مخلوق، مفتقر، قائم بإمداد الله له من قدرته وأمره التكويني، فليس قيامه بعين وجود الحق، تعالى وجود الله أن يقوم بعينه شيء غير الله، فإنه وجود يقوم به، وللخلق وجود ضعيف مفتقر يليق بهم، هو صادر عن قدرة صاحب الوجود القديم. هذا هو مذهب المسلمين الذين يجعلون بين الحق والخلق مَبَايَنَةً يَقْتَضِيهَا الْقِدَمُ وَالْحُدُوثُ.

وأما من جعل الحق خلقاً باعتبار، والخلق حقاً باعتبار، ويعود فيقول: (الكل هو، ما ثم غيره، وأنت هو، وهو أنت)، فهذا صاحب وهم فاسد، وخيال زائع، يتعين معرفة زيغ، وتحذير المسلمين من شُبُهاته، وبالله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال في الكلمة اليعقوبية: (الممكنات على أصلها من العدم، وليس وجود إلا وجود الحق بصور أحوال ما هي عليه الممكنات في أنفسها وأعيانها، فقد علمت من يَلْتَذُّ وَمَنْ يَتَأَلَّم).⁽¹⁾ وهو لم يُرد بقوله: (من يلتذ ومن يتألم)، إلا جناب الحق العزيز المتزه المنيع، ويفسر ذلك قوله في الكلمة الأيوبية قال: (وعلم أيوب أن في حبس النفس عين الشكوى إلى الله في رفع الضّر مقاومة القهر الإلهي، وهو جهل بالشخص إذا ابتلاه الله بما تألم منه نفسه، فلا يدعو الله في إزالة ذلك الأمر المؤلم). فهذا قد جهل أيوب - عليه السلام - في صبره، وترك الشكوى إلى الله في أول الأمر، وكفى من يجهل الأنبياء كفراً. بل ينبغي له عند المحقق أن يتضرع ويسأل الله في إزالة ذلك عنه، فإن ذلك إزالة عن جناب الحق⁽²⁾ عند العارف صاحب الكشف، فإن الله قد وصف نفسه بأنه يؤذى فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

(1) الفصوص: 96

(2) كذا في النسخة والمطبوعة، وكأنها كانت: إيذاء لجناب الحق. على مذهب ابن عربي.

[الأحزاب: 57] وأيُّ أذى أعظم من أن يتليك ببلاء عند غفلتك عنه أو عن مقامٍ إلهي لا تعلمه لترجع إليه بالشكوى، فيرفعه عنك فيصح الافتقار الذي هو حقيقتك، فيرتفع عن الحق الأذى بسؤالك إياه في رفعه عنك إذ أنت صورته الظاهرة⁽¹⁾.

فهل سمعتم - معاشر العقلاء - بمثل هذا الكلام في تجهيل الأنبياء، في أنَّ الضُّرَّ إذا انكشف عن المبتلى إنما ينكشف عن الحق؟ فافهم من هاهنا!

أما ما قاله في الكلمة اليعقوبية (فقد علمت من يلتذ ومن يتألم)، يريد بالملتذ والمتألم الربَّ المنزَّه، تعالى عن الالتذاذ والتألم، وبالله المستعان.

وقال في الكلمة الإلياسية: (فإنَّ العقل إذا تجرد لنفسه من حيث أخذه العلوم عن نظره، كانت معرفته بالله على التَّنْزِيهِ لا على التشبيه، وإذا أعطاه الله المعرفة بالتجلي كملت معرفته بالله، فنزَّهه في مَوْضِعٍ، وشبَّهه في موضع، ورأى سريان الحق في الصور الطبيعية والعنصرية، وما بقيت له صورة إلا ويرى عين الحق عينها، وهذه المعرفة التامة التي جاءت بها الشرائع المنزلة من عند الله، وحكمت هذه المعرفة الأوهام كلها، ولذلك كانت الأوهام أقوى سلطاناً من العقول في هذه النشأة)⁽²⁾.

وقال في الكلمة الهارونية: (فكان موسى أعلم بالأمر من هارون لأنه عَلِمَ ما عبده أصحاب العجل لِعَلْمِهِ بأن الله قد قضى أن لا يعبدوا إلا إياه، وما حَكَمَ الله بشيء إلا وقع، فكان عَثْبُ موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره، وعدم اتِّساعه، فإنَّ العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه

(1) الفصوص: 174

(2) الفصوص: 181

عين كل شيء، فكان موسى يُرَبِّي هارون تربيةً عِلْمٍ، وإن كان موسى أصغر منه في السن⁽¹⁾.

وقال في الكلمة الموسوية: (فقال له ﴿ قَالَ لِيْنِ اَتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنْ اَلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: 29] والسين في (السجن) من حروف الزوائد أي لأَسْتُرَنَّكَ، فإنك أجبت بما أيدتني به أن أقول لك مثل هذا القول. فإن قلت لي: فقد جهلت يا فرعون بوعيدك إياي، والعين واحدة، فكيف فرقت؟ فيقول فرعون: إنما فرقت المراتب العين، ما تفرقت العين ولا انقسمت في ذاتها، ومزبتي الآن التَّحَكُّمُ فيك يا موسى بالفعل، وأنا أنت بالعين، وغيرك بالرتبة، فلما فهم ذلك موسى منه أعطاه حقه في كونه يقول له لا تقدر على ذلك. والرتبة تشهد له بالقدرة عليه وإظهار الأثر فيه، لأن الحق في رتبة فرعون من الصورة الظاهرة لها التحكم على الرتبة التي كان فيها ظهور موسى في ذلك المجلس...) ⁽²⁾، وخرافات يكاذ العاقل يضحك منها، لكنه يبكي من نسبة الأنبياء - صلوات الله عليهم - إلى مثل هذه الخرافات، وأنهم كانوا على مذهبه، يتكلمون باصطلاحه من وحدة الوجود:

(يقول موسى لفرعون: العين واحدة فكيف فرقت؟

(فيقول فرعون: إنما فرقت المراتب، العين ما تفرقت ولا انقسمت في ذاتها!!). وهذا أيضاً يدل على أن فرعون - على زعمه - كان عارفاً موحداً يتكلم بلسانه ومعتقده حيث كان الحق في رتبته كما ذكره هؤلاء، فالإله الشكوى، وبه المستعان.

وقال في الكلمة المحمدية: (فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم

(1) الفصوص: 192

(2) الفصوص: 209

وصلة من النكاح، ولهذا تَغُمُّ الشهوة أجزاءه كلها، ولذلك أُمِرَ بالاغتسال منه، فعَمَّت الطهارة كما عَمَّ الفناء فيها عند حصول الشهوة، فإن الحق غيورٌ على عبده أن يعتقد أنه يَلْتَذُّ بغيره، فطَهَّرَهُ بِالْغُسْلِ لِيَرْجِعَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ فَيَمُنَ فَنِي فِيهِ، إذ لا يكون إلا ذلك.

فإذا شاهد الرجلُ الحقَّ في المرأة كان شهوداً في مُنْفَعِلٍ، وإذا شاهده في نفسه - من حيث ظهور المرأة عنه - شاهده في فاعلٍ، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تَكُونُ عنه كان شهوده في منفعلٍ عن الحق بلا واسطة فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعلٌ منفعلٌ، ومن نفسه من حيث هو منفعلٌ خاصة، فلهذا أَحَبَّ الرسول ﷺ النساءَ لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا يشاهد الحق مجرداً عن المواد أبداً.⁽¹⁾

فانظروا - رحمكم الله - إلى هذه الخرافات التي لا حقيقة لها، إنما حاصلها وَهْمٌ وَخِيَالٌ، وَالْوَهْمُ عنده أعلى من العقل، كما نُتِبَ عليه فيما تقدم، فَمَنْ هذا كلامه، وهذه عبارته هل يَحِلُّ لمسلم أن يَعتقد فيه، أو في ولايته، أو يُطالع كلامه عن اعتقادٍ؟ اللهم إلا عن استبصار لشبهة، بل على كل مسلمٍ يفهم عنه أن يُحذِرَ المسلمين من الوقوع في مَزَلَاتِهِ، ويَحْجُزَ بينهم وبين التردّي في آباره ومهالكه، فكم قد أَهْلَكَ هَؤُلَاءِ مِنْ طَالِبٍ أَقَامُوا فِي ذَهْنِهِ هَذِهِ الْخَيَالَاتِ الْفَاسِدَةَ، الَّتِي تَخْرُجُ بِصَاحِبِهَا عَنِ الْإِيمَانِ، وَتُثْمِرُ عَنِ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ، ثُمَّ مَاتُوا وَلَقُوا اللَّهَ عَلَى هَذِهِ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ وَالتَّوَهُّمَاتِ الْبَاطِلَةِ. فَزَقُوا الرُّبُوبِيَّةَ وَمَزَقُوهَا كُلَّ مَزَقٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾

[المائدة 17] هذا في شخصٍ واحدٍ حَكَمَ بكفرهم وحققهم به حيث قالوا: إنه الله، فما ظنُّكَ فيمن يجعل جميع الموجودات الله، وأن وجودها عينُ وجودِهِ؟! فهؤلاء كفروا بالله عدَدَ كُلِّ شيءٍ!!.

ونحن نقول: سبحان الله عدَدَ كُلِّ شيءٍ، وفيما ذُكِرَ من كلامه تَنْبِيْهُ على مُرادِهِ وسوء عقيدته، وفي بعض ذلك كفاية لمن رامَ التفقه في إلحاده، وبالله المستعان، وعليه التُّكْلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والْحَمْدُ لِلّهِ وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وحسبنا الله ونعم الوكيل.⁽¹⁾

(1) كتب الناسخ في الحاشية: بلغ مقابلة.

لَوَامِعُ الاسْتِرْشَادِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِتِّحَادِ

أَلْفَهُ النَّاصِحُ لِإِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَمُومًا، وَلِطَائِفَةٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَالْفُقَرَاءِ خُصُوصًا.
فَتَحَّ اللَّهُ بِهَا صَمَمَ الْأَسْمَاعِ، وَنَوَّرَ بِهَا الْبَصَائِرَ وَالْأَبْصَارَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَالْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ، وَالْمَوَاهِبِ الْجَسَامِ، وَالْمَنْحِ الْعِظَامِ، الَّذِي اصْطَفَى مِنْ عِبَادِهِ ضَنَائِنَ لُقُوبِهِ، وَاخْتَصَّ لَوْلَايَتِهِ أَبْرَاراً يَشْرَبُونَ مِنْ خَالِصِ مَحَبَّتِهِ بِكَأْسِهِ، فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ الْمَعَارِفِ وَالْوُجْدَانِ، فَعَابُوا بِوُجُودِهِ عَنْ الْأَكْوَانِ، مَحَا بِظُهُورِ حَقِيقَتِهِ عَلَيْهِمْ رُسُومَهُمْ، وَاصْطَلَمَ بِصِفَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بَقَايَاهُمْ مِنْ نَفُوسِهِمْ، فَطَهَّرَهُمْ عَمَّا سِوَاهِ، وَنَقَّاهُمْ، وَتَوَلَّاهُمْ بِرِعَايَتِهِ، وَأَغْنَاهُمْ. وَصَلَوَاتُهُ عَلَى يَنْبُوعِ الْهَدْيِ، وَوَاسِطَةِ عِقْدِ لَأَلَى الْوَرَى، نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، وَكَاشِفِ الْغُمَّةِ، الَّذِي فَتَحَ بِيَعْتِهِ طَرِيقَ السَّيْرِ إِلَيْهِ، وَأَنَارَ بِهِ سَبِيلَ الرِّشَادِ، دَلَالَةَ لِلْخَلْقِ عَلَيْهِ وَإِلَيْهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الْمُصْطَفَيْنِ، وَأَصْحَابِهِ الْمُنْتَخِبِينَ، صَلَاةً دَائِمَةً بِدَوَامِهِ، بَاقِيَةً عَلَى مَرِّ لَيَالِيهِ وَأَيَّامِهِ، وَبَعْدُ:

فَإِيهَا النَّازِرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ مِمَّنْ فَتَحَ فَطْنَتَهُ لِفَهْمِ الْحَقَائِقِ، وَكَشَفَ لَهُ مِنْ خَفِيَّاتِ الدَّقَائِقِ، تَأَمَّلْ بِعَقْلِكَ هَذَا الْكِتَابَ، وَانْظُرْ فِيهِ بِنُورِ اللَّهِ، وَافْتَقِرْ بِسِرِّكَ إِلَى اللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ عِبَاداً فَتَحَ لَهُمْ فِي الْغُيُوبِ، فَوَصَلُوا مِنْ مَعْرِفَتِهِ إِلَى كُلِّ مَرْغُوبٍ. كَشَفَ لِبَصَائِرِهِمُ الْجَلُوءَةَ عَنْ صَدَأِ الشَّهَوَاتِ، وَغُبَارِ التَّبَعَاتِ، مِنْ لَطَائِفِ أَفْعَالِهِ، وَمَقْدِمَاتِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحَقَائِقِ أَنْوَارِ ذَاتِهِ، مَا تَعَجَّرُ عَنْ صِفَتِهِ الْعِبَارَةُ، وَتَقْصُرُ دُونَ شَرْحِهِ الْإِشَارَةُ، وَكَيْفَ لَا، وَقَدْ اضْمَحَلَّ وَجُودُهُمْ فِي وَجُودِهِ، وَانْمَحَتْ آثَارُ نَبَاتِهِمْ فِي إِشْرَاقَاتِ أَنْوَارِهِ وَظُهُورِهِ. صَارَتْ مِنْهُمْ الْقُلُوبُ عَرْشِيَّةً، وَالْأَرْوَاحُ غُلُوبِيَّةً، وَالنَّفُوسُ رُوحَانِيَّةً. أَشْكَرُهُمْ بِهِ عَنْ مَلَا حِظَاتِ وَجُودِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ فِي حَضْرَةِ قَيُومِيَّتِهِ عَنْ مَشْرَكَاتِ إِرَادَاتِهِمْ، فَصَارُوا بِاللَّهِ، وَاللَّهُ، وَمَعَ اللَّهِ فِي تَصَارِيْفِهِمْ وَأُمُورِهِمْ. ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ أَنْوَارُ الرُّبُوبِيَّةِ، فَتَحَقَّقُوا بِالْإِنْطِبَاعِ فِي قَوَالِبِ الْعِبُودِيَّةِ. خَرَجُوا عَنْ ذَوْقِ نَفُوسِهِمْ، إِلَى رِقِّ مَوْلَاهُمْ بِالْكَلِيَّةِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 74] فَلَا تَسْتَغْطِمُ ذَلِكَ وَلَا تَنْكَرُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَوَاهِبَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَعْلَى مِنْ أَنْ يَعْقِلَهَا الْعُقْلَاءُ، وَكَرَامَاتُهُ الْفَائِضَةُ عَلَى مَنْ أَحَبَّهُ وَاصْطَفَاهُ

فوق ما يتوهمه الألباء. سقاهم شراباً من حُبِّه، وكساهم لبسةً من نوره، فتحققوا بالحياة الأبدية، والسعادة السرمدية، جعلنا الله من المتحققين بمحبتهم، المقتفين آثارهم في محبتهم، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

وهذا الخطاب للعقلاء والألباء، الذين ليسوا بأهل الأهواء، الملاحظين بأهوائهم الزكية، إلى الحقائق الصحيحة المعنوية. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7] وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] والغرض منك أيها الأخ الصادق الفطن العاقل الذكي الراجح أن تخرج فيما تخاطب به عن جمود التقليد، وتزيع عن صدرك التعصب والتقليد، فإنهما يستران وجه الحق، ويغدلان بمتبعهما عن محجة الصدق.

وصاحب الهوى لا يبصر غير ما هو فيه، لما قد استولى على قلبه منه، فهو يعانيه، فإذا أزاح المرء الهوى عن قلبه، وافتقر إلى الله بسرّه، ولجأ إليه بخالص الافتقار والدعاء، وسأل بكرمه أن يبين له طريق الحق والاهتداء، استعدّ بهذا الالتجاء، لينزل الهدى على قلبه من السماء، وكشف ما استُبهِم عليه من العمياء والخفاء، فإذا وفقت لذلك وفعلته فاعلم أن الله تعالى بعث الأنبياء مبشرين ومنذرين، دعاةً إليه بإذنه وهادين، ليخرجوا التائهيين عن المحجة من ظلمات الخيرة إلى النور، ويرشدوهم إلى طريق سعاداتهم، ليفوزوا بالحبور، يوم العرض والنشور، وكان أكملهم محمد ﷺ الذي بعثه الله إلى الخلق بشيراً ونذيراً، وهادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ليبين للناس ما نزل إليهم لعلهم يحذرون.

أرسله الله رحمةً للعالمين، شفاءً لما في الصدور، وهدى ورحمةً للمؤمنين ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] وذلك حين اتخذ الكفار من دون الله أنداداً من الشركاء والأمثال، والأشياء والأشكال. عبدوا من دونه الأصنام والأحجار والكواكب والأشجار، وما ضاهاها من المعبودات الحقار.

أشركوا بالله في عبادته غيره من جمادات مخلوقاته، وأموات مبتدعاته، التي لا تسمع ولا تبصر، ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ [الحج: 73/74]، فهداهم الله بمحمد ﷺ، وتعزف إليهم بنفسه، وكشف لهم في الغيب عن وجهه الكريم - سبحانه - ليعرفوه فيعبدوه فيستعينوه، وأخبرهم بصفاته التامات، ونعوته المقدسة الكاملات، فأكمل لهم بذلك دينهم، وأتم عليهم نعمته في تعليمه إياهم شرائع أديانهم، وعقائد قلوبهم ومعارفهم، ليتوصلوا بما علمهم إلى سني الأحوال، في قوالب الصدق في الأعمال، فيكشف لهم بذلك صريح العرفان، وحقائق الإيمان، فيحمل لهم بذلك مرادهم منهم في الأعمال والأحوال، وذلك هو غاية الكمال في الحال والمآل، وقد قال الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

هذه المقدمة متفق عليها، حُكْمُهَا ظَاهِرٌ، وبرهانها لائحٌ، فهدى الله بهذا النبي أُمَّتَهُ الْجَاهِلَةَ الْعَمِيَاءَ، حين كانوا جفاة لا يعلمون حقاً، ولا يهتدون طريقاً، وانتدب منهم من كَمُلَ استعدادُه، وعلا قصده ومراده، إلى التحقق بحقائق الشريعة، والوصول إلى معالي مقامات الحقيقة، فبرز في عصره ﷺ سادات الناس وأفاضلهم، وخير الناس بعد نبيهم كأبي بكر وعمر، وبقية العشرة، ومن حَذَا حَدَوَهُمْ، وسار في نهجهم، كأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وأبي الدرداء، وسلمان، وغيرهم، ممن انتشر فضلهم، واشتهر بالمعرفة وصفهم.

بَلَّغُوا مِنْ حَقَائِقِ الشَّرِيعَةِ، ودقائق المعرفة، ما لم يبلغه غيرهم، وتحققوا من حقائق المحبة والمواجيد، ما لم يرتق إليها من بعدهم، وكيف يجهل العاقل ذلك وقد شربوا من كأس الرسول، وارتضعوا من لبنه، واقتبسوا من نوره، وامتلؤوا من مواجيده. يعلم العقلاء بالضرورة أنهم كانوا أعمق الناس علوماً، وأعلى الخلق أحوالاً، وأحق الناس بالمعرفة تحقّقاً، وأكثر الناس بالأحوال تقمُّصاً من الزهد والتوكل، والرضا والحب، والشوق والفناء والبقاء، لكنهم لقوة إيمانهم، وعلو

مراتبهم لم يظهر عليهم آثار السكارى بالأحوال، بل قوّوا بنور النبوة حتى صرفوا الأحوال في الأعمال، فجاهدوا في سبيل الله بالشمر الطّوال، وذلك هو غاية الكمال، ولا تعجب، العجب من صاح سكران، فإنّ الموهبة الإلهية، الفائضة على الشّماثل المحمدية، السارية فيه إلى خواص أصحابه أعطتهم القوة والتمكين، والفرق في الجمع، والصّحوة في السكر. يُعلم ذلك ضرورة من لوائح أحوالهم، ودقائق كلماتهم، وقوتهم في ذات الله، وجهادهم لأعداء الله، وخالص محبتهم لله، فلا يُقاس بأحوالهم أحوال غيرهم، ممن باح بوجده، وباح بسرّه، وضاق عن كتمان مواجيدّه، حتى غنى وطرب، وعربد حين شرب، وقد سُقي قطرة من كؤوس الصحابة، فأظهر النّشوة والكآبة، فصلى الله على ينبوع الهدى والحقائق، وعين معينها، ورضي الله عن الصحابة البررة الكرام، وأرضاهم، وألحقنا بهم، ولا عدل بنا عن طريقهم، وعصمنا من الزيغ عن سبيلهم ونهجهم، إنه الجواد الكريم.

وكان من قضاء الله وقدره ؛ أن خلقت من بعدهم خلوف، عموم وخصوص، فالعموم أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات، والخصوص منهم من أضاعوا الأصول، وجنحوا إلى الفضول، فأنحرفت لذلك النتائج، وكلما تطاول الزمان نقصت الأعمال، وضعفت الأحوال، حتى آل الأمر إلى فساد العقائد، والضلال في المصادر والموارد، حتى حدث في الستمئة قوم تمادى بهم الأمر في إضاعة الأصول، والانحراف عن السلوك والوصول، فظهروا إلى الحقائق بغريب من الكلام، في إشارات دقيقة، وعبارات عميقة، لا تهتدي العقول إليها إلا بعد تكلف، ولا تفقهها القلوب إلا بعد تفرق وتألف.

والقلوب تحب علم ما لا تعرفه، وتستحلي حل ما تستشكله، فطارت تلك الترهات في البلدان، وانحل بها كثير من أهل الملل والأديان، حاصلها المبالغة في التوحيد، حتى وصفوا الكائنات بوحدة الوجود، فصاروا بذلك في طرف يُقابل الطرف الذي مال إليه المشركون، الذين بُعث إليهم

رسولُ الله ﷺ، فإنهم بالغوا في الشرك بالله حتى اتخذوا الأندادَ من دونِ الله، وهؤلاء بالغوا في التوحيد حتى جعلوا ما اتخذَه المشركون من دونِ الله، بل جميع الأكوان مظهراً ظهرَ الحقُّ فيها بحقيقته، وتجلَّى بوجوده وآيته⁽¹⁾ فوقعوا في حقيقة الإشراك. أشركوا بالله مع كلِّ شيءٍ، حيثُ جعلوه عينَ كلِّ شيءٍ، فهو سبحانه - على زعمهم الكاذبِ وتحريفهم الباطلِ - عينُ هذا الوجودِ، لا وجودَ لشيءٍ سواه، وكلُّ شيءٍ من الكائناتِ على زعمهم لا وجودَ له، وإنما الوجودُ للحقِّ، فعينُ وجودِ خالقِ الأشياءِ - على زعمهم - هو عينُ وجودِ الأشياءِ المخلوقاتِ - تعالى الله عما يقوله الظالمون، وتنزهه الله عما يتحلَّه المبطلون - فانظر رحمك الله إلى ثلاثة أشياء: كيف كان الدينُ منحرفاً أولاً، في زمانِ الجاهليةِ الجاهلاءِ، وكيف قوِّمَ الإسلامُ ذلك، حتى وحدوا الله بما وحد به نفسه، وأخلصوا العبادةَ له، حتى لم يتخذوا له نداً؟ وكيف آل الأمرُ إلى هذا الانحرافِ في الآخر، حتى خرجَ إلى هذه الغاية المذكورة؟ بحيثُ صارَ ذلك طرفاً أقصى، وهذا طرفاً أقصى؟ والحقُّ واضحٌ لائحٌ بينهما، فمن رزقه الله تعالى فهماً وعقلاً وفطرةً سليمةً، وذكاءً صحيحاً، وقلباً أشرقَ فيه نورُ الإيمانِ، ونظرَ إلى الأمرِ في ابتدائه، ثم في توسُّطه، ثم في انتهائه، وعلمَ الانحرافَ أولاً، والاستقامةَ وسطاً، والانحلالَ آخراً.

كُلُّ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ ﷺ: (لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُوَ الْقَدَةِ بِالْقَدَةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟). كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ اتَّخَذُوا غُزِيرًا ابْنَ اللَّهِ، وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ وَقَعَ فِيهَا مَا لَمْ يَبْلُغْنَا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، مِنْ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَهًا هُوَ عَيْنُ اللَّهِ، حَتَّى إِنْ نَفَسَهُمْ تَحَدَّثُوا أَنَّ حَقِيقَةَ أَحَدِهِمْ هُوَ اللَّهُ.

وكان هذا الحدثُ في رأسِ الستمئة، بقواعدٍ يقررونها، وطاماتٍ يزخرفونها، إذا تأملها العاقلُ الفطنُ وجدَّهم يحرفون الكلمَ عن مواضعه، فيجعلون ما ذمَّ الله [به] الكفارَ مدحاً باعتبار، ويجعلون النارَ جنةً باعتبار، والعذابَ عذوبةً باعتبار، ويجعلون

(1) كذا ولعلها: ذاتيته.

اللعنة والغضب قرباً باعتبار، وما حلّ بالكفار من الدمار والهلاك وصولاً باعتبار، وكلُّ ذلك أن عين وجود جميع المخلوقات هو عين وجود الخالق، وجودها ووجوده واحد. يقلبون حقائق المعاني، ويحرفون الكلم عن مواضعه، كما حرقته الباطنية والقرامطة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ووجدنا الغالب على مُسلمي مذهبهم إما ناقص العقل، محبط الخيال، أو عاقلاً فطناً لبياً يحب الانسلاخ عن ثقل الشرائع بالانحلال ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

واعلم أيها الأخ الفطن اللبيب العاقل المسترشد، الذي يطلب الحق ويتحله، فتح الله سمع قلبك وبصره وأراك الله وإيانا الحق حقاً، وأعانك على اتباعه، وأراك وإيانا الباطل باطلاً ووفقنا جميعاً لاجتنابه: أن هذه الطامات التي يذكرونها إنما تزوج على غير جاهل بعظم التوحيد - بحسن الظن منه - ويشتاقي إلى الحقائق ولم يذق منها شيئاً، ولم يباشر قلبه من صفوها ذوقاً. يُعظم هذا الفن، وينظر إليه من مكان بعيد، فيحبه ويتغضب لأهله، ويروج عنده ما يزخرفونه، لقصوره عن دراك الحقائق، وأما من فتح الله قلبه لمشاهدة أنوار القيومية، والآخ لسره نصيباً من توحيده، وخالص تفريده، بأول بارقة من ذلك يعرف خفايا انحراف ما يشيرون إليه، وينادون بزخرف القول عليه، فإن كنت أيها الأخ تشتاقي إلى شيء من تلك الحقائق الإيمانية، والأذواق العرفانية، فاجعل نفسك كأنك في زمن الجاهلية، وارحل إلى رسول الله ﷺ، لتلقاه فتؤمن به، وتسلم على يديه، ورحلثك إليه ولقاؤك إياه، مطالعتك سيرته، وما ورد عنه من سيرته وسنته، وسيرة أصحابه وخاصته، ثم تأمل كتاب الله وافهمه عن الله، يُسمعك ما يعرف إليك به من أسمائه وصفاته الواردة في التنزيل على خير الخلق، وعلى أصحابه الذين هم صفوة هذه الأمة، وكل من جاء بعدهم، فمن بقايا رضاعهم يرضعون، وعليهم في الحقائق يتطفلون. كان لهم شراب

يشربونه، وبقيت منه قطرات تلمّظ بها مَنْ بعدهم، لا تُشكّ في هذا، فتكون من المكابرين للعلم الضروري، القائم في ذهن كلّ مبصرٍ واصلٍ لبيبٍ عاقلٍ، فإنك إذا وُقِّتَ وفعلت ذلك، واهتديت بهدي الله، فَتَحَ اللهُ بين قلبك وبين معرفته طاقةً تذوق منها نصيباً من خالص توحيده، وصادق تفريده، ويُقدِّف في قلبك منها نصيب من توحيد سلفك، أصحاب نبيك، تُغنيك عن بقاياك وكدوراتك، فتبقى حينئذ بالله، به تسمع، وبه تبصر، وبه تنطق، ويبقى الحقُّ مشهودك في كلّ حال، وفي كل موطن يتولاك برعايته، فلا ترى غير فعله، ولا يسكن قلبك غير نوره، ولا تبتهج إلا بأذواق صفاته، وأنت في حضرة النبي ﷺ، لا تفارقه، وبين أصحابه، تمذك أنفاسهم، وإن كانوا أمواتاً، فهم في الحقيقة عند الله - لِمَنْ فُتِحَ قلبه لهاديتهم - أحياء، فحينئذ تعلم أن هؤلاء المغرورين لم يعرفوا الله من تلك الطاقة المحمدية، التي عرفها، ولا ساروا إليه منها، إلا بما حدّثتهم نفوسهم، وقام في خيالاتهم وأذهانهم، الذي هو نتيجة العقل الفاسد، أو طلب الانحلال من ثقل الشرائع والعقائد، من وُحْدَةِ الوجود وجعلهم الوجود واحداً، وقود هذه المقالة أن يكون وجود الأشياء هو عين وجود خالقها فاض وجود خالقها عليها فأكسبها وجوداً منه، فوجودها هو عين وجوده، ومن فهمه الله هذه المخركة، وحقّق له فهم حقيقة هذه الخزعبلّة، وعرف ما يشيرون إليه من مراتب الكثرة، وما يشيرون إليه من مرتبة الوُحْدَةِ، وكيف يسوقون الأشياء بزخرف القول، من مراتب الكثرة إلى مرتبة الوُحْدَةِ حتى يردّونها إلى عين الجمع، ويجعلون معنى عين الجمع - هو - مشاهدة كون الحق عين الأشياء، عرف أن هذه الطامات [لن] تلبس على غير، حيث تجدّهم يشيرون إلى عين الجمع، وقد أشار محققو الصوفية إلى عين الجمع ووجد هؤلاء يشيرون إلى أن الحق هو عين الأشياء، وفي عقائد المسلمين أن الأشياء لا تقوم بذواتها إنما تقوم بالله، فيتوهم المتوهم أن مقصودهم بقولهم: إن الحق هو عين الأشياء ما يقوله المسلمون من كون الأشياء لا [تقوم] إلا بالله⁽¹⁾، وما ذاك إلا لاستعمالهم عبارات صوفية أهل

(1) في السطرين سقط وتصحيف.

الإسلام. وَمَنْ حَقَّقَ عِلْمَ الْمَذْهَبَيْنِ عَرَفَ الطَّرِيقَيْنِ، وَعَرَفَ مَاخِذَ الْفَرِيقَيْنِ.
والمقصود أن يقفَ فهْمُكَ على تحقيق انحرافهم في طَرَفٍ يقابل الطرف الذي
انحرف به المشركون، كما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، فإذا تَبَيَّنَ ذلكَ عندَكَ، عرفتَ أن طريقةَ الحقِّ
هي الطريقةُ الوسطى، بين مَنْ جَعَلَ لِلَّهِ شريكاً وأنداداً، من الأحجار، والأشجار،
وبين مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ حتَّى جَعَلَ عَيْنَ وجودِ الأحجارِ والأشجارِ - هو - عَيْنَ وجودِ
الحقِّ.

وطريقةُ أهلِ الحقِّ أن يطلبَ معرفةَ اللَّهِ من حيثَ تعرَّفَ به إلى عبادِهِ، من كتابِهِ
وسُنَّةِ رسوله، مَنْ ذَكَرَ أسمائِهِ وصفاتِهِ، وبدائعِ أفعاله وعَظَمَةِ ذاتِهِ، ومن كونه ذاتاً
منفرداً بنفسه، له وجودٌ قديمٌ يُمَيِّزُهُ به عن غيره من الموجوداتِ، وله حقيقةٌ يُمَيِّزُهَا
عن غيره، وهو سبحانه فوق سبع سمواته على عَرْشِهِ، وجميعُ خلقه لهم وجودٌ
محدثٌ مخلوقٌ في مُلكِهِ وقبضَتِهِ، قائمون بقدرتِهِ، يتحركون بمشيئَتِهِ، ويبطشون
بإرادتِهِ.

هكذا تعرَّفَ اللَّهُ إلينا في كتابِهِ المنزل [و] ⁽¹⁾ على لسانِ رسوله المرسل إلينا.
يجبُ علينا - معشرَ العقلاء - ألا نتجاوزَ التوحيدَ الذي شرَّعه لنا، ولا نطلبَ
المعرفةَ إلا من الطريقِ التي فتحها لنا، ولا نُشرِّه في طلبِ التوحيدِ، فتتخذَ كُلُّ شيءٍ
إلهاً مبالغاً في توحيدِهِ، فنجعلهُ عَيْنَ كُلِّ شيءٍ باعتبارِ ألا وجودَ إلا له، فنقعَ في
الانحلالِ والتهاونِ بفرائضِ الحرامِ والحلالِ، ونخرقَ بذلكَ سياجَ الشريعةِ، ونتعدى
هدي من سَبَقْنَا من أصحابِ نبينا، وشيوخِ طائفتينا: كسهلِ والجنيدِ والسَّري
وعمر بنِ عثمانَ وأبي سعيدِ الخرازِ وابنِ عطاءٍ وطبقاتِهِم، فنبتدعَ في دينِ اللَّهِ ما لم
يأذنْ به اللَّهُ، فنزيعَ بذلكَ ونُضِلَّ ضلالاً بعيداً، ونبتعدَ عن المطلوبِ والمأمولِ، من
حيثُ نَوَقِلُ الوصولَ، وهذا المذهبُ فيما علمنا منه ؛ أنه ما من مسلمٍ أو يهوديٍّ أو

(1) هذه الواو زيادة مني أكبر الظن أنها سهو قلم الناسخ، وبغيرها يحتمل المعنى أمراً فاسداً من
مذهب المتكلمين.

نصرانيّ أو رافضيّ دخل فيه إلا انحَلَّ من دينه انحلالاً كبيراً، واستراح من ثَقَلِ التكاليفِ ظاهراً، وإن أقامها بظاهره فهو مستريحٌ منها باطناً، فإنه يجدُ الإله هو الكلّ، فَمَنِ العابدُ؟ ومن المعبودُ؟ ومن الشاهدُ؟ ومن المشهودُ؟ كما قال قائلهم:

جمالُكَ في كلِّ الحقائقِ سافرٌ وليس له إلا جلالُكَ سائرٌ

تَجَلَّيْتَ للأَكْوَانِ خَلْفَ ستورها فَنَمَّتْ بما ضَمَّتْ عليه الستائرُ

ونرجو - إن شاء الله - أن يكونَ في هذا القَدْرِ كفايةٌ وهدايةٌ لمن أرادَ الله تَبَصُّره وإرشاده، والعاقلُ الفطنُ يستدلُّ بالقليلِ على الكثيرِ، وبالأواخرِ على الأوائلِ، وبالغاياتِ على المبادئِ.

ونسألُ الله الكريمَ أن يهدينا سبيلَ السلام، ويخرجنا من الظلماتِ إلى النورِ، ويهدينا إلى الفرقِ بين التوحيدِ والإِتِّحادِ، إنه قريبٌ مجيبٌ، والْحَمْدُ لله وحده، وصَلَّى الله على سيدنا محمدٍ، وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

رسالته إلى الشيخ أحمد المغربي^١

«وهي رسالة يُستفادُ منها معرفةُ مشاهدِ الصِّفاتِ، وإثباتُها لله تعالى، بلا تمثيلٍ ولا تعطيلٍ، ومعرفةُ الاتحادِ والحُلُولِ، وتفصيلُ شأنه في تَرْهَاتِ ابنِ عَرَبِيٍّ، وذَمِّهِ ومَقَالَتِهِ، ومعرفةُ المَشَاهِدِ الذَّوقِيَّةِ وتفصيلِ شأنها»⁽¹⁾.

(1) يحتمل أن يكون من كلام الناسخ.

نص رسالة المغربي⁽¹⁾ إلى الواسطي:

يُقْبَلُ يَدَ سَيِّدِي وَسَيِّدِي، الْعَالَمِ الْعَامِلِ، أُمْتُعَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِحَيَاتِهِ، وَنَفَعَهُمْ بِصَالِحِ دَعَائِهِ، وَفِيضِ أَفَانِينَ بَرَكَاتِهِ، وَيُنْهِيَ وَزُودَ مَا تَصَدَّقَتْ بِهِ الْآرَاءُ الْعَالِيَةُ، مِنْ ذِكْرِهَا لِلْإِعْتِقَادِ الصَّحِيحِ، الَّذِي مَلَأَ بِهِ الْقُلُوبَ نُورًا، وَشَرَحَ بِذِكْرِهِ ضُجُورًا، وَاللَّهُ دَرُّهُ مَا أَحْسَنَ إِتْيَانَهُ بِذَلِكَ الْبَيَانِ، بَعْدَ تَأْسِيسِ تِلْكَ الْقَوَاعِدِ الْمَقَرَّرَةِ، وَتَفْصِيلِهِ لَتِلْكَ الْمَقَاعِدِ الْمَشْرُفَةِ. هِيَ الْقَوَاعِدُ الَّتِي لَا يَبْنَى الذِّكْرُ إِلَّا عَلَى أَاسَاسِهَا، وَلَا يَتَّبَثُ إِلَّا عَلَى أَرْكَانِهَا، إِذِ الذِّكْرُ الْمَجْرَدُ لَا جَدْوَى لَهُ، وَمَتَى تَطَرَّزَ ذِكْرُ الذَّاكِرِ بِنُورِهَا، وَعَلَتْ أَشْعَتُهُ عَلَى سُورِهَا، فَجَعَلَ الذَّاكِرُ الرَّبَّ وَكَيْلَهُ، وَالْقُرْآنَ دَلِيلَهُ وَطَرِيقَهُ، وَالشُّنَّةَ مَذْهَبَهُ. لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَحَقَّقَ بِالْحَالِ الْجَمْعِيِّ، الَّذِي يَعْرِفُ بِهِ تَفَاصِيلَ أَحْوَالِهِ، وَمَوْطِنَ مَادَّتِهَا مِنْ صِفَاتِ الْحَقِّ وَأَفْعَالِهِ، فَإِذَا تَحَقَّقَ بِذَلِكَ بَدَأَ لَهُ عِلْمُ مَقَامِ الْإِحْسَانِ، الَّذِي يَكِلُ اللِّسَانُ عَنْ وَصْفِ وَارِدَاتِهِ، وَيَعْجِزُ عَنِ الْإِعْرَابِ لَشُعَاعَاتِ بَيِّنَاتِهِ، أَمَّا مِنْ مَشَاهِدَةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ بِاعْتِبَارِ تَجَرُّدِ الشُّهُودِ تَارَةً، وَهُوَ الْمَقَامُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ لِلْأَكَابِرِ خَاصَّةً، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﷺ: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، أَوْ مِنْ مَشَاهِدَةِ الرَّبِّ لِلْعَبْدِ، فَيَشْهَدُ الْعَبْدُ رَبَّهُ لِشُّهُودِ الرَّبِّ لَهُ، وَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الثَّانِي، وَهُوَ أَقْلُ خَطَرًا، وَأَهْوَنُ مَسْلَكًا، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وَهُوَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ أَبُو مَدْيَنٍ ﷺ بِقَوْلِهِ: «شَاهِدُهُ لِمَشَاهِدَتِهِ لَكَ، وَلَا تُشَاهِدُهُ لِمَشَاهِدَتِكَ لَهُ»، وَهَذَا هُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى مَنْزِلِ الْمِرَاقِبَةِ الْأُولَى الَّذِي نَشَأَ مَقَامُ الْإِحْسَانِ وَالشُّهُودِ كَمَا

(1) لم أقف للمغربي على ترجمة. ولكن قال السخاوي في كتابه (القول المنبي في ترجمة ابن عربي) عند كلامه على ردود الواسطي على ابن عربي: «رأيت منها بخط التقي المقرئ (أشعة النصوص) وآخر من الاثنين، وكان عند بعض أصحابنا ممن يتعذر علي الآن الوصول إليه، لكن قرأت في خاتمة (الغيث العارض) لابن أبي حجلة أن الشهاب أحمد المغربي المرابط بنغر طرابلس، كتب إلى العماد المذكور في رسالة ما نُصِّهُ...» (تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي) ص 153، و(القول المنبي عن ترجمة ابن عربي)، مخطوطة جامعة الإمام محمد بن سعود.

أحاطت به العلوم الشريفة تفاصيل بحسب اعتبار ما ينضم لمعنى الشهود من الأسماء المقدسة، والصفات العلية والأفعال، يضيئ الوقت عن إحصائها، جعلنا الله من المحققين به.

وأما ما قرّر سيدي في ذكر الألفاظ المتشابهة المقدسة، وحملها على ما سبق إلى الذهن مع ضميمته التنزيه عن التشبيه، فهو الحق الصريح والاعتقاد الصحيح، ولقد عرّف العبد فقيراً جود فكره وقتاً ما، بسبب ملاحظته اختلاف مذاهب الأمة في ابتغاء تأويلها، فمن طائفة حملتها على الحقيقة اللغوية، ومن طائفة على المجاز اللغوي المستعمل في القرآن العربي، وبكل نزل القرآن المطهر قال تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (١١٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ ١١٤ ﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ ١١٥ ﴾ [الشعراء: 193-195] ولحظ ذلك الفقير، كل طائفة تظهر النكر لما ارتضته الأخرى، فتحقق وجود التنازع حقاً، فأبدى الله - عز وجل - له قوله ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء 59] فأجال فكره فيما دل الظاهر عليه، فرأى (ذلك الفقير) أن رد ما تنوزع فيه إلى الله ورسوله أحق، سيما وقد قال تعالى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ مع قوله - عز وجل - ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾، وما بعد ما جعله الله خيراً خيراً منه، ولا أحسن تأويلاً.

ولما ردّ الفقير العلم بذلك إلى الله ورسوله، لاح له أن لا بُد من صورة علمية ينطوي القلب على الحكم بها، فأبدى الله تعالى له ما يعلمه الله ويرضاه لنفسه صفة، فعلم الفقير من اللفظ المتشابه المقدس ما يعلمه الله منه ويرضاه له صفة. وما يعلمه الله من ذلك ويرضاه صفة له هو الذي يعلمه الرسول ﷺ أيضاً، وإنما احتاج ذلك الفقير لضميمة قوله: «ويرضاه صفة له» لعموم قوله - عز وجل - ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وعلم الفقير ذلك من قوله ﷺ في الحكاية عن الله تعالى: (أنا جليس من ذكرني) أن الله جليسه عند ذكره له حقاً، ومعه حقاً بالجليسية التي يعلمها الله تعالى ويرضاها لنفسه المقدسة صفة، والمعية التي يعلمها أيضاً. وكذلك فوقية، هو فوق

كل شيءٍ بالفوقية التي يعلّمها ويرضاها صفةً له، إلى غير ذلك.

وأما ما ذكره سيدي من الإنكار عليّ لمطالعتي كُتُب العالم محيي الدين بن العربي، رحمه الله تعالى، وغيره، فلنْ تخلو تصانيفه من حق يزيد البصرة نوراً. وبنور التوفيق من الله - عزّ وجلّ - يفرّق بين الحقّ وضده، ومن أسلم وجهه إلى ربّه، وفوض أمره إليه، واتخذ الله وكيلاً، ورسوله دليلاً، وعلماء السنة منبهَةً ومُتأملًا مع قواعد الشريعة المطهرة مُعرضاً عما يخالفها، مستعيناً به، لم يسلك إلا على المحجة البيضاء بالله، والله، وإلى الله، وعن الله، قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦] ولم يخف عن العبد ما حرّك سيدي إلى ذلك، هو محض الشفقة، وخالص النصيحة.

أحسن الله إليه، وأفاض فنون إحسانه عليه، وجعلنا وإياه من عباده المحسنين بمحمد، وآله أجمعين^(١).

جواب الكتاب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، حمداً كثيراً كما يحبّه ربنا ويرضاه، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم ومن والاه، وبعد: فالكتاب الكريم، والتفضيل الجسيم، وردّ فأورد إلى القلوب مسرّة، وكان للعيون قرّة، وأبان عن فضيلة المتفّضل، وكرم أخلاقه وطيب أعراقه، وصحة مشاهدته وأفكاره، وإشراق قلبه في أنواره، فتعّين علينا حُبّه في الله ومُوالاته. وإنّ الله تعالى قد علّم من باطن هذه الضعيف، أنه كان محبّاً لكم قبل وُروُد كتابكم الكريم، فلما وردّ كان كما قيل:

(١): (بمحمد وآله) غير موجودة في (القول المنبي)، وهذا النحو من الدعاء لم يُنقل عن أعلم الناس به، أعني الصحابة رضي الله عنهم، ومن سار على طريقهم. قال الأمام أبو حنيفة وصاحبه - رحمهم الله تعالى - : يُكره أن يقول الداعي: أسألك بمقاعد العزّ من عرشك. شرح الطحاوية (297/1).

صَدَّقَ الْخُبْرُ الْخَبْرَ، فَإِنَّهُ إِذَا بَلَّغْنَا عَنْ أَخٍ لَنَا فِي اللَّهِ، فِي بَعْضِ الْأَقْطَارِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْأَذْكَارِ وَالْأَنْوَارِ، وَالْإِتِّبَاعِ الصَّحِيحِ لِلآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ، تَعْتَصِدُ بِهِ، وَتَجِدُ بُجُودَهُ أَنْسَاءً، وَتَتَأَلَّفُ قُلُوبُنَا بِهِ، وَإِنْ تَبَاعَدَتِ الْأَجْسَامُ.

وَقُلُوبُ أَهْلِ الطَّرِيقِ تَأْتَلِفُ خُصُوصاً فِي هَذَا الزَّمَانِ، الَّذِي قَلَّ فِيهِ الْأَعْوَانُ، وَكَثُرَ فِيهِ التَّخْبِيطُ فِي الطَّرَائِقِ وَالْأَذْهَانِ، ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣] وَالْأَصْحَابُ أَفْرَادٌ فِي زَوَايا الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا، قَابِضِينَ عَلَى أَدْيَانِهِمْ وَصَفَاءِ قُلُوبِهِمْ، مُحْتَالِينَ عَلَى نَجَاتِهِمْ وَانْفِرَادِهِمْ بِأَحْوَالِهِمْ وَأَذْوَاقِهِمْ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ بِكَرَمِهِ يَلْتُمُ الشُّتَاتَ، وَيَجْمَعُ بِرَحْمَتِهِ لِأَهْلِ وَدَادِهِ الْمُتَفَرِّقَاتِ.

وَمَا أَشَارَ بِهِ سَيِّدُنَا - أَعَادَ اللَّهُ مِنْ بَرَكَتِهِ - فِي ذِكْرِ أَهْلِ الْمَشَاهِدَةِ وَمَرَاتِبِهِمْ، فَمَا أَحْسَنَ مَا رَتَّبَهُمْ، وَبَيَّنَّ أَمْرَهُمْ، زَادَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ سَيِّدِي - أَعَادَ اللَّهُ بَرَكَتَهُ - فِي ذِكْرِ الْأَلْفَاظِ الْمُتَشَابِهَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَمِنْ أَنَّ قَوْماً حَمَلُوهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ اللَّغَوِيَّةِ، وَقَوْماً حَمَلُوهَا عَلَى الْمَجَازِ اللَّغَوِيِّ الْمُسْتَعْمَلِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَبُكِّلَ نَزَلَ الْقُرْآنُ إِلَى آخِرِ الْفَصْلِ، فَهُوَ كَلَامٌ حَسَنٌ، وَمَشْهُدٌ صَحِيحٌ، وَالْفَقِيرُ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ يُحِبُّ عَرْضَهُ عَلَى آرَائِكُمُ الْغَالِيَةِ.

كَمَا تَصَدَّقْتُمْ غَيْرُ خَافٍ عَنِ الْعُلُومِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بَشِيراً وَنَذِيراً، لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وَأَنَّهُ كَانَ يَصِفُ رَبَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، قَالَ لِلْجَارِيَةِ: (أَيْنَ اللَّهُ؟ فَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ)، فَأَقْرَأَهَا عَلَى ذَلِكَ، وَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦] وَجَاءَ عَنْهُ ﷺ فِي بَعْضِ أَدْعِيَّتِهِ: «رَبَّنَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ»، وَقَالَ تَعَالَى إِنْخِبَاراً عَنْ مَلَائِكَتِهِ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي الرُّوحِ: «حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ»، وَجَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ»، وَالشُّوَاهِدُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ عَلَى الْفُرُوقِ كَثِيرَةٌ، وَوَصَفَ رَبُّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ

بالاستواء، فقال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ووصف نفسه بغير ذلك من الصفات مثل قوله تعالى ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] ومثل قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِدَيِّ﴾ [ص: ٧٥] وغير ذلك.

وكان رسول الله ﷺ يحضر في مجلسه الذكي والبليد، والفقيه وغير الفقيه، وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ويعقلوه، ويتفكروا فيه ويعتقدوا موجهه، فلو أنه ﷺ أراد بهذه الصفات التي نطق بها خلاف ظاهرها اللاتقة بالله، أو قصد بها ضد حقيقتها، وهو مبين للناس ما نزل إليهم، لم يكن بد من أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقة ما قاله، وأنه أراد بذلك المجاز اللغوي في سياق الكلام أو عقيقته بكلام ظاهر يقتضي حقيقة المعنى إلى مجازه، لاسيما في الخطاب العلمي الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم دون عمل الجوارح، أمّا من ادعى أن هذا من المتشابه، الذي تركهم النبي ﷺ فيه متحيرين واقفين، حتى نشأ قوم في المائة الثالثة أو الرابعة، فبينوا هذا المتشابه، وصرفوه وجعلوه متشابهاً، وتأويله هو ما ادعوه من الاستيلاء، الذي أولوا به الاستيلاء، ومن يد القدرة والنعمة، التي أولوا بها اليد الثابتة لله كما يليق بجلاله.

فهؤلاء قد جعلوا الرسول ﷺ مُحْتَرّاً لَأَمَّتِهِ، لا مُبَيَّنّاً لهم، ثم الأمة الذين أخذوا ذلك عن رسول الله ﷺ كانوا أعمق الناس علوماً، وأنصحهم للأمة، وأبينهم للسنّة، فكيف يجوز أن يتكلم هو وأصحابه بكلام يريدون به خلاف ظاهره اللاتق بمن أضيف إليه؟! إلا وقد نصب هو ﷺ دليلاً يمنع من حمله على ظاهره، أمّا بأن يكون الدليل عقلياً ظاهراً، مثل قوله: ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد: أُوتِيتَ مِنْ جِنْسِ مَا تُؤْتَاهُ مِثْلُهَا، وكذلك قوله ﴿هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] يعلم المستمع أن الخالق لا يدخل في هذا العموم، أو سمعياً ظاهراً أيضاً من الدلالات في الكتاب والسنة التي يصرف بعض الظواهر، ألا ترى قوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ﴾ إلى قوله ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [المجادلة: ٧] سياق الآية يدل

على أَنَّ المعِيَّة هنا معِيَّةُ العِلْمِ، وقوله تعالى لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَتَمَّعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] سياق الآية يدلُّ على أَنَّ المعِيَّة هنا معِيَّةُ السَّمْعِ والبَصَرِ مع معِيَّةِ التَّوَلَّى. فما مِنْ معنى في الكتابِ والسنة يُرادُ فيه صرفُ الحقيقةِ إلى المجازِ، أو المجازِ إلى الحقيقةِ إلا ويُوجدُ هناك دليلٌ متصلٌ أو منفصل يدلُّ على صرفه [عن] ظاهره.

إذا قَرَّرَ ذلكَ، فلا ينبغي أَنْ تُسمَّى صفاتُ ربِّنا: المتشابهة، فإنَّ ذلكَ يُوهم بالتأويلِ أو التعطيلِ، لأننا إذا جَعَلْنَا الاستواءَ، أو الوجهَ الكريمَ، الذي يقوله ﷺ في بعض دعائه: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ لَوَجْهِكَ»، واليدَ التي قال تعالى فيها ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وعندَ أهلِ العربيةِ أَنَّ يَدَ النعمةِ والقدرةِ لا تُثنَّى، بل تُؤحَدُ وتُجمعُ، ولا تُثنَّى اليدُ إلا ما كان في الصِّفاتِ الذاتيةِ، فإذا جَعَلْنَا ذلكَ مُتَشَابِهًا، لا يشهدُ القلبُ فيه صورةً حقَّ يعتقدها، وأعرضَ عنها بقلبه، فقد استطرقَ بذلكَ إمَّا إلى التأويلِ أو التعطيلِ أو الوقوفِ، والكلُّ مذمومٌ، لا يحصلُ منه المقصودُ في إبلاغِ الرُّسولِ، فإنَّ المقصودَ إنّما هو الإيمانُ بها، وحصولُ العلمِ بمقتضاها على ما يليقُ بصفاتِ الربِّ تعالى، لا تشبيهَ ولا تعطيلَ، فتبرهنَ بذلكَ أَنَّ هذا الفنَّ لا يُسمى متشابهًا، ويجبُ إثباته لله تعالى كما يليقُ بِعَظَمَتِهِ وكبريائه وجلاله، لا كما يليقُ بصفاتِ المحدثينَ.

وهذا هو معنى قولنا: الظَّاهِرُ، فإنَّ الظَّاهِرَ مشتركٌ بينَ ما يليقُ بالعبدِ وبينَ ما يليقُ بالربِّ، والمرادُ هنا الظَّاهِرُ اللائقُ بالله تعالى، لا الظَّاهِرُ اللائقُ بالعبدِ والمخلوقِ، وبعدُ: ذلكَ، فإذا اعتقدَ السالكُ ذلكَ كما يعتقده في الذاتِ المقدسةِ، فإنَّ الذاتَ قد أجمعَ الكلُّ على الإيمانِ بها، وأنها معلومةٌ من حيثُ الجملةِ، وإن كانت لا تماثلُ الذواتِ المحدثَّةَ، ولا يَعْلَمُ ما هُوَ إلا هُوَ، ولا يدركُ لها كيفيةً، فالصِّفاتُ فُرِّعَ على الذاتِ، يُحتذى فيها حدوّه، كما وجبَ الإيمانُ بالذاتِ، ولم يحتَمِلْ تأويلاً غيرَ معناها اللائقِ بالله، ولم يدركُ لها كيفيةً، فكذلكَ يجبُ الإيمانُ

بالصفات، وتعلّم أحكامها وآثارها، ولا يُدرك لها كيفية.

فإذا استقرّ ذلك في معتقد السالك وسلّك عليه، ثمّ كاشفه الله تعالى في سلوكه بكشف خاصّ، وجدّ فيه القُرب الخاصّ، والمعيّة الخاصة، وسرّ قوله: «أنا جليس من ذكرني»، فذلك فرعٌ نتج من هذه الأصول، يُكاشفُ الله بذلك أوليائه وخاصته، وذلك مرتبة ثانية، وهو من قانون العدل: وضع الأشياء [في] مواضعها، وترتيبها في مراتبها، فبعض الناس يهرب من الاعتقاد العام إلى الكشف الخاص، والإنصاف أن يعتدّ الصفات في مراتبها، من كون أنها حقائق قائمة بالذات، معلومة من حيث الجملة، غير مكيفة، ويجعلُ هذا المرتبة الأولى، ويجعلُ الكشف الخاص مرتبة ثانية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصل

العبد إذا وفّقه الله تعالى، وأمعن في مطالعة الحديث، مثل الصحاح الستة، وفهم مُثونها، لم يشكّ في أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعلمون أن ربهم فوق السموات، يدعونه ويرفعون إليه أيديهم، وكيف لا؟ وقد عرج برسول الله ﷺ حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فلو [لا] أنه سبحانه يُنسب إليه جهة معيّنة من الفوقية أي حكمة كانت في عروجه إلى فوق السموات، ثمّ خاطبه سبحانه وتعالى، وفرض عليه خمسين صلاة، ثمّ رجع حتى لقي موسى، فردّه فرجع إلى ربّه، فوضع عنه عشرين؟

فإذا تأملَ المنصفُ العاقلُ الذكيُّ هذا الحديث، ووجد فيه التصريح برجوعه إلى موسى، ثمّ رجوعه إلى ربّه، علِمَ حقيقة أن ربّه سبحانه فوق السموات، وهي الفوقية الحسية المعلومة عندنا، لكن هي في صفات الله تعالى كما يليق به. هذا ما تدلُّ عليه السُّنة الصحيحة لمن فهم وعقل وكاس وفطن، ثمّ إنا إذا تأملنا نصوص السلف الأولين، قبل حدوث هؤلاء المتكلمين، الذين يجعلون آيات الصفات وأخبارها من المتشابه، نجدُهم قد صرّحوا - في نصوص - على فوقية الباري، وهي الفوقية المحسوسة، مع فوقية الرتبة، فإن فوقية المرتبة صحيحة أيضاً، لكنها لا تمنع من الفوقية المحسوسة، وهم المشايخ الكبراء مثل الحارث بن أسد

المحاسبِي، وسَهْل بن عبد الله التُّشْتَرِي، وعمرو بن عَثْمَانَ المَكِّي، وأبي القاسم الجنيد، حتَّى الحَكِيم الترمذِي - رحمه الله - يَشِيرُ في مُصَنَّفَاتِهِ بِأَنَّ القُلُوبَ تَعْرُجُ إلى السَّمَوَاتِ، حتَّى تَنْتَهِيَ إلى المَعْلَقِ، والمَعْلَقُ مَحَلٌّ في العَرْشِ تَتَعَلَّقُ فِيهِ قُلُوبُ الأولِيَاءِ أَهْلِ القُرْبِ، وهم عَسَاكِرُ بَعْضِهِمْ فَوْقَ بَعْضٍ، فإذا تَأَمَّلَ المُنْصَفُ نصوصَ الرُّسُولِ ﷺ، وتَصْرِيحَهُ في قَوْلِهِ في مَعْنَى الرُّوحِ: «حتَّى يُنْتَهِيَ بِهَا إلى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ»، والحَدِيثُ صَحِيحٌ ثَابِتٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ، وغير ذلك من التَّصْرِيحاتِ بِالفَوْقِيَّةِ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ، عَلِمَ صَحَّةَ الفَوْقِيَّةِ، فَقَوْلُهُ ﷺ: «حتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إلى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ» هَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ بِأَنَّ الفَوْقِيَّةَ هُنَا هِيَ الفَوْقِيَّةُ المَحْسُوسَةُ، لَا مَجْرَدَ فَوْقِيَّةِ الرُّتْبَةِ، والمَتَّبِعُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ يَسْتَغْنِي بِنصوصِ الرُّسُولِ ﷺ عَنْ نصوصِ غَيْرِهِ، فَكَيْفَ وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ، مِثْلِ هَؤُلَاءِ الصُّوفِيَةِ المِشَارِ إِلَيْهِمْ، وَسَلَفِ أَهْلِ الحَدِيثِ، مِثْلِ الْأُمَامِ أَحْمَدَ بن حَنْبَلٍ، ومُحَمَّدَ بن إِسْمَاعِيلَ البُخَارِيِّ، وَمُسْلِمَ بن الحُجَّاجِ القُشَيْرِيِّ، وَعَثْمَانَ بن سَعِيدٍ الدَّارِمِي، وَقَدْ صَنَّفَ ذَلِكَ كِتَاباً سَمَّاهُ (النَّقْضُ لِحُجَجِ بَشَرِ المَرِئِسِيِّ) اسْتَدَلَّ عَلَى فَوْقِيَّةِ الْبَارِي وَعُلُوِّهِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ العَرْشِ بِحُجَجٍ سَادَّةٍ قَاطِعَةٍ، لَمْ يَلْتَفِتِ الْإِنْسَانُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا مَجَازٌ عُرْفِيٌّ أَوْ لُغَوِيٌّ، هَذَا قَطْعاً عِبَارَةً أَهْلِ الْكَلَامِ وَأَنْفَاسِهِمْ، لَا نَفْسُ أَهْلِ السُّنَّةِ والحَدِيثِ، وَمُشَايِخِ أَهْلِ الطَّرِيقَةِ - المَتَقَدِّمِينَ مِنْهُمْ - لَا المَتَأَخِّرِينَ مِثْلِ القُشَيْرِيِّ، فَإِنَّهُ كَانَ مَتَعَصِّباً لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ وَنَفْيِ الْجَهَةِ، بَلِ الْإِعْتِبَارُ بِمَتَقَدِّمِي الطَّائِفَةِ وَكِبَرَائِهِمْ، ثُمَّ الْإِنْسَانُ إِنْ لَمْ يَقِفْ مَعَ نصوصِ الرُّسُولِ ﷺ، وَنصوصِ أَهْلِ الحَدِيثِ، وَنصوصِ مُشَايِخِ الطَّائِفَةِ، فَمَعَ أَيِّ شَيْءٍ يَقِفُ؟ وَإِذَا لَمْ يَزُلْ شَكُّهُ مَعَ وَجُودِ ذَلِكَ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَزُولُ شَكُّهُ؟

فصل

رَبِّمَا يَسْتَوْحِشُ السَّالِكُ إِذَا تَوَجَّهَ بِقَلْبِهِ نَحْوَ السَّمَوَاتِ وَنَحْوِ العَرْشِ، وَسَبَبُ الْوَحْشَةِ أَنَّهُ كَأَنَّهُ يَجْعَلُ الْبَارِي تَعَالَى مُحْصُوراً فِي جَهَةِ مَخْلُوقَةٍ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ

وتعالى قبل الحدود والجهات، فلا ريب كل من زعم أن الباري تعالى محصور في جهة، أو أن جهة من الجهات تُحيط به، أو مكاناً من الأمكنة يُقِلُّه، فقد كفر وشبهه، هذا لا شك فيه، والتَّحْقِيقُ الذي يَحُلُّ هذه الإشكالات - إن شاء الله - هو أن الباري تعالى كان ولا شيء معه في قَدَمِهِ وَأَزْلِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَفَرْدَانِيَّتِهِ، وهو سُبحَانَهُ وتعالى في تلك الفَرْدَانِيَّةِ والوَحْدَانِيَّةِ مُنفَرِّدٌ بِنَفْسِهِ في ربوبيته وتوحيده، فليس ثم جهة من فَوْقِيَّةٍ وَتَحْتِيَّةٍ وَبَيْنِيَّةٍ وَبَسْرَةٍ، فإن هذه الجهات هي من حُدُودِ الجهات، فلما اقْتَضَتْ الإرادة المقدسة بِوُجُودِ الكائنات المحدودة، ذات الجهات، وكان من لوازمها الفَوْقِيَّةِ وَالتَحْتِيَّةِ وَالمِيمَنَةُ وَالمِيسَرَةُ، اقْتَضَتْ أَنْ تكونَ في محلٍّ، وكان أنسب الجهات بها أَنْ تكونَ في جهة التَّحْتِ، وأن يكونَ المالكُ لها المَدْبِرُ فوقها بلا حَدٍّ، ولا حَضَرٍ، كما قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣] فهو سُبحَانَهُ استوى على العرش استواءً يليق به، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، وهو على ما كان عليه في قَدَمِهِ وَأَزْلِيَّتِهِ وَفَرْدَانِيَّتِهِ وَتوحيده، لكن اقْتَضَى أَنْ يكونَ المربوبُ المخلوقُ المحدودُ المحصورُ، الذي لا بُدَّ له من جهة، ولا يُمكن أَنْ يكونَ في غير جهة، أَنْ يكونَ في جهة التَّحْتِ، واقتضى أَنْ يكونَ الربُّ الماجدُ القاهرُ المالكُ المَدْبِرُ فوقه باعتبارنا، فإننا لا نعقل غير الجهات، فنُشِيرُ إليه مِنْ فَوْقِنَا، وهو سُبحَانَهُ كما هو في فردانيته وأَوَّلِيَّتِهِ، كما كان أولاً، ولا شيء معه، فلسنا نَحْصُرُهُ في جهة، ولا نَحُدُّهُ في مكانٍ، بل نقول: هو على العرش كما يليق به، وهو الحَامِلُ لِلْعَرْشِ، والحَامِلُ لِحَمَلَتِهِ، وهو على ما كان عليه في أَزْلِيَّتِهِ، ونحن في محلٍّ فيه الجهات، فنُشِيرُ إِلَى الفَوْقِيَّةِ، التي هي أعلى مكانٍ من الكون، لأنها أنسب الجهات التي يُشارُ إِلَى الربِّ تعالى منها، والتَّحْتِ أنسب الجهات التي يُشارُ إِلَى المربوبِ المخلوقِ منها، وَمِنْ حَقَّقَ ذَلِكَ في اعتقاده أولاً، ثُمَّ في ذوقه وكشفه ثانياً، انحلَّتْ عن قلبه شُبُهَةُ الْحَضَرِ، والاستيحاشُ من الإشارةِ إِلَى الجهة، فإنها من حَيْثُنَا، وَمِنْ حَيْثُ حَدُودُنَا، والربُّ تعالى لا يحصره شيء، هو كما هو، وكما كان أولاً، ولا بُدَّ مِنْ رِيَاضَةٍ وَتَوَجُّهِ، عسى الله تعالى أَنْ يَفْضَلَ بالكشفِ عن

ذلك، إن شاء الله تعالى.

وأما ما أشار سيدي، من كون: عِلْمُ الْفَوْقِيَّةِ التي يَعْلَمُهَا اللهُ، والمَعْيَّةُ التي يَعْلَمُهَا ويرضاها له صفة. هنا كلام واجب أن أُنَبِّئَهُ لِأَنِّي أَحِبُّ أَنْ لَا أَكْتَمَ عَنْ سَيِّدِي شَيْئاً. قول سيدي: «يرضاها له»، صِفَةُ الرِّضَا والغَضَبِ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْأَفْعَالِ، وَلَا تَكُونُ فِي الصِّفَاتِ، فَإِنَّهَا لَازِمَةٌ لِلذَّاتِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ سَيِّدِي رِضَا رَبَّنَا سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ أَنْ يوصَفَ بِهَا، فَيَسْتَقِيمُ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ، وَمَنْ أَيْنَ يَعْلَمُ الذَّائِقُ وَالْمُكَاشِفُ أَنَّ الَّذِي ذَاقَهُ وَوَجَدَهُ هُوَ عَيْنٌ مَا يَرْضَاهُ اللهُ، وَعَيْنٌ مَا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ، هَذَا مَا لَا يَعْلَمُ بِالدُّوْقِ وَالْمَجَرَّدِ، إِنَّمَا يُعْلَمُ بِتَوْقِيفِ الشَّارِعِ بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ مِنَ الْأَدْلَةِ وَحَدَاقَةِ الْفَهْمِ فِيهَا، وَأَمَّا الْأَذْوَاقُ فَإِنَّهَا تَخْتَلِفُ، وَكُلُّ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ أَصَابَ عَيْنَ الْحَقِّ مِنْ جِهَةِ الدُّوْقِ، وَذَلِكَ غَيْرُ كَافٍ حَتَّى يُكْشَفَ عَنْهُ بِالْعِبَارَةِ، وَيُبَيَّرَهُنَّ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَبِذَلِكَ يُعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا هُوَ عِنْدَ اللهِ، وَلَمْ أَسْمَعْ هَذَا الْكَلَامَ أَوْ مِثْلَهُ إِلَّا مِنْ طَائِفَةِ الشَّيْخِ الْعَارِفِ أَبِي الْحَسَنِ الشَّاذَلِيِّ، فَإِنَّ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الشَّيْخَ كَانَ عِلْمُهُ مُطَابِقاً لِعِلْمِ اللهِ، وَهَذَا الْكَلَامُ فِيهِ نَظَرٌ، وَيَحْتَاجُ قَائِلُهُ إِلَى تَبَيُّنٍ وَتَأَمُّلٍ وَتَفْصِيلٍ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَا تُعْلَمُ بِمَجَرَّدِ الدُّوْقِ، فَإِنَّهُ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ الرَّائِي، وَلَا يُعْلَمُ إِلَّا بِتَوْقِيفِ شَرْعِيٍّ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

سَأَلَ فَقِيرٌ أَسْتَاذَهُ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَقَالَ: بَعْضُ الذَّائِقِينَ وَجَدَ فِي ذَوْقِهِ الْبَاطِنَ أَمراً، وَفِي حِسِّهِ الظَّاهِرَ أَمراً آخَرَ، فَالْحِسُّ الظَّاهِرُ يَقْتَضِي شَيْئاً، وَالذَّوْقُ الْبَاطِنُ يَقْتَضِي شَيْئاً، وَقَدْ تَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، فَالْحِسُّ يَرَى الْمَسَافَاتِ وَالْحُجُبَ، فَإِنَّهُ يَجِدُ السَّمَاوَاتِ وَتَعَدُّدَهَا، وَالْحُجُبَ مِنَ الْكُرْسِيِّ، وَالْعَرْشِ، وَحُجُبَ النَّارِ، وَالنُّورِ، وَالْوَهْمِ، لَا يَنْفُذُ حَتَّى يَعْجَرَ فِي الطَّبَقَاتِ وَالْحُجُبِ، فَإِذَا انْتَهَى فِيهَا أَثْبَتَ وَجُودَ الرَّبِّ تَعَالَى بِلَا تَكْيِيفٍ. وَالذَّوْقُ يَقْتَضِي أَمراً آخَرَ بخلاف ذلك، وَهُوَ أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا صَفَا وَقَعَ فضاءً خَارِجَ الْكَوْنِ بَعِيدَ مَنْتَهَاهُ، مُتَّسِعٌ أَقْطَارُهُ وَأَرْجَاؤُهُ، فَيَجِدُ الْقَلْبَ فِي ذَلِكَ الْفَضَاءِ كَأَنَّهُ قَدْ خَلَا بِرَبِّهِ، لَا يُشَارِكُهُ فِي تِلْكَ الْخَلْوَةِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، فَيَقُومُ لَهُ بِالْعِبُودِيَّةِ، وَلَا يَجِدُ هُنَاكَ حُجُباً، وَلَا عُزُوجاً، فَهَلْ هَذَا الذَّوْقُ لَهُ حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ

من كون أن القلوب ليس بينها وبين من تطلبه مسافة، وهي مع من تطلبه حقيقة، أم هذا شيء قام في الوجود الإنساني بحسب الذكر والإرادة، وليس له في الخارج حقيقة؟

فهم من جواب أستاذه - رضي الله عنه - ما معناه: هذا اتصال القلوب بمولاهما، له حقيقة، وهو حق ثابت بالكتاب والسنة، قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وفي الحديث: (من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً) وغير ذلك. واتصال القلوب لا يشابه اتصال الأجسام لأن القلب غيب يشهد الغيوب بلا مسافة، ويراها ويكون معها حقيقة، وهذا وإن كان أمراً وجودياً ذوقياً يراه الدائق في وجوده الإنساني على حسب مرآته، فإنه مطابق للأمر الخارجي، فإن الأمر في الخارج هو كون الرب تعالى علي بذاته على الكائنات فوق العرش، وهو في علوه مع كل شيء بمعية هي نعته، ومحيط بكل شيء إحاطة هي وضعه، فهو قريب في علوه، عال في قربه، فمن شهد معيته معه، فقد شهد الأمر على ما هو عليه، وذلك لا ينافي علو الرب تعالى وفوقيته فوق عرشه، كما هو في الخارج المحسوس، وإن كان الشهود الذي ذاقه الدائق بحسب إيمانه مرتبة، والأمر العيني كما هو في الخارج على الأمر الذي هو به يظهر في الآخرة مرتبة أخرى، فإن ما يحل في القلوب من الأنوار الإيمانية، إنما هو من المثل الأعلى، قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] فهذا المثل يُعبد ويُحب ويُخاف ويُهاب ويُؤنس به ويعظم، وهو الذي يظهر في حجاب القلوب، فإنها حجاب بالنسبة إلى الأمر الخفي العيني، وهذا المثل لا يقال: هو هو، ولا غيره، فإنه لو كان هو لم يحل في القلوب ولم تمتلئ منه، ولم يباشرها حقيقة، والخُلُول مُستحيل، ولا يقال: إن المثل غيره، فإنه من نوره ولا يمكن ظهوره في القلوب المحدث المخلوقة إلا هكذا، فهو الظاهر في القلوب حقيقة، لكن في حجب الأنوار والمثل، ومن زعم أن الذي يحل بقلبه هو حقيقة الحق، فقد قال بالخُلُول، وأحسن ما قيل فيه: إنه «المثل الأعلى»، و«الجُد» الذي قال فيه ﷺ: «تعالى جدك»، وبهذا يظهر الفرق بين

ظهور الحقائق في القلوب في الدنيا، وبين ظهورها في الدار الآخرة على حقائقها، التي اتصف بها حقيقة، ليرتب كل شيء مرتبته، ويوضع في محله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فائدة

إذا امتلأ قلب الذاكر من الله، ووجد الله تعالى معه قريباً منه، فذلك الذي امتلأ قلبه به هو المثل الأعلى، قال الله تعالى ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وذلك المثل هو رفيقة الحقيقة، ولا يقال: هي هو، ولا غيره، كالاسم والمسمى، وذلك لا يمنع كون الحق تعالى علي الكائنات بذاته، فهذا وجود عيني، وذلك وجود قلبي، والله أعلم.

فائدة

ولو فرضنا شخصين: شخصاً كُشف بفوقية الله تعالى على ما هي معلومة عند الله من حيث الجملة التي يعلمها، وآخر آمن بأن ربه فوق عرشه، فوق سبع سماوات، علا فوق الممالك كلها بغلو حقيقي محسوس، لكن على ما يليق بتنزيهه، ومع ذلك فعلمه محيط بالعبد، وبكل شيء، وكذلك سمعه وبصره، وقدرته وتدبيره محيط بالعبد، وبكل شيء، كما أمر أن يؤمن بذلك، ثم كُشف في أثناء ذلك بأن ارتفعت الحجب، وفنيت الأكوان، فحصل القرب الخاص، والمعينة الخاصة، لكان الثاني أقوى وأحد، لأنه رتب الاعتقاد كما جاء به رسول الله ﷺ في مرتبته، فرتب له الكشف الخاص في مرتبته، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فائدة

القلب يصعد إلى العلو سماء سماء، حتى ينتهي إلى العرش، فإذا انتهى إلى العرش انتفت الجهات والمسافات والحدود والأقطار، ولم يبق إلا من لا مثل له، ولا حد يحضره. إذا علم ذلك علم ما معنى إشارة المشير إلى الفوقية، وعلم أنها إنما هي بحسب الأكوان المحدودة، التي لا يعقل فيها غير ذلك، وأما الرب تعالى

في فردانيته، حيث لا كون ولا مكان، فليس ثم جهة يُشار إليها، إذ لا كون ثم ولا مكان، فإذا وُجد الكون وجب الإشارة إلى فوق جهة ومرتبة، لعلّ خالقِهِ، وسُفُول المخلوق. والحمد لله.

فصل

وأما ما ذكره سيدي في قضية ابن عربي، وكونه - أعاد الله بركته - ⁽¹⁾ قال في حقّه: «رحمة الله»، ليت شعري بماذا؟ وأيضاً عند خادمكم فيه كلام، ويجب عرضه على خدمتكم، فإنّ المحب من لا يكتُم عن محبوبه طويّةً.

هذا الرجل لا شك أن له مصنفاتاً مفيدة، ورقائق حسنة، وكلاماً مليحاً، كما يتقله في (المحكم المربوط) و(الفتوحات المكية) وغيرها، لكنّه يُدرج السّم القاتل في كلامه لمن لا فطنة له بأساس قواعده ورموزه في زندقته، ولا بأس أن نذكر شيئاً من ذلك، وسيدي بعد ذلك لا بأس - إن رأى - أن يُطالع (الفصوص) وغيرها من كلامه، ثم يزن ما ذكره الفقير على ذلك، وما المقصود في ذلك - عليم الله - إلا التحذير من الزنادقة الملحدين، فكّم أثلف هؤلاء من مسلم عثروه في آبار المهالك والمعاطب. ومن ذاق شيئاً من هذا الاتحاد، لا يقدر كل شيخ في الوجود يُخلصه من ذلك، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾، وبالنادر يكون ذلك، فابن عربي، وابن سبعين، والصدر الرومي، وابن هود الأندلسي، وعبدالله البلياني، والضعيف التلمساني، وأمثالهم عند هذا الضعيف لا يجوز أن يُقال فيهم: «رحمهم الله» ⁽²⁾، فإنهم غيروا، وبدّلوا، وقلبوا حقائق الشريعة، وأشركوا الله بكل شيء، وجعلوه عين كل شيء، فتلف بسببهم أمم لا يُحصىهم إلا الله، ومرفقوا من الدين، وخرجوا من الإسلام، فمثل هؤلاء كيف يرحمهم الله؟! بل يجب ذمهم، وتحذير الناس منهم،

(1) دعاء من المؤلف لأحمد المغربي وليس لابن عربي.

(2) لذا لم يترجم الأمام العيني على جلال الدين الرومي عندما ترجم له في مواضع عديدة من كتبه. انظر كتابي: (رحله الأمام العيني إلى قونية)، نشر مكتبة أضواء السلف.

وذلك لا يكون إلا بعد معرفة مذهبهم فمن لا يعرف مذهبهم، والسموم القاتلة في كلامهم، كيف يُبغضهم؟ أم كيف يذمهم؟ وقد علّق [الفقيه] فيهم ثلاثة كراريس، الأول سمّاه: (البيان المفيد في الفرق بين الاتحاد والتوحيد)، والثاني: (لوامع الاسترشاد في الفرق بين التوحيد والاتحاد)، والثالث: (أشعة النصوص في هتك أستار الفصوص)، كل ذلك ليبقى المؤمنون على بصيرة، ويحذرون من طُرُقهم ومَتَاهَتِهِمْ، وحاصل ذلك كله كلامٌ وَجِيزٌ مختصر:

إِنَّ هَؤُلَاءِ جَمِيعُ مَا يُدَوِّنُهُ مِنَ الْكَلَامِ الْحَسَنِ فِي مَصْنَفَاتِهِمْ، إِنَّمَا هُوَ رِبْطٌ، وَاسْتِجْلَابٌ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ إِلَى الْبِدْعَةِ إِنْ لَمْ يَكُونُوا ذَوُو بَصِيرَةٍ، وَيَسْتَدْرِجُوا الْخَلْقَ فِي دَعْوَتِهِمْ، حَتَّى يَحْلُوهُمْ عَنْ أَدْيَانِهِمْ لَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ.

هذا ابن عَرَبِيٍّ - عِنْدَهُ فِي أَصُولِهِ - يَجْعَلُ الْمَعْدُومَاتِ أَشْيَاءً ثَابِتَةً، غُلُوبَهَا وَسُفْلِيَّتُهَا، قَبْلَ وُجُودِهَا، فَهِيَ عِنْدَهُ ثَابِتَةٌ فِي الْعَدَمِ، لَكِنْ لَيْسَ لَهَا وَجُودٌ، ثُمَّ أَفَاضَ الْحَقُّ تَعَالَى عَلَيْهَا مِنْ وَجُودِهِ الذَّاتِيِّ فَقَبِلَ كُلَّ مَوْجُودٍ مِنْ وَجُودِ عَيْنِ الْحَقِّ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهِ، فَظَهَرَ الْكُونُ بَعَيْنِ وَجُودِ الْحَقِّ الذَّاتِيِّ، وَكَانَ الظَّاهِرُ هُوَ الْحَقُّ، فَعِنْدَهُ أَنَّهُ لَا وَجُودَ إِلَّا لِلْحَقِّ، وَيَسْتَحِيلُ عِنْدَهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ وَجُودٌ مُحَدَّثٌ، كَمَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْحَقِّ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: وَجُودٌ قَدِيمٌ، وَوَجُودٌ حَادِثٌ، وَهَذَا عِنْدَهُ، وَعِنْدَ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ لَيْسَ ثُمَّ وَجُودٌ حَادِثٌ، وَلَيْسَ ثُمَّ إِلَّا وَجُودُ الْحَقِّ الذَّاتِيِّ، وَهُوَ الَّذِي فَاضَ عَلَى الْأَعْيَانِ وَالْمَمَكِنَاتِ، فَهِيَ مَوْجُودَةٌ بَعَيْنِهِ، وَمَنْ شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا اعْتِقَادُهُ، فَلْيَرَا جَعْلَ كُتُبِهِ (الفصوص) وَغَيْرِهَا.

فصل

عِنْدَهُ أَنَّهُ لَمَّا فَاضَ عَلَى الْأَكْوَانِ عَيْنِ وَجُودِ الْحَقِّ كَانَ هُوَ الظَّاهِرُ فِيهَا بِحُكْمِ الْوُجُودِ، وَكَانَتْ هِيَ الظَّاهِرَةُ فِيهِ بِحُكْمِ الْأَسْمَاءِ، فَإِنَّهَا كَثِيرَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَعِنْدَهُ أَنَّ

الكونَ افتقرَ إلى الحقِّ بسببِ إفاضةِ الوجودِ، وعنده أنَّ الحقَّ - أيضاً - افتقرَ إلى الكونِ لظهورِ أسمائه، وكلُّ منهما يعبدُ الآخرَ، فالحقُّ يعبدُ الكونَ عنده، لأنه فيه ظهرتِ أسماؤه، والكونُ يعبدُ الحقَّ، لأنه بِوُجُودِهِ ظهرَ، وأنشدَ على هذا في كتابِ (الفصوص) في الكلمة الإبراهيمية قال:

فيحمدنني وأحمده ويعبدنني فاعبده
ففي حالٍ أقرُّ به وفي الأعيان أجدده
فيعرفني وأنكره وأعرِّفه فأشهدده
فأنني بالغنى وأنا أسأله وأسأله؟
لذاك الحق أوجدني فأعلمه فأوجدده

قوله: (ويعبدني) لأنني محلُّ أسمائه، و(أعبده) لأنني ظهرتِ بِوُجُودِهِ، وقوله: (فيعرفني) بكثرةِ أسمائه، و(أنكره) لأنني شائعٌ في الكلِّ، متفرِّقٌ في الكونِ، و(أعرفه) بِوُجُودِي (فأشهدده) حينئذٍ. قوله: **لذاك الحق أوجدني فأعلمه وأوجدده** أي أوجدني لأعلمَ وجوده، فإنه وجودي، و(وجوده) أنا، فإنه إنما ظهرتِ أسماؤه بي !!.

فيا معاشِرَ العلماء!! هل من يقولُ هذا مسلّمٌ؟ أو بقي معه من الإسلامِ حبةٌ خردلٍ؟ فهذا عنده أنَّ الحقَّ تعالى شيءٌ مطلقٌ، مثلُ الحرارة [في الأشياء الحارّة] ⁽¹⁾ والبرودة في الأشياء الباردة، ومن أمعنَ في مطالعة كُتُبِهِ عَرَفَ صحّةَ ما قلناه. وقال في الكلمة الآدمية: (فأما إنسانيتهُ فلعوم نشأته وحصره الحقائق كلها وهو للحقِّ تعالى بمتزلة [إنسان] ⁽²⁾ العَيْن من العَيْن الذي يكونُ به النَّظَر، فإنه به

(1) زيادة يقتضيها السياق.

(2) الزيادة من الفصوص.

نَظَرَ الْحَقُّ تَعَالَى إِلَى خَلْقِهِ فَرَحِمَهُمْ⁽¹⁾ جَعَلَ آدَمَ لِلخَلْقِ بِمَنْزِلَةِ إِنْسَانٍ الْعَيْنِ مِنْ الْعَيْنِ، ثُمَّ سَتَرَ كَفَرَهُ فَقَالَ: (فَإِنَّ بِهِ نَظَرَ الْحَقُّ تَعَالَى إِلَى خَلْقِهِ فَرَحِمَهُمْ)، فَالْعَاقِلُ الْمُنْصِيفُ إِذَا نَظَرَ إِلَى هَذَا عَرَفَ سُوءَ مَعْتَقِدِهِ.

وقال الكلمة الشيشية: (فهو مرآتك في رؤيتك نفسك، وأنت مرآته في رؤيته أسمائه وظهور أحكامها ولست سوى عينه، فاختلط الأمر وانبههم)، معناه: فهو مرآتك في رؤيتك نفسك، لأن وجوده فاض عليك، فنظرت إلى نفسك بوجوده، فصار هو مرآتك، وصرت أنت مرآته في رؤية أسمائه، فإنه لولاك لم ير أسمائه، فإن عنده أن كل موجود قبل من الوجود بحسب استعدادة، فعنده تلك النسبة، وذلك الاستعداد هو أسماء الحق، ثم صرح بكفره فقال: (ولست أرى سوى عينه فاختلط الأمر وانبههم)، وكفى بهذا كفراً حيث يعتقد أن الحق ليس سوى عين العبد، وأن الأمر اختلط وانبههم، فصار لا يميز الخالق من المخلوق، ولا المخلوق من الخالق، وقال في الكلمة التوحية: « وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية فما عبد غير الله في كل معبود»، فافهموا ذلك معاشر العقلاء.

وقال في الكلمة الإدريسية: « ومن أسمائه الحسنی: العلي، على من وما ثم إلا هو؟ فهو العلي لذاته، أو عن ماذا وما هو إلا هو؟، فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى: (محدثات)، هي العلية لذاتها، وليست إلا هو. فهو العلي لا علو إضافة، لأن الأعيان التي لها العدم الثابتة فيه ما شمت رائحة الوجود، فهي على حالها مع تعداد الصور في الموجودات، والعين واحدة من المجموع في المجموع.

فوجود الكثرة في الأسماء، وهي النسب، وهي أمور عدمية. وليس إلا العَيْن الذي هو الذات»، فهذا قد صرَّح بأن المحدثات عليَّة لِذَاتِهَا لأنها بالوجود الذاتي، فعلى هذا يكون الكلب عليًّا بذاته، والخنزير عليًّا بذاته، ثم قال: «والعَيْن واحدة من المجموع في المجموع»، ثم قال: «وليس إلا العَيْن الذي هو الذات والكثرة في الأسماء أمورٌ عدمية»، فهذا يصرِّح أن الحقَّ عَيْن الأشياء، وأنه الوجود الساري في كل شيء كما يقوله ابن سبَّعَيْن في بعض مصنفاته: «وظهر في الماء بلونه، وفي النار بلونه، وفي النبات بلونه».

معاشر العقلاء!! فهل مع هؤلاء من الإسلام شيء؟ كلا!! هؤلاء أشركوا الله بكلِّ شيء، وجعلوه عَيْن كلِّ شيء، وليس هذا فناء المحبِّين من الصوفية. أولئك فنوا بمن أحبُّوه حتَّى غابوا عن نفوسهم، وهؤلاء أصحَّاء شياطين يُقرِّرون ذلك بقواعد علمية. أين حال هؤلاء من أحوال السكاري؟ بل هم زنادقة.

ويقول في (الفصوص) أيضاً: «فظهر بصور كبش من ظهر بصورة إنسان فظهر بصورة لا بل يحكم ولد من هو عَيْن الولد وخلق منها زوجها فما نكح سوى نفسه فمنه الصاحبة والولد وكل هذا باعتبار الوجود الساري في كل شيء»، فعنده أن الحقَّ هو الوجود الساري في كلِّ شيء، المطلق، ولأجل ذلك يقول: «ظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان»، أي أن الظاهر في المجموع هو الحق، ولولا الملائة لنقلت من كلامه شيئاً كثيراً، يصرِّح بالكفر والزندقة، ولا يَكُنِّي باعتبار الوجود لا باعتبار سكر الحال، وفي ذلك كفاية للفطن اللَّيِّب إن شاء الله تعالى. والواجب التحذير من زندقة هؤلاء، وإعلان أمرهم بين الناس، كيلا يَقْعُوا في هذه الطامات، الموجبة للكفر، المخرجة عن دين الإسلام، والحمد لله ربِّ العلمين، وصلى الله على سيِّدنا محمد، وآله وصحبه وسلم.

لَوَائِحُ مِنْ قَوَاعِدِ أَهْلِ الزَّيْغِ
وَالضَّلَالِ الْمُبْطِلِينَ
وَلَوَائِحُ مِنْ قَوَاعِدِ طَرِيقِ
الصَّادِقِينَ

مِن أَقَلِّ الْعَبِيدِ، الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْوَاسِطِي، يَحْمَدُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَيُنْهِي إِلَى الْعُلُومِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْخَاصِ صَدَاقَةٍ وَمُودَةٍ وَدَعَاءٍ [و] هُنَاكَ حَقُوقٌ أَيْضاً.

فِيهِمْ مَنْ يَمِيلُ إِلَى هَذَا التَّوْحِيدِ، الَّذِي حَاصِلُهُ التَّلْحِيدُ، وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ مُتَحَيِّرٌ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، وَفِيهِمْ مَنْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا.

وَقَدْ كَتَبْتُ شَيْئاً أَرْجُو مِنْ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى - بِبَرَكَةِ وَقُوعِ نَظَرِهِمْ عَلَيْهِ - أَنْ يَكُونَ ذَرِيعَةً إِلَى زَوَالِ الْإِلْتِبَاسِ، وَمَعُونَةً عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِ الْحَقِّ فِي النَّاسِ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ مَا يَنْبَغِي تَغْيِيرَهُ، أَوْ مَا لَا يَنْبَغِي ذِكْرُهُ، فَيَحْصُلُ إِصْلَاحُهُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِوَاسِطَةِ نَظَرِكُمُ الْكَرِيمِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه أجمعين. وبعد:

فإلى الله سبحانه وتعالى الشكوى، ثُمَّ إلى رسوله ﷺ⁽¹⁾، ثُمَّ إلى أئمة الدين، ونصحاءهم - أيدهم الله تعالى بتوفيقه وتسديده، وأجزل لهم من فضله ومزيده - مما فشا في هذا الزمان من الزيغ والتحريف والتدليس والتلبيس في طريق أهل الله تعالى والساكنين إليه، حيثُ قد امْتَحِنًا بطوائف متنوعة، وفِرَق مبتدعة، تُشير إلى حقائق منكورة، وشقاشق مزخرفة، وأحوال منحرفة، يقطعون بها الطريق على طلاب الله تعالى، ويحرفون الكلم عن مواضعه، (فيزيغ بذلك شُبَّان الطالبين)⁽²⁾، وَيَعْدِلُون بهم عن المنهج المستبين، حتى آل الأمرُ في هذا الزمان إلى الالتباس، وتَلَوَّنَت القُلُوبُ بِسِمَةِ تلك الأَدْناس، واستَعْمَلُوا اصطلاحات الصوفية في ألفاظهم، وأشاروا بِشُبْهِهِ إلى حقائق أحوالهم، وَقَلَّبُوا عَنْ موضوعاتها إلى موضوعاتهم، فَخَفِيتُ طريق الصوفية في هذا الزمان، وكاد لا يدركها الحيران، إلا من أيده الله بنور العرفان. يَخِطُّون في تُرْهَاتِهِمْ خِطَّ عِشْوَاء، بِتُرْهَاتٍ نَتَجَتْ عن زيغ الأهواء. كُلُّ مِنْهُمْ يُشِيرُ إلى أنه قُطْبُ الطريقة، والموصل بالسالِك إلى الحقيقة، ونفوسهم الغضبية والشهوانية في أغلظ مراتبها. يتهافتون على طلب التقدُّم، بحصر الاشتهار والظهور والسُّمعة وقوالبها، يَتَنَقَّصُونَ بأصحاب الخوف والخشوع، وينسبون إلى الحجاب كل من يصال الشريعة بالخضوع، وهم مع ذلك أهلُ عِلْمٍ وتدقيقٍ، يسترون تلبساتهم بالآيات، والحديث بغامض التدليس والتشقيق.

فَعَمَّ البلاءُ واستَعْلَى قَتَامُهُ، والتبس الحقُّ واختفت أعلامه، وحارَ الطالبون بِمَنْ

(1) هذه عشرة من الشيخ، فالشكاة إلى رسول الله بعد وفاته غير مشروعة.

(2) في النسخة: (فيرتفع بذلك شبان الطالبين) ولعل ما أثبتته الصحيح.

يقتدون؟ ولمن ذا يتبعون؟ إلا من وقى الله وعصمه بالتجائه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ومنهاج أصحابه والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين.

وسبب حيرة الطالبين، ما غلبت في هذا الزمان على أهل العلم الظاهر من إثار الدنيا والميل إليها، وقلة المبالاة بالزهد والورع وقواعد حقائق الدين، فأبث قلوب الطالبين أن تُقلد هؤلاء الأصناف في علوم القلوب والأذواق، وقد علمتم حُرقة الطلب، ولواعج الاشتياق، ولم يجدوا من يخلص أذواق المبطلين، من أذواق المحققين، وهي الأذواق التي لا تكاد تصل إليها العلوم النظرية ولا المكتسبية.

فكتبْتُ هذه الأحرف رجاء أن يقف عليها نَفَرٌ من السادة العلماء، والأئمة الفضلاء، الذين جمعَ الله تعالى لهم بين العلم الظاهر والذوق الباطن، والزهد المتين، والنور المستبين، وليتميّز الحق من الباطل، فيما سأذكره إن شاء الله تعالى.

والسبب في هذا السؤال، أنني فُتِشتُ بمقدار عقلي، وما حاوله فكري، على الداخل الذي دخل على هؤلاء من أين أتاهم؟ فوجدته من إعراضهم عن أصول السلف، وعقائد الصحابة والتابعين، فإن كل مُبتدع يشير إلى الكتاب والسنة، والانتماء إليهما مشترك، ومن كونهم لم يجعلوا أصول السلف ميزاناً يزنون به أحوالهم، بل جعلوا أحوالهم ميزاناً لأمر السلف!! فيروُّهم محجوبين عما شهدوه، عواماً بالنسبة لما أدركوه، فحيث لحظتُ هذا المَدرَك، ألزَمَني أن أخاف أيضاً على نفسي، لكوني اعتَقَدْتُ في طائفة وأحببتُهم مثل ذي النون المصري، وأبي يزيد البسطامي، وأبي القاسم الجنيد، وأبي بكر الشبلي، وأصحابهم، ووجدتُ لهم أحوالاً غريبة الأسماء والذوات، كالحب والشوق، والشكر والصَّحو، والفناء والبقاء، ومثال ذلك.

وعلمتُ أنني مطالبٌ في الآخرة عن عَرَضِ أموري كلها جليها ودقيقها، ما ظهر منها على الجوارح، وما كان معتَقِداً في القلب، على قواعد السلف وفهمهم في كتاب الله وسنة رسوله.

فأعلنتُ بهذه المسألة، وقصدتُ أن أذكر لوائح من قواعد هؤلاء المبطلين، ولوائح من قواعد الصادقين، لِيُنْفَصِلَ من يقف على هذه الأحرف من السادة العلماء

أهل الذوق الزهاد المشار إليهم في أول الكتاب أعاد الله بركتهم.

وتُعرض كل قاعدة من القاعدتين على أصول الكتاب والسنة، وتُبين الطريق الزائغة المنحرفة، والطريق الصادقة الموافقة؛ لتزول الحيرة عن الطالبين، وينكشف الحق بسواطع البراهين، وليتبقى السائل أيضاً على بينة من أمره، وبصيرة من حاله، ويكون له في موقف الحساب حجة إذا سُئل عما اعتقده وأضمره، من محبته مواجيد الطائفة المشار إليهم أولاً، فإن الله تعالى أقام العلماء مقاماً يبينونه للناس ولا يكتُمونه، والله سبحانه وتعالى بكرمه يوفق للصواب، إنه كريم وهاب.

بيان لوائح من قاعدة أهل الزيغ والضلال:

أعاذنا الله من الفتن كلها في العقود والأعمال، وهم طائفة يَنسبون إلى الصوفية، ولهم علوم ورياضات وواردات وأحوال، حاصلها أنهم يشهدون هذه الموجودات مظاهر للصفات، لا باعتبار أنها دالات على مُوجدِها وصانعها، وعلى صفاته المقدسة، ولا يقولون أَلْبَسَهَا وجوداً حقيقياً من فعله، لكن يقولون بأنه ظَهَرَ فيها بصفاته، وأنَّ وجودها مجازٌ ليس فيها من وجودها شيء، وإنما الوجود الحقيقي هو الله، فاضَّ وجوده على الماهيات في العَدَم الذي يُسمُّونه العَماء، فظهرت الموجودات.

فهذه الموجودات والمتفرقات إنما هي مظاهر صفاته، فسبب تعدد الموجودات إنما هو لتعدد الصفات، وتضاد الموجودات؛ كالحار والبارد إنما هو لتضاد الصفات. فهذا الوجود عندهم حقيقته الله، وهو إنما حدث من التجلي لَمَّا تجلى بأسمائه وصفاته، ظهر من تجليه بالصفات المتعددة هذه الموجودات المتعددة.

فإذا سمع ذلك من لا علم له بمقاصدهم، يتوهم أنهم يشيرون إلى التوحيد، وشهود الأفعال الذي يشير إليه الصوفية؛ لأن الكلام الذي يقولون فيه شائبةٌ حق من كون الوجود إنما هو قائم بإرادة الله تعالى، ولولا إرادة الباري بقيام الوجود لم يقم، فيلتبس هذا الحق بالباطل الذي تَوَوَّلُ إليه قواعدهم عند التحقيق، بأن ما في الوجود سوى الله تعالى، وأنه ظهر فيه بصفاته حقيقةً، وأن وجوده فاض عليها،

تعالى الله عن ذلك.

ومع ذلك فإنهم ينكرون الحلول والاتحاد، ويعبرون عن شهودهم بلفظ المظهر، وهم يشيرون للحلول والاتحاد، ويقولون يظهر بصفاته، فهو الظاهر في كل شيء بحقيقة صفاته، فَلْيُلْحِظِ المتأمل هذا المذكر الدقيق، والشُّبْهَةُ التي تُلَبِّسُ على أهل العقول عقولهم، وتُشْعِبُ عليهم أدمغتهم.

ثم إنا رأينا الفلاسفة يقولون بقدّم العالم، وأنه حيث كانت الذات كانت الأفعال، لكنهم يفرقون بين الفاعل والفعل، ولعلمهم - والله أعلم - في هذا المعنى خيرٌ من هؤلاء في العقل والإدراك، وهؤلاء لا يفرقون بين الفعل والفاعل، ولا يقولون إن الله تعالى أكسب الوجود وجوداً حقيقياً من فعله قام بإرادته وانتظم بمشيئة لا تعلق لصفاته بها، إلا مجرد الإدارة، يريد الشيء فيكون، ويختار الأمر فيصير، قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ [يس: ٨٢]

بل يقولون: إن العبد هو في مرتبة عبد وفي مرتبة ربّ، تارة يقولون: فاض وجوده على الموجودات، وتارة يقولون: ظهر فيها بصفاته، وتارة يقولون: هي وحدة لا كثرة فيها. قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ثم إنهم يشيرون إلى أن السالك ينبغي له أن يترقى إلى معرفة حقيقته، ويطرق من المراتب الوجودية إلى المراتب العدمية، فيصل حينئذٍ إلى الوجود الحقيقي الذي هو الوجود - هو مظهر له - فحينئذٍ يشهد الوجود المطلق، ويصير عارفاً مطلقاً، يشهد الحقيقة في كل شيء، من كل شيء، بكل شيء، مُنْكَرًا كان ذلك الشيء في الشرع أو معروفاً!! لأن الظاهر في كل شيء شيء واحد، فحينئذٍ يصير موجّداً عارفاً.

فيفهم من ذلك أن الذي يصل إلى هذه المرتبة يصير هو الحقيقة، فيفعل ما يشاء من المباحات والمحرمات، بلا قيد شريعة، ولا غيرها، وتضمحل العبودية لإمْتِحَانِ المثنوية؛ لأن العبودية إنما هي في المثنوية، فإذا أُمِّحَتْ المثنوية فمن

العابد؟ ومن المعبود؟

ثم إن صاحب هذا المقام إن أتى بالشرائع فإنما تأتي بها لملاحظة المراتب، فإن المراتب قد يلحظها الصّاحي عندهم فيأتي بها لرعاية المراتب، فإذا قيل لهم: وما المراتب؟ يقولون: كان الله ولا شيء معه، ففاض وجوده على الماهيات، وظهرت الأسماء والصفات، فظهرت المراتب من ظهور الأسماء والصفات. يعنون مراتب الوجود.

ويقولون بعد: حينئذ الوجود من حقيقته بالمراتب، واقتضى أن يكون هناك مراتب وجودية، وهي مظاهر الصفات، ومراتب عدمية حيث كان وحده، والصفات كامنة لم تظهر بعد، ولم تظهر أسماء ولا صفات، فإذا ترقى السالك من المراتب الوجودية إلى المراتب العدمية، صار مطلقاً حراً من رق الرسوم، فلا ثنوية ولا كثرة، ولا تفرقة، فني العابد وبقي المعبود، ذهب ما لم يكن وبقي من لم يزل.

ثم إنه لا ريب أن لأهل الحق مقاماً في القرب إذا عبر عنه يعبر عنه بالفناء، إلا أن صاحبه عندهم لا يصير أصلاً حراً من رق العبادات إذا كان شاعراً بوجوده، لكن يبقى فيه لطيفة علمية يترتب عليها الأمر والنهي، والفاني عندهم شخصان: شخص يصطلم عن شعوره أصلاً، ففي تلك الحالة يعذره الشارع، كالثائم والمغمى عليه، وإذا أفاق قضى ما عليه من ذلك.

والشخص الآخر، فإن كان له شعور بوجوده، فالأمر والنهي يترتب على تلك اللطيفة العلمية فلا بد من إتيانها، فلينظر إلى هذا الفرق الدقيق بين الفناءين.

واللبس الذي يحصل للسامع، فلا يفرق بين فنائهم وفناء أهل الحق، فهم يجعلون ما أشار إليه السلف من قبلهم واصطلامهم في غلبات الأحوال هو ذلك الذي يجعلونه قاعدة مطردة في نفس الأمر، إنما هو مخصوص يرضاه الله تعالى في أوقات مخصوصة، لا قاعدة مطردة في نفس الأمر في كل حال، فهو بين هذين نسبة أو ملائمة، فإذا سمعه من لا علم له يحسب أن هذا هو فناء الصوفية ويقاؤهم فيعترّ به، وإنما هذه حال في نفس الأمر.

ثم إن أحدهم يحفظ هذه القواعد ويكتبها ويعتقدها ثم يدخل الخلوة ويتجوع، ويذكر (لا إله إلا الله) مدة ما يلبث أن يقوى عليه هذا الوهم وربما يُمكّر به بحال يجده ووارد يأتيه، فيخرج من خلوته، ويتوهم أنه قد صار الحقيقة نفسها، فيقول: (سبحاني)، وما شاكل ذلك، أعاذنا الله تعالى منهم، ومن أحوالهم.

ثم إنهم يستدلون على ما يدعونه بالآيات والأحاديث؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنَكِبَ اللَّهُ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٦] وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٥] وبالحديث: ((مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تُطعمني...)). وبالحديث أيضاً: ((كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به))، وأمثال ذلك، وقد يُنشد شاعرهم:

جمالك في كلِّ الحقائق سافرٌ وليس له إلا خالك ساترٌ
تجلّيت للأكوان خلف سُتورها ضمت بما ضمن عليه الستائر

ثم إنهم يرون - كما سبق - تعدد الموجودات لتعدد الصفات، فيرون أن الحق تجلّى في سلطان الدنيا بقهره، وفي ذلك بجبروته، وفي ذاك الجواد بجوده، وفي ذاك المليح بجماله، فيرون هذا الجمال مظهرٌ لذاك الجمال، فإذا أبصروا أمرَ جميلاً استغرقوا فيه!! وزعموا أنهم يشهدون حقيقة ذاك الجمال في هذا الجمال.

وفيهم قومٌ رؤساء محققون لا يقولون بالمظاهر أصلاً، وهم الذين ترقّوا من المراتب الوجودية إلى المراتب العدمية، بل يقولون: إنما هي وحدة مطلقة، هذا الوجود هو عينُ ذاك الوجود؛ لأن القاعدة عندهم أن المبتدئ يشهد الوحدة في الكثرة، والمنتهي يشهد الكثرة في الوحدة، ولا يقولون بالحلول ولا بالاتحاد، بل يقولون - كما مرّ - الحلول يقتضي الثبوتية أن يحلَّ شيءٌ في شيءٍ آخر، وليس هذا إلا أمرٌ واحد وربما ينشد شاعرهم:

لَسْتُمْ سِوَايَ وَنَارَ الشَّوْقِ تَحْرِقُنِي وما خلا منكم سمعٌ ولا بصرٌ

وهذا ربما وقع من بعض الصادقين؛ لأن المحب في غلبات المحبة لا يرى غير محبوبة، وربما فني عن نفسه بمحبوبه، وهؤلاء لا يغنون ذلك بل يغنون ما يُفسّره

البيت الآخر في قوله:

وما أنتَ غيرَ الكونِ بل أنتَ عينه ويشهدُ هذا الرمز من هو ذائق
فليت شعري - معشر العلماء - هل هذا الذي يشيرون إليه إلا النصرانية
المحضة؟ وكيف لا وقد نُقِلَ عن بعض محققهم أنه قال: إن النصراني إنما ضلوا
حيث خصصوا، ولو عمّموا ذلك في كل شيء لما ضلوا، فالإله سبحانه وتعالى
الشكوى من هذه الأباطيل التي ملأت الرُّبُطَ ومواطن السالكين ظلمةً وعاراً، بل
أكسبت الوجود سفةً تعود إن شاء الله تعالى على مبتدعيها، ولا حول ولا قوة إلا
بالله العلي العظيم.

ذكر لوائح من قواعد الفرقة الثانية:

هم طائفة كانت بدايات بعضهم لما قرأ القرآن، وتفقه فيما يلزمه من الأحكام،
أيقظه الله تعالى من سِنَةِ غَفْلَتِهِ، وأيقن أنه ميت عن قريب، وأنه صائر إلى الله تعالى
لا محالة، وعساه يفجأه الموت في أسبوعه أو شهره، فنهض إلى التوبة النصوح،
فاغتسل وخرج تائباً إلى الله تعالى، مما فرط في جنبه من الإخلال بأوامره، وارتكاب
مناهيهِ، بيبكاء وخضوع وخشوع وتضرع، عالماً أنه لا ينجيه من عذاب الله إلا
رحمة الله، ورحمة الله إنما تتصل بمن أطاع الله في سُنَّةِ الله، ثم عزم على الوفاء بما
اشتراطه مع الله من إقامة حقوق التقوى وحفظ قوانين التوبة النصوح من رعاية
الأسماع والإبصار، الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، فلم يلبث أن قبس الله في
قلبه نور الإيمان، فتأمل في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، فقطع قلبه
بصحّة نبوته بعد أن كان مؤمناً بذلك من وراء حجاب، مقلداً، ولزم من القطع بصحّة
النبوة؛ العلم بوجود الباري تعالى يقيناً بعد أن كان أيضاً إيماناً واستدللاً.

ولزم من القطع بصحّة النبوة والربوبية فتح الأسماع لاستماع القرآن وتدبره،
ومراقبة هذا الرب الموجود الذي قطع العقل به ولزم القلب اليقين بوجوده وبسمعه
وبصره، فصار هذا الموقن كأنه بين يدي الله حاضراً مراقباً يشهد أن الله تعالى يسمع
كلامه ويرى مكانه، ويعلم سرّه وإعلانه، فتأدب بين يديه، وألقى نجواه إليه، ووعى

كلامه واستمع خطابه، فلاح له في الكلام معاني الصفات حيث سمعه يتكلم بكلام أمر تارة، وبكلام ناه أخرى، وبكلام موعِد تارة، وبكلام متوعِد أخرى، وبكلام جبار تارة، وبكلام عظيم أخرى، وبكلام رحيم تارة، وبكلام لطيف أخرى، وبكلام جميل تارة، وبكلام جليل (تارة) أخرى..

فانضاف ما وجدته من ذوق هذه المعاني إلى ما وجدته من النور الأول، فقوي ذلك في قلبه، وتأصل ووافق أن ياتمر أوامره، ويتتهي عن زواجه، ويخاف وعيده، ويرجو وعده، وألزمه ذلك محبته، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومحبة أصحابه وتابعيهم، والافتداء بالسنة قولاً وفعلًا على منهاج السلف من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

فلم يلبث أن قذف الله تعالى في قلبه نارَ إرادته، ولواذع محبته، وأورثه ذلك سقمًا في بطنه، وغليلاً في فؤاده، وهيماناً في سره، وهو لا يدري ما ذاك؟ وما موجبه؟

فسرى في العزائم سير مشوق، ورفض الفضول كله من القول والفعل، واشتغل بتصفية قلبه ولزم الأذكار، وتأمل آي القرآن في المحراب، وهو مع ذلك عاكف على الإرادة صابراً على الأحكام، راضٍ بالأقسام، إذا ذكر الله تعالى، فمعنى الذكر في نفسه هو العوض عن وسواسها، وإذا تلى فمعاني القرآن هو القائم في النفس ينوب مناب حديثها يقصد بذلك تصفية قلبه، وتصقيل سره، يعلم أن وراء هذه الإرادة أمراً عظيماً وسراً جسيماً يحتاج محلاً طاهراً وقلباً طاهراً ومكاناً نقياً، نقياً عن الأدناس والشهوات والإرادات الفاسدات، وهو وجود المطلوب بمكاشفة أنوار القلوب، فلم يلبث أن فتح الله على قلبه من الذكر الصافي غير ذكر اللسان والحروف بل ذكراً منبعثاً من القلب بلا تكلف، يعرفه الذائقون والواجدون، يُسمى ذكر التعظيم والإجلال، يحرق أدناس النفوس، ويقمع وساوس الشيطان، ويهذب القلوب عن غلظ طباعها، ويلطفها عن مساوئ أخلاقها، رزقنا الله وإياكم قسطاً منه فضله ورحمته.

ثم لم يلبث أن صار له في خلال هذا الذكر الصافي بوارق ولوامع، من حقائق

معاني الأسماء الحسنى، والصفات العلى، فيؤثر ذلك في قلبه لهيباً تارة. وهيماناً أخرى، وتعظيماً تارة. وإجلالاً أخرى. زيادة على التعظيم الأول، والإجلال، لكن ذلك لا يدوم له، بل يبدو كوميض البرق كما قيل:

وَبَدَا لَهُ مِنْ بَعْدِ مَا انْدَمَلَ الْهَوَى بَرَقَ تَأَلَّقَ مُوهِنًا لَمَعَانُهُ
يَبْدُو كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ وَدُونَهُ صَعْبُ الذُّرَى مُتَمَنِّعَ أَرْكَانُهُ
فَعَدَا لِيَنْظَرَ كَيْفَ لَاحَ؟ فَلَمْ يُطِقْ نَظْرًا إِلَيْهِ، وَصَدَّهُ أَشْجَانُهُ
وَالنَّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ وَالْمَاءُ مَا سَمَحَتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

ثم لم يلبث أن من الله تعالى عليه بأن صيره كاشفاً في أفعال يديها عليه وحوادث تطرقه، يتعرّف إليه فيها من طريق الأفعال يتجلى له في طي تلك الحوادث تعريفات تهيج من غرامه ما كان ساكناً، ويقابل ما ظهر منها بخالص العبوديات، كالشكر والرضا تارة، والصبر والتوكل أخرى.

ثم لم يلبث أن فتح الله عليه باب الإذن في حركاته وتقلباته، إذا فاجأه أمر واعترضه عارض وأراد الدخول فيه أو الخروج منه يفتقر إلى ربه وليجأ إليه فيعرّفه مراده في ذلك إمّا بالحديث في قلبه أو بالإلهام أو بالهاتف في عالم الحس أو في المنام وهو في ذلك كله عاكف على عبادة ربه بقلبه وقالبه، فإذا عجز بقلبه فبقالبه، لا يهدأ قلبه، ولا يفتر شوقه قد ترك معاشرة الأضداد، ومن لا معونة له في صحبته، زاده من الدنيا قدر الحاجة، قليل الكلام، كثير الصمت، دائم الحزن، كامن في قلبه منهم من يغلب عليه الخوف والتضال، ومنهم من يغلب عليه الشوق والوجد، مجتهد في كتمان سره وستر أحواله غريب الهمة ذا قلب غريب ووجد غريب ومطلب غريب يعرفه أمثاله وأشكاله، وفيهم من يظهر بمظهر لا يفطن له من غير أن يتعاطى في مظهره أمراً يكرهه الشرع يقصد بذلك ستر أحواله ومواجده قلبه، ثم فيهم من يُلطف الله تعالى به ويُعطيه شيئاً من لوائح مقصوده في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن حقيقة وجود المقصود لا يكون إلا في الآخرة وذلك زيادة على ما وجده من معاني

الأسماء وذاقه من مطالع الصفات، فإن أمر الله تعالى غير متناهٍ، وذلك بأن يعرج بروحه إلى مواطن القرب، ويدرك هناك من التجلي الخاص والمعرفة الخاصة ما هو مخصوص بالمقربين لا يُعبر عنه بأكثر من أن يقال: نسبة تلك المعرفة من الواجد نسبة من طلعت عليه الشمس يُزال عنه بطلوعها كل ريبٍ وشكٍ واستدلال.

وذلك لا يكون لكل واصل ولا لكل سالك بل هو نصيب الأفراد المحبوبين، أبدال الأنبياء، وخواص الصديقين، ألحقنا الله بهم في زمرة النبيين آمين. وفيهم من يرزقه الله تعالى من هذا النصيب قسطاً وافراً فيكون كثيراً من أوقاته فانياً في ذلك مستغرقاً فيما خُصَّ به من خصائص التقريب وهو الذي يُسمونه الفناء..

وفيه من يرزقه الله تعالى الصحو والتمكين فيكون في تلك الحالة المذكورة، وهو مع ذلك يباشر أموره ولا يحجبه اشتغاله بالأسباب، عما يشهده من الأمر العجيب، ومثل هذا الرجل يصلح للمشيخة، وتربية السالكين، يرده الله تعالى في صحوه وتمكينه إلى الخلق مرشداً لهم فيحيي به المريد الصادق، ويُطلعه الله تعالى على استعدادات المريدين وتنوعها فيأمر كل مريد بما يرجو أن يفتح له فيه، وأما الشخص قبل أن يبلغ هذه المرتبة، فلا يصلح للمشيخة والتربية والدعوة، لكن قد ينتفع ببركته وبصحبه وبكلامه، وقد يقطع السالك أكثر الطريق ببركة اجتماعه؛ لأنه مشغول بوقته لا يتفرغ لتربية أصحابه إن كان مراقباً فهو مشغول بمراقبته، أو مشتاقاً فهو مشغول بشوقه، أو ذائقاً فهو مستغرق في ذوقه، أو فانياً فهو مصطلم في فناءه، بخلاف الذي أبقاه الله تعالى بعد فناءه ويرده إلى الخلق صاحياً من سكره، فذلك الذي يستحق هذه المرتبة وكل من دعا الناس إلى اتباعه قبل وصوله إلى ذلك، فيخشى أن يكون ممكوراً به وكل من ادعى ذلك فعلامته المتابعة الصحيحة، وأن لا يظهر أمراً يخالف ظاهراً ولا يدعو إلى أمر لم يدع [إليه] رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكل من جمع الناس على أمر لا أصل به في الشريعة، وإن كان ذا حال، فهو ناقص لا يقتدى به، وهذه الكلمات كلها من أصول هذه الطائفة نقلتها من أصولهم

كما فهمته عنهم، والله سبحانه وتعالى يوفق بكرمه للصواب إنه كريم وهاب.

فجملة أحوالهم: أن يقال فيهم: هم طائفة انتبهوا فاستدلوا ثم سمعوا، ثم فهموا، ثم تصوّفوا، ثم انزجروا، ثم اقتدوا واتبعوا، ثم طلبوا، ثم اشتاقوا، ثم سلكوا، ثم ذاقوا، ثم شربوا، ثم سكروا، ثم غابوا، ثم فنوا، ثم صحوا، ثم بقوا، هذه جملة أحوالهم وتفصيلها في هذه الأبيات:

فَرَأَى النُّورَ مُشْرِقاً فِي الْخِطَابِ	قَدْ صَفَا وَغِيَهُ لِفَهْمِ الْكِتَابِ
فَارْعَوَى تَائِباً مَعَ الْاِكْتِئَابِ	زَجَرْتُهُ قَوَارِعُ بَيِّنَاتِ
سَمَا الْأَسْرَارِ لَا فِي السَّحَابِ	بَعْدَ أَنْ سَارَ لِلنُّبُوءَةِ شَمْسٌ فِي
فَجَرَى إِثْيَانُهَا بِالصُّوَابِ	اسْتَبَانَتْ مَعَالِمُ الْأَمْرِ فِيهَا
مُهْلِكَاتِ الْأَبْدَانِ وَالْأَلْسَابِ	وَتَوَقَّى حَقَائِقَ النَّهْيِ مِنْهَا
وَعُقُودِ الْأَتْبَاعِ ثُمَّ الصِّحَابِ	وَأَقْتَفَى مَنِهْجَ النُّبُوءَةِ فَعَلَا
فِي طِلَابِ الْوِجْدَانِ لِلْأَخْبَابِ	وَبَدَتْ بَعْدَهُ الْإِرَادَةُ تَسْمُو
وَجَلَا قَلْبُهُ لِكَشْفِ الْحِجَابِ	وَسَرَى فِي الْعَرَامِ سَيْرٌ مُشَوِّقِ
حَارِساً لِلْخَرَابِ وَالْأَبْوَابِ	بِإِنْفِرَادٍ وَتَرْكِ كُلِّ أَنْيْسِ
أَوْ بِأَيِّ الْقُرْآنِ فِي الْمَخْرَابِ	وَفَنَّا الْأَفْكَارَ بِالذِّكْرِ طَوَّاراً
لَيْسَ يَأْتِي الْوِجْدَانُ بِالْاِكْتِسَابِ	مُنْتَهَى غَايَةِ التَّكْسُّبِ هَذَا
بِفَرَاغِ الْفُرَادِ وَالْأَنْصَابِ	جُهْدُ عَبْدٍ إِذَا تَسَبَّبَ ذِكْرٌ
وَلِرُومِ الْمَغْنَى بِغَيْرِ انْقِلَابِ	وَعُلُوفٍ عَلَى الْإِرَادَةِ شَوْقاً
لَيْسَ تَخْصُرُ أَنْوَاعُهُ بِحِسَابِ	وَمَقَامِ الْوِجْدَانِ شَأْنٌ رَفِيعٌ
مِنْ صَفَا الْأَذْكَارِ أَسْنَى النَّصَابِ	فَمَبَادِي الْأَحْوَالِ تَلُّ يُصِيبُ
نُورَهَا لِلسِّرِّ عُجَابِ	فِي خِلَالِ الْأَذْكَارِ لَمَحُ بُرُوقِ

وَتُلْهِبُ الْقُلُوبَ أَيَّمَا الَّتِي هَابِ	مِنْ مَعَانِي الْأَسْمَاءِ فِي السِّرِّ تَبْدُو
وَتُغَيِّبُ الْأَرْوَاحَ مِنْ ذَا الشَّرَابِ	فَتَهَيِّمُ الْأَسْرَارَ بِالذُّوقِ وَجَدًا
وَبُيُودِ الْهَيْمَانِ لِلْأَقْتِرَابِ	لِبُدْوِ الْجَلَالِ فِي الذُّوقِ طَوْرًا
وَشُهُودِ الْأَفْعَالِ وَالْأَسْبَابِ	وَسَنَى الْأَحْوَالِ يَبْدُو عَلَيْهِمُ
وَيَعُودُوا أَدْنَاهُمْ بِفَتْحِ الْجَوَابِ	يَشْهَدُ وَاضِحًا بَغَيْرِ ظَلَامِ
الرُّوحِ مِنْ عَمَّا الْأَوْصَابِ	ثُمَّ أَعْلَى أَحْوَالِهِمُ التَّرْقِيَّ جَذْبَةً
يَشْهَدُوا شَمْسَهُمْ بِغَيْرِ ضَبَابِ	فِي عُزُوجٍ يُطَارُ بِالرُّوحِ فِيهَا
فِي مَقَامِ الْإِبْقَا لِلطَّلَابِ	يَزْتَقِي مِنْهُمْ إِلَى الصَّخْرِ جَمْعُ
مَنْ تَمَّتْ طَالِبًا عَلَى الْأَبْوَابِ	قَارِنِ الصَّبْرِ وَالرِّضَا فِي افْتِقَارِ

تمت الرسالة والحمد لله رب العالمين

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

وصيَّته إلى بعضِ قضاةِ الشامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَقَّ حَمْدِهِ، حمداً يُوافي نِعَمَهُ، ويُوافق رِضاهُ، وصلواته على سَيِّدنا محمدٍ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ، وآله وصحبه أهلِ المِوالاةِ، وبعدُ: فهذه أَحْرَفُ عُلِّقَتْ بعدَ استِخارةِ اللهِ تعالى، وسؤالِ التَّسديدِ منه، امثالاً للإشارةِ الكريمةِ، إذ لَمْ أَرْ نفسي للوصيةِ أهلاً، وأهلُ العِلْمِ هُمُ الَّذِينَ يُطَلَّبُ مِنْهُمُ الوصايا، والحِكْمُ والمِواعظُ، لكنْ لَمْ أَرْ مِنَ الامثالِ بُدْأَ رِجاءٍ للنفعِ، ورحمةً تَعْمُنَا.

فأَوَّلُ الوصايا هو أنْ نبدأ بما أوصى اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- به عباده، والَّذين أوتوا الكتابَ من قبلهم، كما قال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131]، والتَّقْوَى أمرٌ عامٌّ يَشْتَمِلُ على القيامِ بجميعِ ما أمرَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- من الأوامرِ، واجتنابِ جميعِ ما نهى اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- من المناهي والمآثمِ وجُمْلَتُهُ أَلَّا يَدْعَ الْمُتَّقِي عليه العِلْمُ مطالبةً في ظاهره ولا باطنه، فيلتزمُ العالمُ أحكامَ عِلْمِهِ، وهو ما دَوَّنَهُ العلماءُ في كُتُبِ السُّنَنِ والفِقْهِ، ولا يَقْدِرُ أنْ يقومَ بعلمِ بحقِ التَّقْوَى إلا العلماءُ وإلا فكيف يَتَّقِي الْمُتَّقِي، وهو لا يدري ما يَتَّقِي؟.

فأَوَّلُ الوصيةِ هو أنْ يُحْكِمَ العَبْدُ عَقِيدَتَهُ، وَيَضْبِطَ شَوَاهِدَهَا مِنَ الكتابِ والسنةِ، فإنَّ العَقَائِدَ أَصُولُ المِشاهِدِ، والمِشاهِدَ أَصُولُ المِقاعِدِ⁽¹⁾ ومنها تنشأ الأعمالُ الصالحةُ المرفوعةُ إلى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- كما قال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10]، وجُمْلَةُ ما يَتَعَلَّقُ بالعقيدةِ: أنْ يُؤْمِنَ العَبْدُ بِجميعِ ما وَرَدَ في الكتابِ والسنةِ، من أمورِ الآخرةِ، ومن دلائلِ التَّوْحِيدِ، ومَعانِي الصِّفَاتِ، بلا تَأْوِيلٍ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ يَسْلُكُونَ فيها بينَ المِتاوَلَةِ، الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عن مواضعِهِ، وبينَ المِمِثْلَةِ، الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِخَلْقِهِ، تعالى اللهُ -

(1) كذا.

عَزَّ وَجَلَّ - عن ذلك غُلُوًّا كبيراً.

فأهل السنة لا يُعْطِلُونَ، ولا يُحَرِّفُونَ، ولا يُشَبِّهُونَ، بل يُجْرُونَهَا عَلَى الظَّاهِرِ اللّائِقِ بِجَلَالِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَعَظَمَتِهِ، لا على الظَّاهِرِ اللّائِقِ بِالْمَخْلُوقَاتِ، وَبَيْنَ الظَّاهِرِ الْأَوَّلِ، وَالظَّاهِرِ الثَّانِي بَوْنٌ يَعْرِفُهُ الْعُلَمَاءُ.

ثُمَّ لَا يَشْكُ الْعَبْدُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارَ الْوَارِدَةَ فِي الصِّفَاتِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْ صِفَةِ الْعُلُوِّ، وَالِاسْتَوَاءِ، وَالتُّزُولِ، وَالْيَدَيْنِ، وَالتَّعَجُّبِ، وَالضَّحْكِ، وَالْفَرَحِ، وَالْوَجْهِ الْكَرِيمِ، وَالْغَضَبِ، وَالرِّضَا، وَالرَّحْمَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ثَبَّتَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ نُصُوصُهَا وَشَوَاهِدُهَا، إِنَّمَا أَنْزَلَهَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَتَعَرَّفُ إِلَيْهِ، وَإِلَى أُمَّتِهِ لِيَعْرِفُوا بِهَا وَجُودَهُ، وَجَلَالَهُ، وَعَظَمَتَهُ، وَقُدْرَتَهُ، وَصِفَاتِهِ، إِذْ بِالصِّفَاتِ يَثْبُتُ وَجُودُ الذَّاتِ، وَبِهَا يُعْرَفُ، فَأَنْزَلَهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ وَكَرَّرَ ذِكْرَهَا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، تَأْكِيداً لَهَا، وَأَعْلَنَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فِي مَجَالِسِهِ الْكَرِيمَةِ، وَكَانَ يَحْضُرُ فِي مَجَالِسِهِ: الْعَالِمُ، وَالذَّكِيُّ، وَالْجَاهِلُ، وَالْبَلِيدُ، وَالْأَعْرَابِيُّ الْجَافِي، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ ذَلِكَ يَعْلَنُ بِذِكْرِهَا مِثْلَ قَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ﴾ [المعارج: 4]، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 192] ومثل

قَوْلِهِ ﷺ لِلْجَارِيَةِ: (أَيْنَ اللَّهُ؟) قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: (مَنْ أَنَا؟) قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: (أَعْتَقَهَا، فَإِنَّهَا مُؤَمَّنَةٌ)، وَهُوَ حَدِيثُ مَعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَمَالِكٌ فِي مَوْطِئِهِ، وَمِثْلَ قَوْلِهِ ﷺ فِي دَعَائِهِ: (رَبُّنَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحِمْتُكَ فِي السَّمَاءِ، اغْفِرْ لَنَا خُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحِمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى الْوَجْعِ)، فَيَبْرَأُ، وَهُوَ حَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَقَوْلُهُ (فِي السَّمَاءِ) أَيُّ: عَلَى السَّمَاءِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَيَسْجُدْ لِكُلِّ فَرْخٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: 2] أَيُّ: عَلَى الْأَرْضِ، وَكَقَوْلِهِ ﴿وَلَا صَلَّيْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: 71] أَيُّ: عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ، وَقَوْلُهُ ﷺ

لسعد بن معاذ: (لقد حكمت حُكماً حَكَمَ اللهُ به مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ) رواه ابن إسحاق، وغيره، ومثل قوله -عزَّ وجلَّ- ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27] ومثل قوله -عزَّ وجلَّ- لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ﴾ [ص: 75] وقوله ﷺ: (المقسطون على منابرٍ من نورٍ عن يمين الرحمن) رواه مسلم وقوله ﷺ: (إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط، ويحفظه، يُرفع إليه عملُ الليل، قبلَ عملِ النهار، وعملُ النهارِ قبلَ عملِ الليل، حجابُهُ النورُ، أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُهُ من خلقه) رواه مسلم، وغير ذلك من النصوص التي لا يتسع هذا المكان لإيرادها، وهي مدونةٌ في الصحيح والسُنَنِ كحديث: (لله أشدُّ فرحاً بتوبة العبدِ من رجلٍ كانت معه راحلته...) الحديث، وكما جاء في الصحيح: (ثمَّ يتجلَّى ضاحكاً)، وحديث: (ثمَّ يضعُ قدمه في النارِ) وفي لفظ البخاري: (ثمَّ يضعُ رجله، فتقول: قط قط)، وغير ذلك، ومعلوم أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- أمرَ نبيه ﷺ بالبيان في قوله -عزَّ وجلَّ- ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44] ومن المحالِ أن يكونَ لهذه الآياتِ والأخبارِ معانٍ خفيةٌ لا يدلُّ عليها الظاهرُ اللائقُ بالله -عزَّ وجلَّ- إذ لو كان كذلك، وقد أمره الله -عزَّ وجلَّ- بالبيان لوجبَ عليه ﷺ أن يذكرَ للناسِ في مجالسه ذلك، ويحذِّرهم من أن يعتقدوا مُوجبها الظاهرَ، فيقول: إياكم أن تعتقدوا ظاهراً ما أقول من هذه الصفات، فإنَّ لهذه معانيَ أُخرَ غيرَ ذلك، فلم يُنقلَ عنه ﷺ ذلك في مدةِ عُمره أصلاً، ولا ضُبِطَ لنقله عنه في ذلك كلمةً واحدةً، تدلُّ على ذلك، ومن المحالِ أن تبقى الأمةُ محيرةً في دينها وصفاتِ ربِّها، في عصر الصحابةِ والتابعين، وتابعيهم، حتَّى يظهرَ فلانٌ في القرنِ الثالثِ، فيبيِّن للناسِ ما نزلَ إليهم، حيثُ كانت محيرةً فيؤوِّل (الاستواء) بالاستيلاء، و(النزول) بنزولِ الأمر، و(اليدين) بيدي النعمةِ والقدرة، و(الفرح) بكذا، و(التعجب) بكذا، فمن المحالِ أن يكونَ الرُّسول ﷺ قد خيَّرَ الأُمَّةَ، وجاء هذا، فبيِّن للناسِ دينهم، بل تركهم رسولُ الله ﷺ على بيضاءَ نقيَّةٍ ليلها كنهارها، وعلمهم كُلَّ شيءٍ حتَّى الخِراءة، فكيف يُعلمهم الأدنى، ويتركُ أمورَ

المعرفة التي هي رأس الدين، وعنوان اليقين مُهْمَلَةٌ، لا يُبَيِّن لهم فيها شيئاً، حتى يظهر دَجَال، فيَقْلِب الحقائق، ويُحَرِّف الكلم عن مواضعه؟!

كلا !! بل بَيِّن للناس أَمْر صفات ربهم⁽¹⁾ على ما هي عليه حقيقةً، ونفى التمثيل والتشبيه عنه، بقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] فأهل السنة يؤمنون بهذه الصفات، ويثبتون لله - عَزَّ وَجَلَّ - حقائقها اللائقة به، وينفون عن جلاله الظنون الكاذبة، والتمثيل بخلقه، وأهل الفِطْنة يَقْطَعُونَ بأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا سمعوا من نبيهم ﷺ في ربهم صفة، يَقَع فيها الاشتراك بالاسم، كانوا يثبتونها لله - عَزَّ وَجَلَّ - كما يليق بعظمته، لا كما يليق بالخلق، فإن قال القائل: فهذا الذي ذَكَرْتَ يقتضي أن يجعل هذه الآيات والأخبار حقائق لا يتجاوز في شيء منها، ولا يُعْرَض عن معنى شيء منها، فقد أَعْرَض عن معانيها قومٌ تصامموا عند إيرادها، وجعلوها من المتشابه، الذي لا يعلم تأويله إلا الله، فينقلون هذه الآيات والأخبار وقلوبهم معرضة عن معانيها، وأسماعهم متصاممة عن الإصغاء إلى حقائقها، يكرهون إيرادها، ويحبون من يسكت عنها، ولو أمكنهم كسبها من المتون فَعَلُوا، تَضَطَّرَب قلوبهم عند سماعها، فراراً من حقائقها، فيقال: هذا جهل منهم بالحقائق، وذلك لأن الله - عَزَّ وَجَلَّ - لم ينزل هذه الصفات إلينا إلا لنؤمن بها، ولنعرف الموصوف بها، فنعرفه بأنه على العرش استوى، وبأنه موصوف بالوجه الكريم ذي⁽²⁾ الجلال والإكرام، وموصوف باليدين المبسوطتين، وموصوف بكذا وكذا، وموصوف بالتزول في الثلث الأخير، وليلة النصف من شعبان ويوم عرفة، كما جاءت به النصوص، فعرفناه - سبحانه - بهذه الصفات، وتأكدت معرفته في قلوبنا بها، فَقَوِيَتْ بها قلوبنا، وأشرقَتْ بها بصائرنا، وتوجهت إليه - سبحانه وتعالى - قلوبنا في عبادته، من الصلاة والذكر والتلاوة، فلماذا نفر منها، ومن معانيها؟ وما الموجب

(1) كانت في النسخة: "صفات أمر ربهم".

(2) في المخطوطة: المذوي !!.

لانتقاضنا عند ذكرها، والفرار منها؟ بل والله تنشرح قلوبنا عند ذكرها، ونزداد بها بصيرة وإتقاناً ومعرفةً، ولا يلزم من إثباتنا لها كما يليق بعظمة الرب - عز وجل - أن نُشبهه بخلقه، والإثبات بحقائق الصفات مرتبة معلومة، والتشبيه مرتبة زائدة على الإثبات، ونسلك فيها طريقة السلف لا نبتدع شيئاً بل نُثبت ما أثبتوه، ونتجاوز فيما تجوزوه، ونُمر ما أمرؤوه، فلا بُد من اعتقاد السنة، وهو ما وردت النصوص به، ولا بُد مع ذلك من سلوك الطريقة في السنة، وهي طريقة السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، فمن اتبع السنة ولم يسلك فيها الطريقة ابتدع وضلّ سواء السبيل، ومن أراد معرفة طريقة السلف في ذلك وحذوهم، فلينظر: (كتاب التوحيد) للإمام محمد بن إسحاق بن حزيمة و: (كتاب النقص) للإمام عثمان بن سعيد الدارمي، فيعرف بهذين الكتابين أن ذلك القرن، والذين قبلهم كانوا على ما أشارا إليه في كتابيهما، والله أعلم.

فصل

فإذا تقررت العقيدة في القلب، وانشرح لها الصدر، فحينئذ يسلك العبد طريقة الاتباع، وأوّل ذلك أن يجعل رسول الله ﷺ شيخاً وإماماً ومؤدباً، كما جعله الله - عز وجل - نبياً ورسولاً، فتعلق به كما تتعلق الفقراء في زماننا بشيوخهم، فتراهم عارفين بأمرهم، وحركاتهم وآدابهم، فكذلك من يسلك طريقة الاتباع، يتعين عليه الوقوف على سيرة النبي ﷺ، وشماله ومعجزاته، وآياته ووقائعه وغزواته، وآدابه وأخلاقه، وقد صنّف العلماء في ذلك كتباً طويلة ومختصرة، وفي الصحيح من ذلك ما يُغني ويكفي، لكن المسانيد والسُنن والمغازي توضح المجملات، وتطوّل المختصرات، فليطالع العبد من ذلك ما أمكنه، إلى أن ترسخ معالم النبوة في قلبه، ويصير عارفاً بنبيه ﷺ، بآثاره وسكناته، ثم يقوم باتباعه على قدر إمكانه، ويرجو بذلك أن تفيض أنوار الشيخ المتبوع على قلب المريد المتبع، ويُرزق بذلك من الخير قسطاً وافراً، لا يحصل بالتقيد بشيخ من مشايخ الزمان يدعو إلى طريقة نفسه، لا إلى طريقة نبيه ﷺ.

ويرجو أن يُفَتِّحَ للعبد فهم القرآن عن الله - عَزَّ وَجَلَّ - في الصلاة وغيرها، فيشهد العبد في التلاوة كأنَّ الرَّبَّ - عَزَّ وَجَلَّ - يُخَاطِبُ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْجُمْلِ والتفاصيل، وهذا أعظم فائدة تحصل من بركات الاتباع، بحيث يُفَتِّحُ الْقَلْبُ لفهم القرآن، وشهود الإيمان فيه بنور اليقين.

فصل

ربما يَرُدُّ على الحاكم أمورٌ يَشْتَبِه عليه الحكم فيها، فيلحَقُه فيها تحير، فليفتقر العبد في ذلك إلى الله تعالى عند ذلك حقيقة الافتقار، ويَدِينُ اللُّجُوءَ إليه، فيرجو أن يكشف له الظلمات، ويتنزل الهدى من ربِّ البريات.

فصل

وإذا اجتمع على القلب في القضاء بين الناس آثارٌ من كلامهم وخصوماتهم، فليجتهد العبد على الحضور في الصلاة، وليمط عن قلبه تلك الآثار، وإن عُسِرَ عليه ذلك، فطريقه أولاً: الاستعانة بالله تعالى في إيراد معاني التوجه، والفاحة والسورة، على محلِّ سماع القلب، فيكون ذلك جلاءً لتلك الآثار بعون الله تعالى، وهذه السُنَنُ الرواتب قبل الفريضة من بعض حكم الله تعالى فيها، هذا وهو أن العبد إذا صلى السُنَّة قبل الحضور، وإلقاء السَّمْع تنجلي عن قلبه الكدورات، فيقوم العبد إلى الفريضة وقلبه صافٍ، خالٍ من الكدر، لمناجاة ربه عَزَّ وَجَلَّ.

ومما يُعَيِّنُ على جلاء القلب عند كدِّره توجه القلب إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ فَوْقِ الْعَرْشِ وَالْأَكْوَانِ، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] فهو العليُّ الأعلى فوق الكائنات، فيرجى بدوام التوجه إلى مِنْ فَوْقِ الْعَرْشِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في الصلاة والذكر والتلاوة، أن يُرْزَقَ القلب أنواراً تفيض على القلب تنجلي بها كدورته، وتتنور بها ظلُمته.

والعرش المجيد قِبْلَةُ الْقُلُوبِ، كما أن الكعبة الشريفة قِبْلَةُ الْأَجْسَادِ، وهذا خاص لأهل السنة، لا يَذُوقُه أهل التعطيل، فإنك تراهم في العبادة حائدين عن

وَجِهَةٌ مَعْبُودِهِمْ، حائرين فيه، قد عرفوه بأنه: لا فوق، ولا تحت، ولا داخل، ولا خارج، ولا مُنفصل، ولا مُتَّصِل، وهذه صفات المعدوم، فلا تتوجَّه قلوبهم في الصلاة إلى جِهَةٍ رَبِّهِمْ، ويقولون: كيف نَحْضُرُهُ في جِهَةٍ؟ فيقال لهم: هو سُبحانُهُ وتعالى لا تَحْضُرُهُ الجهات، أو الجهات في الكون، والرَّبُّ - عَزَّ وَجَلَّ - فوق الجهات والأماكن، وأهل السنة يَعْرِفُونَ أَنَّ مَولاهم - سُبحانُهُ وتعالى - فوق عَرْشِهِ، بَاطِنٌ مِنْ خَلْقِهِ بِفُوقِيَّةٍ تَلِيْقُ بِعَظَمَتِهِ، وقد ثَبَتَ النُّقْلُ عن ابن المبارك - رحمه الله - أنه سُئِلَ: بِمَ نَعْرِفُ رَبَّنَا تَعَالَى؟ فقال: بأنه على عَرْشِهِ، بَاطِنٌ مِنْ خَلْقِهِ. رواه الدارمي في (كتاب النقض)، ويروى مثله عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه، بمعناه، وكذا عن جميع السلف رضي الله عنهم، فإذا جَلَسُوا يَحْكُمُونَ بَيْنَ النَّاسِ يَتَعَقَّدُونَ أَنَّ رَبَّهُمْ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ يَرَاهُمْ، وَيَرَى مَكَانَتَهُمْ وَيَسْمَعُ أَحْكَامَهُمْ، فَيَتَحَرَّوْنَ الصَّوَابَ، وَاتِّبَاعَ الْحَقِّ لِمَوْضِعِ نَظَرِهِ وَسَمْعِهِ وَعِلْمِهِ، فَيُؤَفِّقُونَ - بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى - لِفَصْلِ الْقَضَاءِ عَلَى التَّمْيِيزِ الَّذِي يُحِبُّهُ مَولاهم ويرضاه، وإذا قاموا إلى الصلاة، فكذلك يُراقِبُونَ مَولاهم، وَيَتَوَجَّهُونَ بِقُلُوبِهِمْ إِلَى غُلُوبِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَتَنْزِلُ الْأَنْوَارُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ سُبحانُهُ وَ(يُلْمُ) ⁽¹⁾ الْحَمْدُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيُزْرَقُونَ الْخَشْيَةَ الْمُحَضَّةَ بِالْعِلْمِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28] وقال تعالى في صفة الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50] وقال تعالى في صفتهم: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: 19] ونسأل الله الكريم أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه، ويجنبنا أجمعين عما يكرهه ويُسَخِّطُهُ ولا يرضاه.

فصل

ومما يُحِبُّهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنَ الْحَاكِمِ أَنْ يَقْمَعَ أَهْلَ التَّعْطِيلِ وَيُخَذِّلَهُمْ وَيَعْظُمَهُم

(1) كلمة غمضت علي، يشبه رسمها: (يُلْمُ بمعنى: ينزل ويزور ويرتاد، فلعلها هي. والله أعلم.

إِذَا نَفَعَتِ المَوْعِظَةُ، وَيَأْمُرُهُم بِالسَّكُوتِ وَالْإِمْرَارِ إِذَا لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُمْ الْإِثْبَاتُ وَالْإِيمَانُ، فَيَرْجُو بِذَلِكَ حُصُولَ رِضَا الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

كَانَ بَعْضُ الْإِخْوَانِ إِذَا ظَهَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْبَغْيِ، يَدْعُو رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وَيُقَسِّمُ عَلَيْهِ بِالصِّفَاتِ الَّتِي نَفَّوْهَا أَنْ يَكْفُفَ بِأَسْهَمِهِمْ، وَيَقُلُّ حَدَّهُمْ، فَيُسْتَجَابُ لَهُ بِكَرَمِ اللَّهِ.

فصل

وكَذَلِكَ إِذَا تَظَاهَرَ قَوْمٌ بِمَحَبَّةِ الْإِلْحَادِ، وَالتَّعْظِيمِ لَهُمْ - وَهُمْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ الْمَارِقَةُ كصاحب (الفصوص) وأتباعه، ومُحِبِّيهِ، طَهَّرَ اللَّهُ الْأَرْضَ مِنْ أَنْجَاسِهِمْ - وَأَمَكَّنَ الْحَاكِمَ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَلْيَفْعَلْ مَا اسْتَطَاعَ، فَهَؤُلَاءِ قَلْبُوا الْحَقَائِقِ، وَأَتْلَفُوا الْأُمَّةَ وَأَضَلُّوْهَا، اجْتَمَعْنَا بِأَتْبَاعِهِمْ وَطَائِفَتِهِمْ فِي الْأَسْفَارِ، وَالرُّبُطِ، وَالْخَوَانِقِ، وَوَقَّفْنَا عَلَى سُوءِ عَقَائِدِهِمْ وَانْحِلَالِهِمْ، وَدَعَوَاهُمْ الْعَرِيضَةِ - قَاتَلَهُمُ اللَّهُ - وَرُبَّمَا يَتَأَوَّلُ لَهُمْ مُتَأَوِّلٌ، وَيُقَيِّمُ أَعْدَارَهُمْ صِيَانَةً لِلْخِرْقَةِ، وَلَا يَشْعُرُ أَنَّ ذَلِكَ خِذْلَانُ الدِّينِ، وَخَرَقُ فِيهِ، فَهُوَ يَصُونُ الْخِرْقَةَ وَيُخَرِّقُ الدِّينَ، فَلَا جَزَاهُمْ اللَّهُ عَنْ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَنْ دِينِهِ خَيْرًا، كَمَا يُسَدِّدُونَ أَقْوَالَ أَعْدَائِهِ، وَقَدْ خَرَقُوا سَفِينَةَ دِينِهِ، فَكُلُّ مَنْ مَهَّدَ أَعْدَارَ الْمَلْحَدَةِ، أَهْلَ التَّلْحِيدِ، فَقَدْ وَطَأَ لَضَلَالِهِمْ مِهَادًا، وَجَعَلَ لِمَنْ تَبِعَهُمْ شُبْهَةً يَتَعَلَّقُ بِهَا.

لَوْ يَعْلَمُ الْجَاهِلُ مَا يَلْقَى غَدًا مِنْ رَبِّهِ؟ وَيَحْكُ !! انْظُرْ فِي كُتُبِهِمْ وَتَصَانِفِهِمْ إِنْ كَانَ لَكَ عَقْلٌ، بَلْ هُوَ جَامِدٌ عَلَى عِمَاءِ وَضَلَالَتِهِ، يُمَهِّدُ أَعْدَارَ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَيُقَيِّمُ جَاهَهُمْ بِالْوَهْمِ الْفَاسِدِ، وَيَذُبُّ عَنْهُمْ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ بِذَلِكَ يَخْذِلُ الدِّينَ وَيَضَعُهُ، وَكُلُّ حَقِيقَةٍ لَا تَوَافِقُ الشَّرِيعَةَ فَهِيَ زَنْدَقَةٌ مُرْدُودَةٌ، مَطْعُونٌ عَلَيْهَا، وَعَلَى قَائِلِهَا⁽¹⁾.

(1) هذا الموضع من كلام المؤلف يُخَطَّرُ بِالْبَالِ هذا السؤال: هذا القاضي الذي كتب إليه أهو محمد بن السراج الدمشقي (ت 748هـ) ؟ ذلك احتمال قوي.

فصل

وكذلك الحاكم إذا وَضَعَ مِنْ أَهْلِ هَذَا الشَّعَارِ الْفَاسِدِ، شَعَارِ أَهْلِ الرُّفُصِ وَالسَّمَاعِ، مِنَ الْأَحْمَدِيَّةِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الْحَيَّاتِ، وَيَنْزِلُونَ النَّارَ، وَيَجْتَمِعُونَ بِالنِّسَاءِ وَغَيْرِهِمْ، مِنَ الطَّوَائِفِ الضُّلَّالِ الْمُبْتَدِعَةِ، الَّذِي أَتَوْا بِشَعَارِ مُحَدِّثٍ مُبْتَدِعٍ، أَضَلُّوا بِهِ عِبَادَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاشْتَغَلُوا عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى نَهْمَتُهُمْ جَلْسَةُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْفَتُوحِ، فَإِنَّ الْحَاكِمَ يُثَابُّ عَلَى ذَلِكَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وَيَكُونُ مِمَّنْ نَصَرَ السَّنَّةَ وَخَذَلَ الْبِدْعَةَ وَأَهْلَهَا.

فصل

يَجْمَلُ بِالْحَاكِمِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِيعَادٌ يَقْرَأُ فِيهِ أَحَادِيثَ الرَّسُولِ ﷺ، وَيَتَكَلَّمُ عَلَى الْحَدِيثِ بِنَفْسِ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ، كَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ، وَسُفْيَانَ، وَابْنَ الْمُبَارَكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَمْثَالِهِمْ، لَا بِنَفْسِ أَهْلِ الْكَلَامِ، فَإِنَّهُ يَنَالُهُ بِذَلِكَ الْمَعْيَارِ بَرَكَةٌ خَاصَّةٌ تَخُصُّ نَفْسَهُ، وَبَرَكَةٌ عَامَّةٌ تَعُمُّ مَنْ يَلُودُ بِهِ، وَيُجَالِسُهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - فَإِنَّ الْحَدِيثَ مَادَّةُ الدِّينِ، وَيَنْبَغُ الْيَقِينَ، يَتَأَصَّلُ الْإِيمَانُ بِمَذَاكِرَتِهِ، وَتَنْمُو الْمَعْرِفَةُ بِتَرَدَادِهِ وَمَعَاوِدَتِهِ، وَتَنْزِلُ السَّكِينَةُ عَلَى الْقُلُوبِ، فَتَبْرِدُهَا مِنْ حَرَارَاتِ الشُّكُوكِ، وَتُثِيرُ الْهِمَمَ الرَّائِدَةَ لِقَصْدِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَتُظْهِرُ شُؤْنَ أُمُورِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، مِنَ الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْحَسَنَاتِ، وَالْمِيزَانِ وَالْجَنَّةِ، وَدَرَجَاتِ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ، وَدَرَكَاتِ أَهْلِ الدَّرَكَاتِ، وَفِي شُعُورِ الْقُلُوبِ بِذَلِكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

بِهِ يَحْصُلُ الْخَوْفُ وَالْخَشْيَةُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَتَعَلَّقُ الْأُمَالُ بِثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَشْتَأِقُ الْأَرْوَاحُ إِلَى مَعَايِنَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الْجَنَّةِ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ يَوْمِ الزِّيَادَةِ، وَرُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى، فَالْحَدِيثُ أَصْلٌ لِكُلِّ خَيْرٍ وَمِفْتَاحٌ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ عِلْمِيَّةٍ أَوْ عَمَلِيَّةٍ، وَمَرْقَاةٌ إِلَى كُلِّ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ أَهْلِ السُّبُقِ، وَاللَّهُ يُوفِّقُ، وَيَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

فصل

ولا ينسى الحاكم في مجلس الحكم أن الله - سبحانه وتعالى - يُخَصِّرُهُ بين يديه يوم القيامة، ويسأله عن كُلِّ حُكْمٍ حَكَمَ فيه، هل وافق شَرْعَهُ ودينه، [أو] لا ؟ فيكونُ في حُكْمِهِ خائفاً مُتَوَقِّفاً، مُتَأْتِياً، مفتقراً إلى ربه - عَزَّ وَجَلَّ - في توفيقه وتسديده، متخييراً للحَقِّ مجتهداً فيه، مساوياً بين الخصوم، لا يميلُ إلى أحدهما لصداقةٍ، أو مودةٍ أو قرابةٍ، أو نفعٍ متوقعٍ، بل يُسَوِّي بين الخصوم في الحكم والمجلس والكلام، وميل القلب، فيحفظ قلبه أن يميل إلا مع صاحب الحق، فهذا سلوكٌ لمن أقامه الله - عَزَّ وَجَلَّ - في القضاء، فجعل القضاء طريقاً له إلى الله تعالى، فيكونُ بذلك من الأئمة الراشدين، والقضاة العادلين المقسطين، الموعودين بمنابر النور عن يمين الرحمن، وهذا آخر ما فَتَحَهُ اللهُ تعالى وَيَسَّرَهُ امتثالاً للمرسوم الكريم، حيثُ كرهتُ المخالفة، وأحببتُ الموافقة، وسلامُ الله على من اتبع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى، وصلى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وآلِهِ وصحبه وسلِّم.

تَلْقِيحُ الْأَفْهَامِ
فِي مُجْمَلِ طَبَقَاتِ الْإِسْلَامِ
وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ
وَافْتِرَاقِهِمْ فِي سَعَايَاتِ الْقُلُوبِ وَالْأَجْسَامِ

مِنْ دَرَجَةِ التَّنَازُلِ، وَأَهْلِ الْإِتِّحَادِ، إِلَى أَهْلِ الْجَذْبَةِ وَالْمَحَبَّةِ الْخَاصَّةِ، مِنْ قِسْمِ
الْمُرِيدِ وَالْمُرَادِ، فَيَتَبَيَّنُ لَكَ فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَيْفَ تَضَعْدُ بِهِمْ
الْفَضَائِلُ مِنْ تِلْكَ الدَّرَكَاتِ دَرَجَةً دَرَجَةً إِلَى كَمَالِ النِّهَايَاتِ.

فَهْرَسْتُ الطَّبَقَاتِ

وليس ترتيبُ الفهرستِ على ما في الكُرَاسِ، فإنَّه يَتَدَاخَلُ بَلْ هُوَ على ترتيبِ
الطَّبَقَاتِ، فإنَّه مِنَ الأدنى إِلَى الأعلى:

- أهلُ الشَّهَادَةِ مِنَ التُّنَارِ.

- أهلُ الاتِّحَادِ.

- الرَافِضَةُ.

- الجَهْمِيَّةُ.

- أهلُ الوَلَةِ وَأَكْلِ الحَيَّاتِ.

- الفقيه الذي يَطْلُبُ بعِلْمِهِ الدُّنْيَا لَا غَيْرَ.

- الفقير الذي يَطْلُبُ بفَقْرِهِ الدُّنْيَا لَا غَيْرَ.

- الصوفي الذي يَطْلُبُ بِرِسْمِهِ التَّأْكُلَ.

- الفقيه المَخْلِصُ بأَعْمَالِهِ كُلِّهَا ظَاهِراً وَبَاطِناً، المُسْتَعِدُّ لِلْآخِرَةِ.

- الفقيه العامل الذي وَصَلَ تَقْوَاهُ إِلَى بَاطِنِهِ.

- الفقيه المَكْمَلُ لتَقْوَى الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ، الذي بَاشَرَ قَلْبُهُ نَوْرَ الصِّفَاتِ، الذي

جَمَعَ ذَلِكَ العِبَادِيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى، الذي جَمَعَ ذَلِكَ المَحَبَّةَ الْخَاصَّةَ لِلَّهِ المَحْبُوبِ.

- المَطِيْعُ الذي أَخَذَتْهُ يَدُ المِنَّةِ إِلَى الجَذْبَةِ أَخْذاً، مع السُّلُوكِ بَعْدَهَا، وهو

أَعْلَاهُمْ طَبَقَةً، وَهُمْ ثَمَانِي عَشْرَةَ طَبَقَةً، وَاللَّهُ المَوْفِيقُ وَالمُعِينُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْقَائِمِ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، الْمُحْصِي عَلَيْهَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ، الْمَثِيبُ لَهَا فِيمَا أَحْسَنْتَ، وَالْمَعَايِبُ لَهَا فِيمَا اجْتَرَحْتَ، قِيَوْمٌ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَإِنْ خَفِيَثَ، وَلَا يَخْفَى عَنْ عِلْمِهِ دَبِيبُ الْخَوَاطِرِ وَأَعْمَالِ الْقُلُوبِ فِيمَا تَحَرَّكَتْ، لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَالْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، لَطِيفٌ بِمَخْلُوقَاتِهِ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ، قَسَمَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ الْأُمَّةِ نَصيباً مِنَ الْإِيمَانِ فَهُوَ حَظُّهَا عَلَتْ فِي الدَّرَجَاتِ بِهِ أَوْ بِالْقُصُورِ تَسَقَّلَتْ، وَالْآخَ لِكُلِّ مِنْهُمْ عِلْماً مِنْ مَرَاتِبِ الْيَقِينِ وَدَوَائِرِهِ، فَإِلَيْهِ يَنْتَهِي عِلْمُ أَحَدِهِمْ وَعَلَيْهِ تَتَّبِنِي أَعْمَالُهُ إِذَا خَلَصَتْ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، غافر الذنب وقابل التوب، ممن أسلم وجهه إليه وزكى نفسه فطهرت، شديد العقاب لمن حاد عن طريقته المثلى وعصيت نفسه وجمحت، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله نبي الرحمة، فأنواره عمّت وأمته بالفضل سبقت، صلوات الله عليه، وعلى آله وأصحابه ما طلعت شمس وأشرقت، وأبانت قريحة مبين ونطقت، أما بعد:

فإن الإنسان قد يدعي كمال الإسلام بلفظه بالشهادتين، ودخوله مع الناس في جماعاتهم وأعيادهم وصومهم وفطريهم، ويغيب عن طبقات أهل الإسلام ومراتبهم التي بالعلو فيها يكمل الكامل، وبالانحطاط عنها ينقص، ولكل درجات عند الله والله بصير بالعباد.

ومما يستعجب مثله ويستشكل أنه قد يجتمع معظم قلوب أهل العصر على إنكار حال رجل صحح قُصُودَهُ وَعُقُودَهُ، وَخَلَصَتْ أَعْمَالُهُ، وَزَكَتْ سَعَايَاتُهُ، وَكَانَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْعَدْلُ أَنْ يَظْهَرَ تَمَيُّزُهُ عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ بِمَا يُمَيِّزُ الْعُلُومَ الدَّقِيقَةَ وَالْأَعْمَالِ الْمَرْتَفَعَةَ إِلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، الظاهرة والباطنة، ولسنا نقصد رجلاً معيناً، بل أقصد الجنس، فيقال: كيف غابت عن الفهوم فضائله، وجهلت العقول مزيتته؟ فاستخرت الله تعالى في شرح قاعدة يُبَيَّنُ فِيهَا تَمَيُّزُ طَبَقَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ

بعض، ويظهر فيها القدر الذي وقع فيه الإشكال بين الطوائف، يحصل فيه التعارف والتألف، والقدر الذي وقع فيه التمييز فحصل بسببه التناكر والتباعد، ولا تعلم كل طائفة من غيرها إلا القدر الذي شاركها، ويغيب عنها ما امتازت به عنها، فتقر لها بما شاركها فيه لعلمها به، فتألف ما علمته وتتكبر ما امتازت به عنها لعدم شعورها بذلك، فتتناكر وتتباعد وتتباعد. ورتبته على فصول:

الفصل الأول

جميع المسلمين يشتركون في كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19] فقد يقر العبد بذلك باطناً، ويؤفه به ظاهراً، فيبقى بينه وبين عموم المسلمين قدر مشترك، ومن العموم كثير من التتر، وأهل الاتحاد والرافضة، بل والثلاث والسبعين فرقة، منهم الجهمية والمعتزلة والمرجئة، وغيرهم، فإذا قرأ كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ وتفقه فيهما، وعرف مراد الله - عز وجل - من عباده في الأمر والنهي، واعتقد وجوبه علماً، وتلبس به عملاً، وعلم أنه لا يخلص في الآخرة عند الله غير ذلك، ولا ينال رضاه إلا به، ولا يخلص العبد من عقاب الله، وينال ثوابه إلا به تميز بذلك عن التتر المقيرين بالشهادتين قولاً ومخالفاتهم حكمها عملاً، والرجوع عند الأحكام إلى (الياساق) شريعة جنكس خان، ومن خلفه صناديد الضلال والطغيان، فلو فرضنا: أقر بالشهادتين ولم يعتقد وجوب الأمر والنهي، أو اعتقد ذلك وخالف المعتقد بعمله لكن بينه وبين الفرق الضالة قدر مشترك، وربما أمكنه مخالطتهم ومعاشرتهم، وربما أحبهم وأحبوه لعدم التمييز بينهم وبينه. والعقائد والأعمال مما توجب التميز من ذلك، ولو فرضنا ذلك الشخص بعينه في أوان مخالطته ومحبة لهم، اعتقد وجوب الأعمال لصار بينه وبينهم قدر مميز لو ظهر حكم اعتقاده لربما وقع بينه وبينهم مغايرة، وكذلك لو ظهر العمل كانت المغايرة أشد، والموجب للتباعد والمخالفة أظهر، فقد ظهر أنه بمجرد اعتقاده لموجب العمل مع التلبس بالعمل قد امتاز بذلك عن مسلمي التتر.

فصل

ولو فرضنا هذا المسلم بعينه اقتبس من الكتاب والسنة أن الإله المعبود، هو ذات منفرد بنفسه عن جميع مخلوقاته بائن منها، ومخلوقاته بائنة منه، وأن الوجود المطلق المقيد في كل شيء خلق من خلق الله وصنع من صنعه، وأن الله - عز وجل - لم يظهر لنفسه ظهوراً في المخلوقات، ولا ظهر ذاته في المخلوقات أصلاً، كما يزعم ذلك أهل المعتقد الفاسد، من أهل المغرب والروم⁽¹⁾، فعندهم أنه كان مطلقاً لا يتصور أن يرى نفسه في الخارج مع الإطلاق، فأفاض وجوده على الأشياء الثابتة في عدمها، فلما أفاضه على الأشياء تقيّد ذلك المطلق في كل متعين، فرأى نفسه في الخارج بواسطة ظهور الأشياء المتفرقة المتعددة كما قال قائلهم:

رَأَيْتَ نَفْسَكَ فِينَا وَهِيَ وَاحِدَةٌ كَثِيرَةٌ ذَاتُ أَسْمَاءٍ وَأَوْصَافٍ

فكل شيء هو باعتبار الوجود المطلق، وليس باعتبار الكثرة والتعدد، فهؤلاء عندهم - مثلاً - الحيوان أصله من النطفة، والنطفة أصلها من الغذاء، والغذاء من النبات والحيوان وأصلهما من السماء، وماء السماء متكون من السحاب، والسحاب متكون من البخار، والبخار - مثلاً - من مظاهر الوجود المطلق، فظهر الوجود في البخار وظهر السحاب من البخار، وظهر الماء من السحاب، وظهر النبات من الماء، وظهرت النطفة من اغتذاء الحيوان بالنبات، ويكون الحيوان من النطفة، فظهر هذا الحيوان في الوجود، فعاش ما قسم له أن يعيش، ثم مات، فالتحقت ناريته بمركز النار، وهوائيته بمركز الهواء، ونشفت مائيته الهواء، والتحقت ترابيته بالتراب، فذهب كأن لم يكن. فعند المسلمين هذا خلق الله وصنعه. برز بحكم المشيئة، وأقامته القدرة، وعاش مقدار ما قسم له، ثم أفناه الله - عز وجل - وأذهب كما أحياه وأظهره ليستدل بذلك على صنعه ونفوذ حكمه وقدرته، ولطائف حكمته في أنواع ما أظهره،

(1) الروم هنا بلاد الأناضول.

فَعَبَدَ هَذَا الرَّبَّ الْعَظِيمَ الْخَالِقَ الْفَاطِرَ الْبَاطِنَ عَنْ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِهِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ. هَذَا هُوَ مَعْتَقِدُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

وَمَعْتَقِدُ الْفِرْقَةِ الضَّالَّةِ أَنَّ الظَّاهِرَ فِي الْبَخَارِ، وَالسَّحَابِ، وَالْمَاءِ، وَالنَّبَاتِ، وَالْحَيَوَانِ، هُوَ اللَّهُ بِنَفْسِهِ وَذَاتِهِ ظَهَرَ الْوُجُودُ الْمَطْلُوقُ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَوِّعَةِ، فَيَرَى نَفْسَهُ فِيهَا، إِذْ لَوْلَا فَيْضُ الْوُجُودِ عَلَى الْأَشْيَاءِ مَا ظَهَرَ الْوُجُودُ فِي الْخَارِجِ وَكَانَتِ الْأَشْيَاءُ - عَلَى زَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ - ثَابِتَةً لَا وُجُودَ لَهَا، فَأَكْسَبَهَا مِنْ ذَاتِ وَجُودِهِ، فَظَهَرَتْ بِعَيْنِ وَجُودِهِ، فَهُوَ الظَّاهِرُ فِيهَا، وَهِيَ الظَّاهِرَةُ لَهُ، وَهُمْ يَفَرِّقُونَ بَيْنَ الثَّبُوتِ وَالْوُجُودِ، فَعِنْدَهُمْ ظَهَرَ الْوُجُودُ الْمَطْلُوقُ فِي الْخَارِجِ بِوَاسِطَةِ هَذَا الْحَيَوَانِ، فَلَمَّا مَاتَ رَجَعَ الْمَقْيَدُ الَّذِي فِيهِ الْإِطْلَاقُ. وَهُوَ مَذْهَبٌ بَاطِلٌ فَاسِدٌ، مَا سَبَقَهُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ اللَّهْمُ إِلَّا مَا يُنْقَلُ عَنْ جَهَمِ بْنِ صَفْوَانَ، فِي كَلَامٍ لَهُ بِأَنَّ الْمَعْبُودَ هُوَ الْهَوَاءُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ، وَيَقُولُ بَشْرُ الْمَرِيسِيِّ: سُبْحَانَ رَبِّي الْأَسْفَلَ، وَتَسْمِيَّتُهُ لِلسُّورَةِ كَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا لَا تَخْلُو مِنْهُ إِذْ لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ، فَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ نَفَذُوا فِي هَذَا الْأَصْلِ، الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمَرِيسِيُّ، فَصَارَ لَهُمْ هَذَا الْمَعْتَقِدُ الْفَاسِدُ حَالًا وَمَشْهَدًا، حَيْثُ كَانَ فِي جَهَمِ وَالْمَرِيسِيِّ مَعْتَقِدًا، فَلَوْ فَرَضْنَا شَخْصًا عَرَفَ فَسَادَ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، وَكَوْنَهُ سُبْحَانَهُ بَاطِنٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، صَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِتِّحَادِ قَدْرٌ مُمَيِّزٌ بَعْدَ أَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ قَدْرٌ مُشْتَرِكٌ مِنَ اللَّفْظِ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَالصَّلَاةِ، فَرُبَّمَا أَنْكَرَهُمْ - إِذَا عَرَفَ الْحَقَّ - وَأَبْغَضَهُمْ، وَلَمْ يُمَكِّنْهُ مَلَاسِثُهُمْ، وَأَبْغَضُوهُ - أَيْضًا - لظُهُورِ الْقَدْرِ الْمُمَيِّزِ فِي عُمُومِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَكَمَالِ أَرْكَانِهِ فِي الْمَعْتَقِدِ وَالْعَمَلِ.

فصل

وَلَوْ فَرَضْنَا ذَلِكَ الْمُسْلِمَ بَعِيْنَهُ الَّذِي تَلَفَّظَ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُمُومِ النَّاسِ، مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ قَدْرٌ مُشْتَرِكٌ اقْتَبَسَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مَعْرِفَةً فَضْلِ الصَّحَابَةِ وَالْعَشْرَةِ، وَامْتِيَازَ الشَّيْخَيْنِ الصِّدِّيقَيْنِ - أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ بِمَزِيدِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْقُرْبِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْحَالِ

والقَدْر، وعرفَ صَحَّةَ خلافتيهما، وإجماعَ الصحابةِ على ذلك - وإجماعُهُم يستحيلُ معه الخطأ - وعَلِمَ فضلَ عائشةَ، والنصوصَ الواردةَ في فضلِها وبراءتِها، وعرفَ - أيضاً - أَنَّ الخيرَ والشرَّ يَجري القَدْرُ بهما، والعبدُ مع ذلك مكَلَّفٌ يُجازَى على الأعمالِ بالثوابِ والعقابِ، وإنْ كانتْ من قَدْرِ الله، ويكونَ الخيرُ على كَسْبِ العبدِ وحركةِ جوارحه، وإنْ كان منشأ ذلك كَلَهُ مِنَ القَدْرِ، ويعرفُ وجوبَ الجمعةِ والجماعةِ - إذ الجماعةُ واجبةٌ عندَ أحمدَ رضي الله عنه، وعندَ الشافعيِّ رضي الله عنه، سنةٌ مؤكدةٌ لو اجتمعَ أهلُ بلدٍ على تركِها قوتلوا، وأمَّا وجوبُ الجمعةِ وكونُها فرضٌ عينٍ فمجمعٌ عليه - فإذا عرفَ هذا الشخصُ المقرُّ بالشهادتين هذه الأشياءَ، واعتقدَها اقتضى منه الاعتقادُ أعمالاً ظاهرةً لمحبةِ أهلِ الشُّنَّةِ والرضا عن الصحابةِ، والمسارةِ إلى الجمعةِ والجماعةِ، والاستعاذةِ بالله من سوءِ القضاء، فيبقى بهذه العقائدِ والأعمالِ مفارقاً للرافضةِ متميّزاً عنهم، وإنْ اجتمعَ الكلُّ على كلمةِ التوحيد: لا إله إلا الله، محمدٌ رسولُ الله ﷺ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُ ﴿[آل عمران: 19]

فصل

ولو فرضنا هذا المسلم الذي نطقَ بالشهادتين استخرجَ من النصوصِ الشرعيةِ الثابتةِ عن رسولِ الله ﷺ أحاديثَ الصفاتِ، وعرفَ نَفْسَ الصحابةِ وتابعيهم وأئمةِ الحديثِ فيها، من النقولِ الثابتةِ عنهم، وأيقنَ بقلبه بأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - عالٍ على مملكته، مُسْتَوٍ على عَرْشه، قديرٌ عليهم سميعٌ بصيرٌ، ذو السمعِ السميعِ، والبصرِ البصيرِ، واليدينِ والقبضتينِ والوجهِ الكريمِ ذو الجلالِ والإكرامِ، ينزلُ إلى سماءِ الدنيا - كما يشاء - ويعجبُ، ويفرحُ، ويضحكُ، ويرضى ويغضبُ، كُلُّ ذلك كما يليقُ بجلالِ الله وعَظَمَتِهِ، يُثَبِّتُ العبدُ كما يليقُ بعظمةِ جلالِ الله بحقائقها ومعانيها المفهومةِ عندنا على ظواهرها اللاتقةِ بالله - عزَّ وجلَّ - لصارَ بينه وبينَ الذين يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مواضعه، ويُعْطِلُونَ ذلك بالتأويلِ والتحريفِ قدرٌ مميّزٌ، فإنهم يُعْطِلُونَ الاستواءَ بالاستيلاءِ، والنزولَ بنزولِ الأمرِ، واليدينِ بيدِ النعمةِ والقدرةِ،

فَرَبَّمَا مَقَّتَهُمْ وَمَقَّتُوهُ، وَأَبْغَضَهُمْ وَأَبْغَضُوهُ، وَإِنْ اشْتَرَكَ الْجَمِيعُ فِي الشَّهَادَتَيْنِ وَأَعْمَالِهَا.

ولو فرضنا هذا المسلم الذي شارك الناس في النطق بالشهادتين تَفَقَّهُ في الدين وَعَرَفَ المداخلَ والمخارجَ، وَرَدَّ الحوادثَ إلى الأصولِ، وعَرَفَ تفاصيلَ ما يجبُ وما يحرمُ وما يكرهُ وما يُسنُّ وما يُستحبُّ اقتضى منه عِلْمُهُ بذلك التمسُّكُ بالدينِ والتباعدُ من المكارِهِ وإقامة الأوامرِ والمندوباتِ والسُّنَنِ امتازَ بذلك عن جهلاء المسلمين وعامَّتِهِمْ، الذين لا اعتناءَ لهم بالشرعية ولا بحمْلِ أُنْقَالِهَا، وإنما يتمسكون من الدين بأشياءَ ظواهرَ، في أوقاتٍ تَسْهُلُ عليهم إذ فيهم من لا يصلي - إلا أحياناً - أو في رمضانَ خاصةً، بل فيهم من لا يتركُ الجمعةَ في رمضانَ، وليس بينه وبين التراويحِ معاملةً، يُمكنُ أن يوجدَ فيهم مَنْ لم يُصلِّ التراويحَ عُمرُهُ فضلاً عن المواظبةِ عليها، ومثلُ هذا الجنسِ في تاركِي الصلاةِ إلا قليلاً، وفيهم مَنْ قد اعتادَ الفواحشَ المحرَّمةَ حتَّى صارت كالغذاءِ له، لا يستطيعُ أن يفارقَها، ولا يجدُ في قلبه النفرةَ عنها، وربَّما فرِحَ إذا قضى نَهْمَتَهُ منها، فإذا اجتمعَ الناسُ وأنكروا على شخصٍ آخرَ ذلك الفعلَ بعينه، ولعنوه شارَكَهُمْ في تقبيحِهِ ولعنه فاعله بصدقٍ، وذلك لأن هذا الإنكارَ يقتضيه دينُهُ، وعمله لتلك الفاحشةِ يقتضيه طبعُهُ، فطبعُهُ مخالفٌ لدينه، والصَّديقُ مَنْ صارَ طبعُهُ مطابقاً لدينه، لا يُحبُّ بطبعِهِ ما ياباه دينُهُ، فهو يُحبُّ ما أحبَّ الله ويُبغضُ ما أبغضَ الله.

ولو فرضنا هذا المسلم المقرَّ بالشهادتين عرفَ الأمرَ والنهي علماً واعتقاداً - وإن لم يكنْ به عاملاً - لامتازَ بمجردِ العلمِ دونِ العملِ عن معظمِ العامةِ باعتقاده وعِلْمِهِ، فإن القلبَ المصبغَ بالعلمِ والاعتقادِ - وإن لم يكنْ عاملاً - تَتَنَقَّشُ الوحشةُ فيه من ارتكابِ المناهي - وإن ارتكبها - والأنسَ بفعلِ الأوامرِ - وإن تركها - فيبقى بينه وبين العاميِّ الجاهلِ بالعلمِ والاعتقادِ قدرٌ كبيرٌ مميّزٌ، وإن اشتركا في تركِ الطاعاتِ وارتكابِ المناهي، فإن تحمَلَ أُنْقَالَ الشَّرِيعَةِ فعلاً وتركاً، فيبقى بينه وبينهم من القَدْرِ المميّزِ أكثرُ وأوفرُ، ربَّما استوحشَ من رؤيتهم وكلامهم فضلاً عن معاشرتهم، وربَّما أبغضَ حركاتِهِمْ وأنكرَهُمْ، وربَّما أبغضَهُمْ وأبغضوه لمخالفتهِ لهم

علماء وعملاً، ولإنكاره عليهم، فهل ذلك إلا لظهور القدر المميز الفارق بينه وبينهم، وإن جمّعهم الإسلام والعلم وكلمة التوحيد.

فصل

ولو فرضنا هذا المسلم المقرّ بالشهادتين الذي بين جميع الفرق قدر مشترك عَرَفَ طريقة الرسول ﷺ من سيرته وسنته، وَوَصَلَتْ دعوة الرسول ﷺ إلى قلبه بحيثُ انفتح القلبُ إلى وحي السماء، وانتبه أيضاً لصاحب الوحي، وعَرَفَ أسرار الدعوة، ومُرَادَ الرَّبِّ -عزَّ وجلَّ- من العباد، وانكشف للقلب ما يُحِبُّه ويرضاه، من الأعمال وما يكرهه ويشخطه منها، وشرب القلب حلاوة السُنَّة، وطرب إلى الاستماع إلى القرآن والحديث، وصار له في الحديث مَشْهَدُ النبوة يشهد صاحبها فيه، بكمال صفاته ومعجزاته، وبواهر آياته، فيألفه ويحبُّه ويتبعه قَدْماً قَدْماً، وصار له في الكتاب العزيز مَشْهَدُ الإلهية والرُّبُوبِيَّة يشهد المولى العظيم من فوق عَرْشِهِ قد أنزل كتابه على رسوله ﷺ يأمرُ وينهى، ويخوفُ ويرجى، ويرغبُ ويرهبُ، ثم أوقفه الله تعالى على طبقات الأمة إلى القرن الذي هو فيه، وعَرَفَ مناهجهم، ومذاهبهم، وعرف منهم أشخاصاً بزيادة محبتهم لقرّبهم من السُنَّة، وأبغض آخرين لبعدهم عنها، واتضحَتْ طريقه إلى الله، وإلى معرفته ومعرفته رسوله، فصارت أضواء من النهار، تُشرقُ على قلبه مشاهد العظيمة، ويعرف الأنبياء والرسل -صلوات الله عليهم - بعلو منزلتهم ومكائنتهم من ربهم العظيم، الذي أرسلهم ونبأهم ويحبهم في الله، ويرى ما اكتنفهم من الأنوار الإلهية، وما خُصُّوا به من القُرب الأعظم، فإنَّه ضرورةً لِيُبْقِيَ بينه وبين أهل الطريق المنحرفة قدراً مميزاً فارقاً، وإن وقع الاشتراك في اللفظ بالشهادتين، والدخول في عموم أحوال الإسلام، من الجمعة، والعيد، والصوم، والفطر، وهم طوائف أعرضوا عن طريقة الرسول ﷺ، وأعرضوا عن تعرّفها، وعن السلوك فيها، واتَّخذوا طريقة شيخ معيّن، فحذَّوا حذَّوه، وأخذوا لنفوسهم ما أخذوه، فجعلوا حركاته وأعماله وعاداته وعادات أصحابه سُنناً معروفةً،

يُعرضونَ عَمَّا سِوَاهَا، وَلَا يَعْرِفُونَ غَيْرَهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَ السَّمَاعَ عِبَادَةً وَدَيَّدَنَّا، وَالْاجْتِمَاعَ عَلَيْهِ شِعَاراً يَتَأَكَّلُونَ بِهِ الْجَهَالَ وَالْغَفْلَةَ الْفَلَاحِينَ، وَيَدْخُلُونَ عَلَى الظُّلْمَةِ وَيُدَاهِنُونَهُمْ، لَمَّا يَرْجُوهُ مِنْ نَوَالِهِمْ. لَا يُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ صَحِبَ الْأَحْدَاثَ، وَيَرُونَ أَكْلَ الْحَيَّاتِ مِنْ كَرَامَاتِ شَيْخِهِمْ، وَدَخُولَ النَّارِ عَلَى رُؤُوسِ الْمَلَأِ - أَيْضاً - يَغْدُونَهَا لِشَيْخِهِمْ كَرَامَةً، يُيَاهُونَ النَّاسَ وَيَفْتَخِرُونَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَيَقَعُونَ فِي الْحَرَامِ مَعَ الدَّعْوَةِ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْقَطْعِ وَالْوَضَلِ، وَلَمْ تَصِلِ الدَّعْوَةُ الْمَحْمَدِيَّةُ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَلَا بَاشَرَتَهَا بَرَكَةُ الْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ، يَرْوِجُونَ عَلَى عَمُومِ النَّاسِ بِمَا يُظْهِرُونَ مِنَ الزِّيِّ، وَالْاجْتِمَاعِ عَلَى رُؤُوسِ لَهُمْ يَصْدُمُونَ بِهِ الْأُمَرَاءَ وَأَهْلَ الْعَطَاءِ يَتَأَكَّلُونَ بِذَلِكَ، فَيَتَمَيَّزُ عَنْهُمْ مَنْ بَاشَرَ قَلْبُهُ الْوَحْيَ السَّمَاوِيَّ وَالْأَثَرُ النَّبَوِيُّ امْتِيَازاً بَيِّنًا، وَرَبَّمَا أَبْغَضَهُمْ وَأَبْغَضُوهُ، وَمَقْتَهُمْ وَمَقْتُوهُ، وَرَأَوْهُ ضِدًّا وَغَيْرًا، وَيَرَاهُمْ كَذَلِكَ، هَذَا وَإِنْ شَارَكُوهُمْ فِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَقَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَتَمَيَّزُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ.

فصل

ولو فرضنا هذا المسلم المقرَّ بالشهادتين حَصَلَ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ، وَحَمَلَ أَثْقَالَهُ وَأَعْبَاءَهُ، وَكُلِّفَ مِنْ إِيْجَابٍ وَنَدْبٍ، وَتَحْرِيمٍ وَكَرَاهِيَةٍ، فَقَبَضَهُ ذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ اشْتِغَالًا بِحُدُودِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَمَجَانِبَةِ نَهْيِهِ، فَلَمْ يَدْعُهُ الْوَرَعُ أَنْ يَتَبَسَّطَ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَدْخَلِ وَالْمَخْرَجِ وَالْمَعَاشِرَةِ فَضْلًا عَنْ الرُّكُوعِ لِأَهْلِ الْمَنَاصِبِ مَعَ الْمَشِيِّ عِنْدَ لِقَائِهِمُ الْقَهْقَرَى رَاكِعًا وَمُعْتَدِلًا، ثُمَّ رَاكِعًا وَمُعْتَدِلًا إِلَى أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ نَفْسَ الْمَخْضُوعِ لَهُ قَدْ رَضِيَتْ وَأَخَذَتْ مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْخَاضِعِ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَرَبَّمَا أَوْرَثَهُ الْوَرَعُ لُبْسَ الْخَشِينِ وَأَكَلَهُ وَشُحُوبَ اللَّوْنِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُورِثُ الصَّدْقَ فِي الْمَعَامَلَةِ لِلصَّادِقِينَ مَعَ اللَّهِ، فَإِنَّ هَذَا الشَّخْصَ - قِطْعًا - يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَقْهَاءِ، الَّذِينَ هُمْ أَوْعِيَةُ الْعِلْمِ، الَّذِينَ نَهَمَّتْهُمْ تَحْصِيلُ الْعِلْمِ، وَلَا نَهْمَةٌ لَهُمْ بِالتَّزَامِ أَحْكَامِهِ، يَجْمَعُونَ الْعِلْمَ صَحِيحَهُ وَسَقِيمَهُ، مِنْ كُلِّ عِلْمٍ يَرْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَيُقَرِّبُهُمْ مِنَ الْمُنَازَرَةِ وَالْمُغَالَبَةِ بِحَقٍّ وَغَيْرِ حَقٍّ، يَتَكَالَبُونَ عَلَى الْمَنَاصِبِ وَالرِّفْعَةِ،

يُوسَعُونَ الْأَكْمَامَ وَيُذْلُونَ لِلنُّفُوسِ أَذْنَاباً يَلْقُبُونَهَا عَذَابَاتٍ، يَبْقَى بَيْنَ الْعَامِلِ وَبَيْنَهُمْ بَوْنًا كَثِيرًا، وَرَبِّمَا مَقْتَهُمْ وَمَقْتُوهُ، وَاسْتَوْحَشَ مِنْهُمْ وَاسْتَوْحَشُوا مِنْهُ، هَذَا، وَإِنْ اشْتَرَكُوا فِي الْعِلْمِ وَالنَّقْلِ وَبَعْضِ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَكَلِمَةٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَمْتَاوُونَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ الْعَمَلِ، الَّذِي تَقَدَّمَ شَرْحُهُ.

فصل

ولو فرضنا هذا المسلم المقرّ بالشهادتين اقتبس من الكتاب والسنة علم الخوف ومعرفة الآخرة والانتباه لإصلاح الحال مع الله - عز وجل - ليلقاه في الآخرة بوجه أبيض، فعمل على إكمال المحاسبة والمراقبة ورعاية الحركات والخطرات لمراقبة جبار السموات، وصارت همته متجردة على إرضاء الرب - عز وجل - بكل ممكن من قول وفعل وحركة وهمّة وخاطر، فاستبدل بذلك عوض الشبع ثقلاً، وعوض الإسراف اقتصاداً، وعوض التزيّن بالظاهر في اللباس تزيّن الباطن بالصدق والإخلاص، وحاسب جوارحه السبع: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، فرعى ألفاظه، فلا يتكلّم بما يكرهه الله - عز وجل - ورعى نظره فلم ينظر إلى ما حرّم الله، وحفظ بطنه عن أكل الحرام والشبهات، وكذلك فرّج يديه وسائر جوارحه، ورزق حلاوة المعاملة مع الله - عز وجل - والأنس به لصار بينه وبين أهل الزيّ الظاهر، والمرتسمين به قدراً مميّزاً، وهم المشتغلين بتحسين المرقعات، ووضاء الصورة والهيئات، فهم خدام ثيابهم ونعالهم يهتمون بتبديلها إذا خلقت وبنقائها إذا تدنست، وربّما بيضوا نعالهم بـ(الإسفيداج) ليعلوها البياض، همهمهم مصروفة إلى حسن المعاشرة وإظهار صورة الفقر مع التخلي عن عمارة الباطن، وربّما كانت صورة الفقر دُكَّاناً يستجلبون الفتوح بها، فهم بها مهتمون، وربّما كانوا عن قُصود أهل العزائم والصدق معرضين، فيبقى بين المذكور وبينهم بوناً كثيراً، وفرقاً مستبيناً، هذا وإن اشترك الجميع في اسم الفقر والسلوك والتلفظ بالشهادتين، فهو يمتاز عنهم بما شرح، فرّبما استقلّوه واستوحشوا منه، واستبّوه، وربّما مَقْتَهُم

هُوَ لَخُلُوتِهِمْ عَنْ قُصُودِ أَهْلِ الْحَقَائِقِ وَعَمَلِهِمْ، فَمَقَّتُوهُ هُمْ - أَيْضاً - فَيَعْرِفُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَهُ، يَعْرِفُهُمْ بِمَا يَبْدُو عَلَيْهِمْ مِنَ الْهَوَى وَالْهَزْلِيَّاتِ، وَالزَّوَائِدِ، وَالْمَدَاعِبَةِ، وَالْمَجُونِ، وَالْإِشْتِغَالِ بِتَعْظِيمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَقُوَّةِ الْإِنْجَذَابِ إِلَيْهِمْ، وَمُؤَانَسَتِهِمْ وَمِشَارَكَتِهِمْ فِي حَوَادِثِهِمْ وَنَوَازِلِهِمْ، فَيَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى خُلُوتِ بَوَاطِنِهِمْ عَنْ هُمُومِ الْآخِرَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهَا، فَهُمْ عَوَامٌّ قَدْ تَكَيَّفُوا بِكَيْفِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ، مِنَ الزَّيِّ وَحُسْنِ السَّمْتِ، وَلَهُمْ مَعَ ذَلِكَ دَعَاوَى بَأَنَّهُمْ وَأَنَّهُمْ، فَيَمْتَّازُ الْمَذْكُورُ عَنْهُمْ بِمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ.

فصل

ولو فرضنا هذا الشخصَ المقرَّرَ بالشهادتين اقتَبَسَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ عِبُودِيَّةَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَتَأَلَّهَهُ وَإِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ وَالْعِبُودِيَّةَ لَهُ بِحَيْثُ شَهِدَ أَنَّ لَا نَافِعَ وَلَا ضَارَّ، وَلَا مُعْطَى وَلَا مَانِعَ، إِلَّا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَأَخْلَصَ التَّوْحِيدَ لِمَوْلَاهُ قَدْرًا، وَقَامَ بِالْأَوَامِرِ شَرْعًا، وَكَانَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - غَالِبَ عَلَى أَمْرِ الْعَبْدِ وَكَيْفِيَّتِهِ، وَصَارَ الْعَبْدُ عَبْدًا لِمَوْلَاهُ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، عَبْدًا لِمَوْلَاهُ بِالرَّضَا لِأَحْكَامِهِ، فَلَا يَرِيدُ غَيْرَ هَذَا إِذَا وَافَقَتِ الشَّرْعَ، فَاثْمَحِي عَنْ قَلْبِ الْعَبْدِ تَأَلُّهُ نَفْسِهِ بِذَهَابِ مُرَادِهَا وَامْتِحَانِهِ فِي مُرَادِ الْحَقِّ - عَزَّ وَجَلَّ - وَذَهَبَ عَنْهُ مُرَادُهُ فِي الْإِسْتِحْسَانِ وَالِاسْتِقْبَاحِ وَالْعَمَلِ إِلَّا بِمَا اسْتَحْسَنَهُ الشَّرْعُ وَاسْتَقْبَحَهُ وَأَمَرَ بِهِ، فَصَارَ عَبْدَ الرَّبِّ لَا عَبْدَ النَّفْسِ مُنْفَرِدًا فِي عِبُودِيَّتِهِ، فَمِثْلُ هَذَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ الزَّيِّ الظَّاهِرِ الْعَاكِفُونَ عَلَى الرُّسُومِ قَدَرٌ مُمِيزٌ، وَإِنْ اشْتَرَكَ الْجَمِيعُ فِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَالِانْتِسَابِ إِلَى السُّلُوكِ وَالتَّوَجُّهِ، فَإِنَّ أَحَدَهُمْ عَاكِفٌ عَلَى مَا وَضَعَتْهُ الطَّائِفَةُ مِنَ الْإِصْطِلَاحِ الرَّسْمِيِّ، قَدْ اضْطَلَحُوا أُمُورًا فِي الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ وَالْقُعُودِ وَالشَّكْلِ وَاللِّبْسِ وَالْعَمَائِمِ، يَرَوْنَ مُخَالَفَةَ ذَلِكَ مُنْكَرًا كَالْمَعْصِيَةِ، إِنْ صَلَّى فِي أَفْضَلِ الْأَمَاكِنِ عَتَبُوا عَلَيْهِ، يَدْعُو أَحَدُهُمُ الْجَامِعَ وَيَزُوحُ إِلَى جَمَاعَتِهِمْ، وَلَا يَطْلُبُ بِذَلِكَ الْفَضِيلَةَ بَلْ مِرَاعَاةَ الرَّسْمِ وَشَرْطَ الْوَاقِفِ، وَلَهُمْ مَوَاضِعُ مَعِينَةٌ فِي الصَّفِّ تُخْلَى بِخُلُوتِ صَاحِبِهَا - أحياناً - فَلَا يُصَلِّي فِيهَا غَيْرُهُ، وَرِعَايَةُ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَةِ يُرَاعَوْنَ الذُّقُونَ الْكِبَارَ وَالْبَيَاضَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنَ الذُّقُونَ الصَّغَارِ، وَيُرَاعَوْنَ ذَا الْهَيْئَةِ مِنَ الْمَلَابِسِ الْوَضْعِيَّةِ، كَالْمَزْدُوجَةِ الرَّفِيعَةِ وَالسَّجَادَةِ الرَّفِيعَةِ أَكْثَرُ مِنَ مُرَاعَاةِ

مَنْ اشْتَغَلَ بِبَاطِنِهِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَبِعِبَادَاتِهِ عَنْ عَادَاتِهِ، أُولَئِكَ لَيْسُوا عِنْدَهُمْ بِطَائِلٍ، رِضَا الْجَمَاعَةِ وَالشَّيْخِ وَالْخَادِمِ عِنْدَهُمْ كَرِضَا الْحَقِّ، يُرَاعُونَهُمْ بِكُلِّ مُمْكِنٍ وَلَوْ فِي الْبَاطِلِ، وَيُرَاعُونَ مَنْ يَدْخُلُ عَلَى الْأُمَرَاءِ أَكْثَرَ مِنْ مِرَاعَاةٍ مَنْ يُحِبُّ الْخُمُولَ وَأَبْغَضَ الشُّهْرَةَ، يُحِبُّونَ ظُهُورَ هَيْئَتِهِمْ لِلْعَوَامِّ فِي الْجُمُعَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ، فِي قُلُوبِهِمْ أَصْنَامٌ كَثِيرَةٌ لَا تَخْلُصُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ إِلَّا بِكُفْرِهَا وَالْإِعْرَاضِ عَنْهَا، فَيَمْتَازُ الرَّجُلُ الْأَوَّلُ عَنْهُمْ بِفَرْقٍ كَثِيرٍ وَبَوْنٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ شَارَكَهُمْ فِي الشَّهَادَتَيْنِ وَالْجُمُعَةِ وَالسَّلُوكِ وَالتَّوَجُّهِ، فَرَبَّمَا مَقَّتَهُمْ وَمَقَّتُوهُ، وَاسْتَوَحَّشَ مِنْهُمْ وَاسْتَوَحَّشُوا مِنْهُ، لَمَّا بَيَّنَّهِمْ وَبَيَّنَّه مِنْ الْقَدْرِ الْمُمِيزِ الْفَارِقِ، فَإِذَا أَخْلَصَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ رَسْمٍ وَلَا اصْطِلَاحٍ وَلَا شَرْطٍ وَاقِفٍ، فَلَا يَجْعَلُ شَرْطَ الْوَاقِفِ كَأَمْرِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- يُرَاعِيهِ وَيُجَاهِدُهُ لَمَّا يَنَالُ بِهِ مِنَ الرَّفَقِ، وَهَذَا لَيْسَ مِنْ أَعْمَالِ السَّلَفِ الْمَخْلُصِينَ، وَيَبْقَى بَيْنَهُمْ كَالْمَشْرِكِ الَّذِي يَعْبُدُ اللَّهَ وَيَهْتَمُّ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، فَيَبْقَى هَهُنَا مُنْقَسِمًا بَيْنَ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَةِ غَيْرِهِ، فَتَبْقَى الرُّسُومُ فِي الْقَلْبِ مَزَاحِمَةٌ لِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى، تُرَاعَى كَمَا تُرَاعَى، وَمَنْ لَا يُجْرِدُ رَبَانِيَّةَ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى قَلْبِهِ لَا يَكُونُ مِنَ الْمَخْلُصِينَ.

فصل

وَلَوْ فَرَضْنَا هَذَا الْمُسْلِمَ الْمَشَارَ إِلَيْهِ شَارَكَ النَّاسَ فِي الشَّهَادَتَيْنِ، فَعَلِمَ الْكِتَابَ وَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَالسُّنَّةِ وَعَامَلَ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- بِاتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ وَصَدَقَ اللَّهُ فِي الْمَعَامَلَةِ، فَوَصَلَ تَقْوَاهُ إِلَى بَاطِنِهِ، فَأَشْرَفَ عَلَى دَسَائِسِ النُّفُوسِ وَآفَاتِهَا، مِنَ الْكِبَرِ وَالْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ وَالشُّمُوعَةِ وَالْخَبْثِ وَالْحَسَدِ وَطَلَبِ الْعُلُوِّ وَالْمُنَزَلَةِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْجَاهِ، فَاسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي ضَمِيرِهِ وَخَافَهُ وَاتَّقَاهُ فِي هَمُومِهِ وَخَوَاطِرِهِ، فَلَمْ يَبْرَحْ قَوَّامًا عَلَى قَلْبِهِ مُرَاقِبًا لِمَوْلَاهُ حَتَّى صَفَا وَصَارَ قَلْبُهُ كَالسَّمَاءِ صَافِيًا مُزَيَّنًا بِنُجُومِ الْعِلْمِ فَائِضًا بِخَالِصِ الذِّكْرِ، قَدْ حَكَّمَ تَقْوَى رَبِّهِ فِي جَوَارِحِهِ الظَّاهِرَةِ، ثُمَّ اتَّقَاهُ فِي خَوَاطِرِهِ الْبَاطِنَةِ فَصَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُبَادِ وَالزُّهَادِ قَدَرٌ مُمِيزٌ فَارَقَ

بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَإِنْ اشْتَرَكُوا فِي الْإِسْلَامِ وَأَعْمَالِهِ، وَالتَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَهُمْ قَوْمٌ أَصْلَحُوا ظَوَاهِرَهُمْ وَتَوَجَّهُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَلَمْ يَنْتَبِهُوا لِدَقَائِقِ الْيَقِينِ وَخَفَايَا آفَاتِهَا، فَآفَاتُ النَّفْسِ مُتَصَرِّفَةٌ فِيهِمْ، يُبْغِضُ أَحَدُهُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ وَيَغْضِبُ لِحَظِّ نَفْسِهِ، إِذَا زَادَ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَحْتَقِرُ الْمُسْلِمَ بِرُؤْيَا أَعْمَالِهِ، وَيُدِلُّ عَلَى رَبِّهِ، وَيَتَخَيَّرُ عَلَى رَبِّهِ الْأُمُورَ وَالْأَحْوَالَ، وَرَبِّمَا قَالَ: رَبِّ افْعَلْ بِفُلَانٍ كَذَا وَكَذَا، وَاقْتُلْ فُلَانًا بِمَجْرَدِ إِسَاءَةٍ بَدَتْ مِنْهُ إِلَيْهِ، غَائِبٌ عَنْ مَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِتْرِهِ عَلَيْهِ قَبِيحَ أَعْمَالِهِ، كُلَّمَا تَذَكَّرَ صِيَامَهُ وَقِيَامَهُ أَقَامَ صَدْرَهُ وَتَخَيَّرَ عَلَى رَبِّهِ، لَمْ يَتَحَقَّقْ بِالْإِنْكَسَارِ الَّذِي تَقْتَضِيهَا الْعِبُودِيَّةُ بَيْنَ يَدَيِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَهُوَ خَاشِعُ الظَّاهِرِ غَيْرُ خَاشِعِ الْبَاطِنِ، دَعَاؤُهُ عَلَى طَرَفٍ لِسَانِهِ، وَفِي الْجُمْلَةِ، فَيَقِى بَيْنَ مَنْ أَصْلَحَ الْبَاطِنَ وَبَيْنَ مَنْ اقْتَصَرَ عَلَى إِصْلَاحِ الظَّاهِرِ دُونَ الْبَاطِنِ قَدْرٌ ظَاهِرٌ، وَبَوْنٌ مُمِيزٌ، فَإِنَّ مَنْ أَصْلَحَ الْبَاطِنَ فَقَدْ أَثَارَ الْعِبُودِيَّةَ إِلَى قَلْبِهِ بَعْدَ وَصُولِهَا إِلَى جَوَارِحِهِ، فَاسْتَقَامَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَصَارَ بَارًّا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا بِخِلَافِ مَنْ ظَهَرَ الْبِرُّ عَلَى جَوَارِحِهِ وَلَمْ يَتَحَقَّقْ بِهِ بَاطِنُهُ هَذَا، وَإِنْ شَارَكَهُ فِي كَلِمَةِ الشَّهَادَةِ وَظَوَاهِرِ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ مِنَ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، فَقَدْ فَارَقَهُ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ.

فصل

وَلَوْ فَرَضْنَا هَذَا الْمُسْلِمَ الْمُتَلَقِّظَ بِالشَّهَادَتَيْنِ لَمَا أَخْلَصَ لِلَّهِ فِي الْمَعَامَلَةِ وَصْفِي قَلْبِهِ مِنْ كَدْرِ النَّفْسِ وَأَشْرَقَ بِأَنْوَارِ الذِّكْرِ انْكَشَفَ لِقَلْبِهِ أَنْوَارُ صِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ بِحَيْثُ دَامَ شَهَادَتُهُ لِرَبِّهِ بِوَاسِطَتِهَا، مِنْ صِفَةِ الْعُلُوِّ وَالْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ أَوِ الْإِرَادَةِ أَوِ الْعِلْمِ أَوِ الْقُدْرَةِ أَوِ الْوَجْهِ الْكَرِيمِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ، فَخُلِّصَ إِلَى قَلْبِهِ أَوْطَانُ الْقُرْبِ وَفَسَّحَاتُ التَّوْحِيدِ مِنَ الْأَكْوَانِ لَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يَكْشَفْ لَهُ الْحِجَابُ وَكَانَ حَظُّهُ مُجَرَّدَ الْبَاطِنِ بِالذِّكْرِ وَاسْتِقَامَةِ الْبَاطِنِ عَلَى الْأَمْرِ مِنْ صَلَحَاءِ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَذُوقُوا طُعُومَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَرَبِّمَا أَنْكَرُوهَا وَلَمْ يَبْلُغْ حَالَهُمْ إِلَّا إِلَى مُجَرَّدِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَيُرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ بِدَعَا أُحْدِثَتْ لَمْ يَتَكَلَّمِ السَّلَفُ فِيهَا، وَمِنْ صَلَحَاءِ الْعُبَادِ وَأَهْلِ التَّصْفِيَةِ أَيْضًا تَمِيزَ ظَاهِرَ وَفَرَقَ بَيْنَ، وَإِنْ شَارَكَهُمْ فِي

كلمة التوحيد وأعمال أهل الإيمان الظاهرة والباطنة والتوجه إلى الله - عز وجل - فقد فاتهم تفصيل كثير وحال جليل صار بحيث لا يحجب عن صفات ملائكية متى توجه وجدّه بواسطة ذلك الوصف والصفات، كما قيل:

إذا اشتقتكم طالعْتُ قلبي فإنه على القرب والإبعاد دوماً يراكم

فصل

ولو فرضنا هذا المكاشف بالصفات راض نفسه بين يدي خالقه بمحو التدبير والاختيار، فرضي بمحو التدبير والاختيار، ورضي بمحض تدبير الله - عز وجل - واختياره إذا وافق أمره وصار عبداً لله في الظاهر والباطن، فهو يقوم به، وفي قدره، فهو يرضى به لكن بينه وبين من شهد الصفات ونفسه قائمة متخيرة تتخير على ربها الأحوال والمقامات ترفعاً طلباً لرفعة النفس وتكميلها، فتلك الإرادة تحجب قلبه عن رؤية تدبير الله - عز وجل - لعبده، وحسن اختياره له ومُراده له، ومنه فيبين الرجلين فرق ظاهر وبون عظيم وإن اشتركا في التوحيد الظاهر والباطن وأعماله.

فصل

ولو فرضنا هذا العبد البارّ المكاشف بالصفات القائم بوظيفة العبودية رقاءه الله - عز وجل - إلى محبته الخاصة الملهية للأفئدة، فعلق روحه به وجذبها إليه، ولو كوشف بالأمر الكلّي الجامع لجميع الأسماء والصفات، فامتلاً بذلك القبض واتسع وخرج إلى فسحة التوحيد ومشاهدة الفردانية المتصفة بالجلال الذاتي والإكرام السرمدى، وصار المجذب قريباً إلى وجهه لو توارى عنه طرفة عين لا تطبق عليه انطباقاً، فحجابُه غمّة وكشفه عن وجهه محبوبه فرحة لا يريد من الدنيا والآخرة سواه، ولا يعبد إلا إياه، صار المحبوب لمحبوبه جليساً، وله في سائر الأحوال أنيساً وعليه مطلقاً رقيباً إلى العيان، يعبد الله - عز وجل - بتلوين الأحوال لقلبه الصارخ تحت العرش، ولصدره أزيز كأزيز المرجل من غليان قلبه بالمحبة والتعظيم والهيمن والتشوق إلى العيان لكان بينه وبين صاحب الصفات والاستسلام قدر

مميزٌ فارقٌ، وإنَّ شارَكَه في كثيرٍ من الأعمالِ والمشاهداتِ والأحوالِ.

فصل

ولو فرضنا عبداً جذبَهُ اللهُ -عزَّ وجلَّ- إليه جذباً، وقَرَّبَهُ وأَدْنَاهُ وآنَسَهُ وناجَاهُ، يُعْرِضُ فيُطَلِّبُ، وَيَجْفُو فيُوَاضِلُ، وَيَجْنِي فيُعْتَبُ وَيُعَذِّرُ، يُرَادُّ له ما لا يُحْسِنُ أَنْ يريده لنفسه، وَيُدَبِّرُ في معيشتِهِ وأحوالِهِ بالرَّأْفَةِ والرَّحْمَةِ واللَّطْفِ، خَرَجَتْ له المحبوبيَّةُ من خَزَائِنِ المَنَةِ، وبعَدَهَا إلى أطوارِ السلوكِ، وسُخِّرَتْ له العلماءُ والمؤدِّبُونَ، وَهُدِّبَ وَأَدِّبَ، وَطُهِرَ وَنُقِّيَ، وعود وسجع، فَتَمَّتْ ولايةُ اللهِ -عزَّ وجلَّ- له لكان بينَهُ وبينَ المحبِّ السائرِ إلى اللهِ -عزَّ وجلَّ- بالمجاهدةِ والمكابدةِ والمحاسبةِ والرعايةِ، الذي ترد عليه الأمور وهو يقتحم فيها يسار به كمن يجري على وجهه في الشوك والوعر، هذا يلطمه وهذا يحقره، وهذا ينهره، وهذا يخذله، وهذا ينظره شزراً، وهذا يندمه على فوت الدنيا ويوبخه بطلب الفوت فلا يجده يسأل أحياناً ويتكسب أحياناً، حتى تطول مدته فيرى بعد ذلك طريقه وسبيله، ويحفظه الله فلا يرجع القهقري، حتى يقع في ميدان المحبة المبدوء بذكره ما كان بينه وبين الأول المحبوب فرقاً عظيماً، وبوناً ظاهراً مستبيناً، وقد جمع الله لك في هذا الجزء جمل تباين أهل الإسلام في درجاتهم ومقاماتهم، كل فرقة بأيِّ عمل ارتفعوا وتميزوا به على من دونهم في الدرجة، وبأيِّ تقصير انحطوا عن فوقهم، وهذا ميزان تزن به نفسك، فتنظر في أي الأقسام أنت، ولترى ما فيك من النقائص الحاطة لأهلها، فتنتقل عنها، وترى ما فيك من الفضائل المرقية لك فتشكر الله عليها.

فصل

فانظر - رحمك الله - كيف فارق المعتقد لأحكام الإسلام، الخائف من انتهاك الحرمات - وإنَّ قَصَرَ في بعض الأوامر وتركها، وفي بعض النواهي بارتكابها - التَّارَ باستهانتهم بأحكام الإسلام، ورجوعهم إلى الياساق، وكيف تميَّز من أثبت انفراد الحق - عزَّ وجلَّ - بذاته وصفاته، واعتقد بينونته من خلقه، عن أهل الاتحاد، وكيف تميز العارف بفضائل الصحابة، وبتسليم الأقدار إلى الله تعالى، خيرها وشرها، وأيقن بوجوب الجمعة والجماعة على الرافضة، وكيف تميز الفقيه في دينه - وإن لم

يكن عاملاً بعلمه - عن الجاهل بالعلم - وإن اشتركا في عدم العمل - عن جهلة العوام التاركين للعمل من أهل السنة، وكيف تميز العارف بالرسول ﷺ من السير والمغازي والمعجزات والكرامات والسنن، المحبُّ له، المتبع لطريقه وطريقة أصحابه، عن الفقراء أهل الأحوال المنحرفة، والبدع المحدثه، المعرضين عن الشريعة وصاحبها، المقبلين على طريقة شيخهم وأصحابهم، وكيف تميز صاحب المعاملة والاجتهاد من الفقهاء عمن طلب الدنيا بالعلم فأكلها بالدين، أهل المداينة والتكالب على المناصب، وكيف تميز أهل الإخلاص وإصلاح الباطن عن أهل الزِّيِّ والمرقعات الحسنة والجماجم البيض، وكيف تميز الذين وقَّرت ربانية الحق في قلوبهم وعبادته، من عبادة الرسوم ومراعاة الوظائف، واصطلاح مشايخهم في الهيئات الوضعية، والآصار والأغلال البدعية التي لا يراود الله - عزَّ وجل - بها، فقد صارت آلهتهم وأصنامهم في العكوف عليها، وذمَّ من أعرض عنها، وتعظيم من قام بالرسم وتوقيره وتبجيله، وكيف تميز أهل الذوق ومشاهدة الصفات عن أهل الخمود والحبس في مضائق الكون، من الفقهاء والعبَّاد، وكيف تميز صاحب العبودية عن صاحب التدبير والاختيار، وكيف تميز صاحب المحبة الخاصة الملهية للباطن عمن لم يبلغ ذلك، وكان قلبه بارداً، وكيف تميز المجذوب المحبوب عن السائر المحبوب بما تولاه مولاه من الكرامة، فاعلم أن الجميع يشتركون في الإسلام والتلفظ بالشهادتين، ولو سئل أحدهم قال: أنا مسلم، وأبغض المنتسبة إلى غير الإسلام، ومع ذلك فقد يشتركون في ظواهر الأعمال، من صوم رمضان، والحج، والصلاة، وغير ذلك، فانظر - رحمك الله - كم بين طبقاتهم من التفاوت العظيم صعوداً وانحطاطاً، واستقامةً وانحرافاً، ونسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن سلك أعلى المراتب من الإيمان، وحققنا بفضلِهِ وكرمه بحقائق اليقين والعرفان، إنه الحنان المنان ذو الفضل والإحسان.

آخر ما تيسر من هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

قَاعِدَةُ فِي الصِّفَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُنَوِّرِ الصدور بطلائع المعرفة والإيقان، وشارحها ببوارق النور الأعظم من الامتنان، باسطِ القلوب في ميادين الروح والريحان، من حَضَرَات الأسماء المقدسة والصفات الموجبة لحقائق العرفان، وكيف لا تبتهج القلوب سروراً، وترفرف إلى العُلَى فرحاً وحبوراً، وقد خرجت من مضائق الشكوك والارتباب، وظلمات الطباع والحجاب إلى فَسَحَات التوحيد والاقتراب، في بواهر أنوار ميادينها كَبَّرَق السحاب، مؤدية إلى وجدان أشعة شُمُوس تلمع كالشهاب، فسبحان من ظهر إلى القلوب بأفعاله ومصنوعاته، فشَهِدَتْهُ الفِطْنُ بآياته وآلائه، فَقَطَعَتْ بوجود حكيمٍ عليمٍ متقنٍ لمبتدعاته ومخلوقاتهِ، رحيمٍ بها في تيسير أسباب معاشها من قطرة يُرسل الرياح، فَثَبَّرَ سحاباً ماطرأً من خزائنه وآياته، وجعل من الماء كل شيء حي لِيُوقِنَ المُعْتَبِر بقدرته في تصرفاته، مُسَخِّراً الشمس والقمر لصالح العالم، وجاعل الليل والنهار آيتين، فمحا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من صدقاته، ودحا الأرض على تيار الماء، ورفع السماء عليها بلا عماد لتظهر بواهر قدرته في برّياته، هذا بعض حكمته في العالم الصغير المتضايق الأجزاء في كُرَّة التراب الملتوية على مركز السُّفْل وطبقاته، فما ظنك ببدائع قدرته في ملكوت السماء، وما أودع فيها من الأفلاك الدائرة والنجوم السائرة، والأفلاك المسبَّحة العاكفة على امتثال مأموراتهِ؟ ينزل الأمر بين الطباق العلوية والسفلية فيكون بذلك ما يريده من تأثيراته، وما ظنك بعظيم ما يبرز من بواهر أفعاله وصفاته في عالم الآخرة الذي لا تُكَيِّفُهُ العقول بل يؤمن بوجوده وإثباته، حين ترتفع الوسائط التكوينية والشواهد العقلية الاستدلالية بظهور صريح القدرة الإلهية وسطوع بواهر أنوار العَظَمَةِ الإلهية، فيضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئاً من مثقال حَبَّة من خردلٍ من طاعات العبد وجنایاته، فسبحان الإله الحكيم الفاطر المجيد المبدئ المعيد الموفي كل عبدٍ ما اكتسبه من سَعَايَاتِهِ، تَعَرَّفَ

إلى قلوب العارفين بتعريف خاصّ فعرفوه به بعد أن ظهر لهم في المصنوعات في أنوار تجليات أسمائه وصفاته. انكشف جلاله وعظمته لأحداق البصائر فامتلاّت من إشراقات ظهوره وبيّناته. ألفت الأرواح استنشاق نسيم التقريب بواسطة تلك الأنوار، فلم تلتفت عنه رغبة في غيره من تلذذ عاجل العبد وراحاته، وإن خطفها عن ذلك أدنى خاطف من العوارض الكونية فهو سريع الرجوع والأوبة من دركاته. صاعداً مُشاماً بروق الوصال، طائراً بهيمته المحترقة إلى أعلى درجاته، لا يستقر من شوقه واضطرابه إلا في مقاعد الصدق ومحالّ العندية بين أطناّب العزّ وسُرَادِقَاتِهِ، لولا الآجال المكتومة والأقذار المحتومة لزهقت الأرواح طرباً لما باشرها من أنصبة الإكرام والإجلال وإشراقاته. حقيرة إذا نظرت إلى خستها وسفالة قدرها حين رامت عزّمائها أعلى المراقي، وأين الثريا من يد الملامس؟ نسبّها الماء والطين، والصلصال والحمأ المسنون:

أيها المُنكِحُ الثريّاً سهيلاً عَمَرَكَ اللهُ كيف يجتمعان؟

هي شاميةٌ إذا ما استهلّت وسهيلٌ إذا ما استهلّ يمانِي

فإذا ولّت مدبرةً حياءً من طمعها، نازلةً إلى التُّخوم عبثت بها أيدي الغرام وتأججت بها نيران الوجد والهيام، وجدته يوم الميثاق من لذيذ الخطاب والتلاق، فنقول: قدرِي الترابُ وهَمَّتِي تعلو السحاب:

بَرَقْتَ مِنْكَ فِي الْفَوَادِ بُرُوقٌ احتظي منه كلُّ عضوٍ بَرِيقٍ

فصلواتُ الله وسلامه على نبيّ الرحمة وكاشف الغمّة محمد النبي وصحبه وآله ما دَرَّ شارقٌ، وحنّ وامقٌ، صلاةٌ دائمة لا انقضاء لها في الآباد، وأدامها إلى أن تقوم الأشهاد، وبعد:

فأيها السالكُ إن أردت التحقّق بالعبودية، والخضوع لأحكام الرُّبُوبِيَّة، فعليك بالجلوس على بساط الصّدق، ناظراً إلى مولاك وما انفرد به منها في عظمة شأنه، وقُدس جلاله ناظراً - أيضاً - إلى صفاتك الفانية اللائقة بك. ثم أفرد مولاك بما

انفرد به من عظمة شأنه، وقدس صفاته، وتحقق أنت بصفاتك والزمها، ولا تتجاوزها، وانظر إلى صفاته ثم إلى صفاتك راجعاً إليه منها، فأول ذلك:

أن تنظر إلى غناه ﷻ، فمتى حققت ذلك عرفت نفسك بالفقر، وعرفت مولاك بالغنى، فتبرأت من صفته التي لا تستحقها أنت، واتصفت حينئذ بصفتك الذاتية لك، وهي الفقر، فكنت بذلك لمولاك الغني عبداً، وكذلك تنظر إلى قوته ﷻ، وتنظر إلى ضعفك، فمتى حققت ذلك عرفت نفسك بالضعف، وعرفت مولاك بالقوة، فتبرأت من صفته التي لا تستحقها أنت، واتصفت حينئذ بصفتك الذاتية لك، وهي الضعف، فكنت بذلك لمولاك القوي عبداً، وكذلك تنظر إلى قدرته، وتنظر إلى عجزك، فتضيف القدرة إلى وليها، وتبرأ أنت مما ليس لك، فتكون بذلك عبداً، وكذلك تنظر على عزته وتنظر إلى ذلك فتضيف العزة إلى وليها وتبرأ أنت مما ليس لك، وتتصف بصفتك اللازمة لك، وهي الذل، فتكون بذلك عبداً.

واعلم أن لمولاك ﷻ صفات ذاتية، وصفات فعلية، وصفات حالية، فصفاته الذاتية اللازمة لذاته المقدسة أزلاً وأبداً وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر، والإرادة، والجلال، والجمال، والقدس، والكمال.

والصفات الفعلية كثيرة، وهي: كل ما تعلّق منها بالمخلوقات، كالخلاق والوهاب، والرزاق، والفتاح، والقبض، والبسط، والخافض، والرافع، والمعز، والمذل، والبارئ، والمصور، والغفار، والقهار، والمحصي، والمبدي، والمعيد، والمجتي، والمميت، والمقدم، والمؤخر، والمنتقم، والمقسط، والجامع، والمانع، والضار، والنافع، وغير ذلك.

وأما الصفات الحالية: كقوله سبحانه وتعالى يوم القيامة: «يا آدم، قم فابعث بعث النار»، وكصفة النزول، وقوله للشيء إذا أراده «كن»، وهو: ما يكون في حال دون حال، وله سبحانه أسماء ذاتية، وأسماء صفاتية، فأسماء الذات: «الله» و«هو» و«أنت».

والأسماء الصفاتية كالاسم: النور، والقدوس، والسلام، والعزیز، والجبار، والمتكبر، والملك، والرحمن، والرحيم، والقوي، والغني، وغير ذلك من الأسماء

الصفاتية، وكلها راجعة إلى صفات الذات، وهي مندرجة في قولنا فيما تقدم، والجلال، والجمال، والقدس، والكمال، فكلها مندرجة في الكمال.

فصل

وكذلك أيضاً للعبد أسماء عليّة وأسماء دنيّة، فأسماءه العلية قد وصفه الله ﷻ بها فقال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبَدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُسْتَخِرُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُهْتَزِّعُونَ السُّجُودَ الْمُتَحَرِّضُونَ وَالْمُتَّقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ غِيَاظِنَا وَنَجْمِ اللَّائِلَةِ فِي حَسْرَةٍ مُتَوَلِّينَ﴾ [التوبة: 112] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35] وأسماءه الدنية كالعاصي والمذنب والظالم وغير ذلك. إذا علمت ذلك فاعلم أن العبودية إنما يقوم بها من صفت عناصره⁽¹⁾، وابتهجت بالإشراق ظواهره، وسكنت عن الوسوس خواطره، وتحركت بالمحبة ضمائره، وتجددت أسرارها عن غلّها وأغلالها وخبيثها وأعلالها، فهم القوم تراهم أرواح الناس قلوباً، وأوفرهم عقولاً، وأسكنهم عن الخنا نفوساً، وأطيبهم بذكر الله أرواحاً، وأكثرهم بربهم أفرحاً لأن بواطنهم بالمحبة إلى حظائر القدس مكتحلة بأكحال التقريب والأنس، سيماء المحبة عليهم لائحة، وبهجة المعرفة عليهم ظاهرة من حسن الأخلاق، ومطايبة الرفاق، والمكارمة في التلاق لتهدبهم في معاملة الملك الخلاق. عرفوا نفوسهم بصفات الدنيّة فمحقوها بصفات العلية. محقوا الاسم: المذنب بالاسم: التواب، ومحقوا الاسم: العاصي منهم بالاسم: الطائع، واسم: الظالم منهم باسم: العادل، فتبدلت أسماءهم الدنيّة بأسمائهم العلية. بدّل الله بذلك سيئاتهم

(1) في النسخة: (عن عناصره).

حسنات، محقوا أوصاف السيئات منهم بأوصافهم الحسنة، ثم رجعوا من جميع ذلك إلى مولاهم متبرئين من حولهم وقوتهم، فإن وجدوا منهم توبة وجدوا بدايتها من توبته عليهم، قال تعالى ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة: 118] وإن وجدوا منهم محبة لربهم، وجدوا ابتداءها من محبته لهم، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: 54] وإن وجدوا منهم علماً أو معرفة وجدوا ابتداءها من فيض برّه عليهم قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥﴾ [العلق: 4/5].

فصل

واعلم أن مشاهدة الصفات تنوع على قلوب العارفين كل منهم قد عرف مولاها بما كشف له منها، فعبد الله ﷻ بالعبودية المناسبة لذلك الوصف، إذ كل اسم أو وصف يقتضي من العبد عبودية بمقتضاه، فأول مشاهدة الصفات تبدو على قلوبهم: مَشْهَدٌ: علا فوق الممالك. وذلك يقتضي التضاؤل والتصاغر للعبد المشتغل بالذات عبودية للربّ العلي بالذات.

ثم مَشْهَدٌ: متكلّم، أمر، ناه، مُجَلِّ، محرّم. وذلك يقتضي من العبد عبودية الائتمار والاجتناب لما أوجب فعله واجتنابه الملك الوهاب.

ثم مَشْهَدٌ: مُدَبِّر، قيوم. وذلك يقتضي من العبد ترك التدبير والاختيار استسلاماً وتفويضاً إلى الملك القهار.

ثم مَشْهَدٌ: الديانة، وهو مَشْهَدُ الدين، فإنه مالك يوم الدين أي يوم الجزاء، وذلك يقتضي من العبد الاستعداد للقاء الله ﷻ بالأعمال الصالحة والمسارة إليها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي

الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَيِّقُونَ ﴿٦١﴾ [المؤمنون: 60/61].

ثم مَشْهَد: رقيب، عليم، فتستقيم بذلك الخواطر والسرائر عن الهمم الدنية، والأفكار المحظورة الردية، فكذلك عبوديتها في مقابلة هذا الوصف، وإذا استقامت السرائر لزم من استقامتها استقامة الجوارح لأن الحركات الظاهرة إنما تصدر عن الخطرات الباطنة.

ثم مَشْهَد: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27]، وذلك موجب لكمال المحبة والتعظيم وظهور لواجع الأشواق إلى لقاء الحق ﷻ يوم التلاق، فهذا هو عبودية هذا الوصف، وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه».

ثم «كان الله ولا شيء معه»، وهو مَشْهَد الأزلية، فيكشف بذلك ظلام الوجود، ويطلع فجر التوحيد، فيذهب به من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وهو أول السباحة في بحر التوحيد، فما ظنك بالتوغل فيه؟ نعم، وذلك لا يُشرح إلا لأهله، الذين باشر صَفْوُ التوحيد بواطِنهم، وطلع عليهم صُبْحُه بعد طلوع قمره.

ثم مَشْهَد: شمس الفردانية بعد طلوع صبحها، وذلك موجب الهيمان والالتهاب بنيران الوجد والغرام، وهو أول مشاهد البقاء بعد الفناء خصوصاً إذا تَفَضَّلَ على تفاصيل الصفات، فيبقى العبد فيه مشهوداً ملحوظاً بعد أن كان مراقباً مشاهداً.

ثم مَشْهَد: الحقيقة وهو التخلص من أنوار الأنوار إلى حقيقة الأنوار، فإن للسراج نوراً يقوم بذات النار، ونوراً من ذلك النور يفيض على الجدران، ففي أول الأمر يكون نصيب العبد من أنوار الأنوار، فيرتقي منها إلى صاحب النور، ومن لا يفهم من الأغبياء يَغْبُدُ المثل الأعلى، ولا يشعر، والمحقق يعبدُ صاحب المثل حتى يخلص إليه من أنوار الأنوار، وهذا أمر دقيق لا يُشرح أيضاً إلا لأهله، وهم الذين صَبَرُوا على الصحبة، والتذويب في كثير السُّبُك، ولم يرجعوا من علوم الخاصة إلى علم العامة التي بها تستقيم العموم، وللخصوص قواعد أخرى هي شفاء لأمراضهم لا يجدون شفاءهم إلا بها وهي موصلة إلى العلم العام.

فصل

علامة المستعدّ لعلم الخصوص أن يبقى بينه وبين السالكين من العوام حجاب، لا يقدرُ على الاجتماع بهم، ومتى كانت نسبته معهم إذا اجتمعوا يقررون الأمور العامة فليست له نسبة بالخاصة، فأين مثل هذا من علم الأسماء والصفات وأذواقها؟، فمتى اشتغل بها بطلَ عن وظيفته وشغل من كلف تعليق شيء من ذلك عن مهم وقته وواجب حاله، والأولى أن يشتغل كل من العبيد بما أقيم فيه وبما يجد صلاح قلبه فيه، ولا ينظر إلى علم ما لم يبلغه حاله، فإن علم الخاصة فساد للعامة، وعلم خاصة الخاصة، وإنما كان فساداً لأنه يشغلهم عن مهم وقتهم عما هم مطلوبون به، فلا يشرح علم الخاصة إلا لأهله ولا علم خاصة الخاصة إلا لأهله ذلك هو مهم وقتهم وواجب حالهم، لكن في الحديث «لا تردوا السائل ولو جاء على فرس»، وإجابة سؤال السائل مندوب إليه، إلا أنه ينبغي أن يعرف وجه الصواب في ذلك ليرجع إلى حكم وقته وواجب حاله، فالواصلون إنما وصلوا بمعرفتهم علم الحال، وقيامهم بحكمه، والداخل على السالكين إنما يدخل من جهلهم بعلم الحال وإهمالهم القيام بحكمه، ومعنى علم الحال علم ما يخص العبد من أمر دينه وحاله الذي أقيم فيه، فمتى تعداه إلى غيره، فقد ضيّع حكم وقته، وضيّع على الناس - أيضاً - حكم أوقاتهم. وهذا آخر ما تيسر، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قاعدة²⁸ في امثلِ الأعلى
لقولِ اللهِ سبحانه ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾
وقول النبي ﷺ (تبارك اسمك
وتعالى جدك)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ليعلم السالك أنه قد يقوم في قلبه عند التَّوَجُّه شيء يشهده فوق العَرْش، فلا يستوحش من ذلك، فإنه ربّما يقول: هذا الذي أشهده جسم، فإنّ جميع ما تتخيّلهُ يكونُ جسماً أو عَرَضاً يُعلمُ أنّ حقيقة الله سبحانه وتعالى لا تتكيّفهُ الأوهام، ولا تحويه الأفهام، ولا يدرك بالقلوب ولا الأرواح، لكن قد يقوم عند التَّوَجُّه للعظمة مثال يكون ذلك المثال واسطة بين من ليس كمثله شيء، وبين من له مثل، واعلم أنّ ذلك المثل الذي يقوم في القلوب عند التَّوَجُّه والدعاء له وجهان: وجه يلي العبد، ووجه يلي جهة العظمة، ولا يقال: إنه غير الله، ولا يقال: إنه هو، إنّما هو نور بحسب مرآة العبد وخلقته وضعفه، فلا بُدّ من هذا المثل من هذا المثل، فلا يستوحش العبد منه، فإنه لا يعرف الله إلا به، ولا يدعا إلا به، ولا يحب إلا به، ولولاه لم يعرف ولم يُعبد، فإنه لا بُدّ أن يقوم لمن ليس كمثله شيء مثل في القلوب يكون حجاباً بين العبد وبين حقيقة الذات، إذ لا يمكن شهادة حقيقة الذات بالقلوب لأنها فانية، ولا تقوى عليه الأجسام والقلوب إلا في الدار الآخرة لأنها في عالم البقاء. والتَّحقيق أنّ ذلك المثل هو بمثابة الاسم والمسمى، والصفة والموصوف، فلا يقال: هو هو، ولا يقال: إنه غيره إنّما هو بحسب المحل وضعفه وقوته.

مثال ليتضح هذا المعنى، فإنه مشكل جداً تهرب منه العقول الضعيفة، ولا يقوى عليه إلا الموقنون:

الإنسان يكتب بقلمه: (الله)، وذلك هو اسم الله حقيقة، لكن بحسب المحل، وهي الكتابة، وكذلك تقول: (الله)، وقوله: (الله) هو اسم الله، لكن بحسب اللفظ المؤدي لذلك المعنى، ومثل ذلك إشارة القلوب إلى الله تعالى ومعرفتها له، وتجليه عليها، فتحبّه وتخافه وتشتاقه، وذلك هو نور الله تعالى حقيقة، لكن بحسب المحل الذي يرى ذلك المعنى، وإنما يرى منه بحسب ما يستعده، ولذلك وجهان كما سبق ذكره، ولهذا منع السلف ﷺ من وصف الإيمان بالخلقة، فإنّ له اتصالاً بالله حقيقة

لا يُكَيِّفُ، وله أيضاً اتصال بالعبد يُعَقِّلُ ويُدْرِكُ، فَلَهُ بهذا الاعتبار وجهان كما سبق قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: 27] فبذلك المثل تعبده الملائكة والأنس والجأن، وهو مثال عَظَمَتِهِ في قلوبهم، وليس كمثلِه شيء، لكن لا بُدُّ للأمر الموجود - وإن كان لا يُمَثَّلُ - أن يقوم له شاهد في القلوب، وبحسب المحل، ويُعلم حينئذ أنه ليس هو حقيقة لأنه لا تقوم بحقيقته الجبال الرواسي، بل ولا لبارقة منه، وليس هو غيره لأنه منسوب إليه، وهو أثر نوره.

مثال ليُتَضَحَّ هذا الإشكال في الشاهد:

نور المصباح الواقع على الجدران هو نور المصباح حقيقة، لكن يُفَرَّقُ بين النور الواقع على الجدران، وبين النور القائم بِجِزْمِ النارِ ذاك نور المصباح بحسب محلِّه، وهذا نوره بحسب ذاته، وبهذا يَنَحُلُ الإشكال إن شاء الله تعالى، فإن النور الذي على الجدران له وجهان: وجه إلى الجدار، ووجه إلى المصباح، وليس هو عين نوره القائم بذاته، ولا هو غير نوره، فاعلم ذلك، وإنما أَطَلْتُ الكلامَ ههنا لأن كثيراً من المتعبدَةِ يَتَحَيَّرُونَ بين الإيمان والدُّوقِ، ويرون الدُّوقَ مُغَايِراً لنفي الكيفية، والتحقيق أنه ليس بينهما تنافٍ، والله الموفق.

فليعتمد السالك ما أمكن فيما شُرح في هذه القاعدة مُستعيناً بالله تعالى، مفوضاً إليه رافعاً بهِمَّتِهِ إلى أعلى المطالب عساه أن ينال بعون الله تعالى منها سِنِي المراتب، وبالله المستعان، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

عُمْدَةُ الطَّلَابِ مِنْ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ
اُمْتِثَاقِينَ إِلَى ذَوْقِ الْأَحْبَابِ
الرَّاعِبِينَ فِي رُسُوحِ دِينِ الْإِسْلَامِ
فِي السَّرَائِرِ وَالْأَلْبَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ بِكَرَمِكَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَتَحَ بِالْإِيمَانِ مَغَالِقَ الْقُلُوبِ، وَمَنْ بِالْهُدَى وَالْمَعْرِفَةِ عَلَى مَنْ يَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ، الْمَفْرَجِ بِرُوحِ الْفَرَجِ مِنْ خَزَائِنِ الْأَلْطَافِ، عَنْ أَهْلِ الْأَصَارِ وَالْكُرُوبِ، مُرْسِلِ سُحُبِ الْمَوَاهِبِ عَلَى الْقُلُوبِ، الْمَشْتَاقَةِ بِأَمْطَارِ الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ وَثِيلِ الْمَطْلُوبِ، فَالِقِ مَا أَرْتَقَى مِنَ الْأَرْوَاحِ بِفَيْضِ الْأَنْوَارِ وَأَسْرَارِ الْغُيُوبِ، الْجَادِبِ لِأَرْوَاحِ مُحِبِّيهِ مِنْ عَوَالِمِهَا الْأَرْضِيَّةِ إِلَى أَوْجِ سَعَادَتِهَا بِاتِّصَالِهَا بِالْمُحَبُّوبِ، الْفَاتِحِ لَعُيُونِ الْبَصَائِرِ فِي غُيُوبِ السَّرَائِرِ، لِمَلاحِظَاتِ بَهْجَةِ الْجَمَالِ الْأَحَدِيِّ وَالْجَلَالِ السَّرْمَدِيِّ، فَهِيَ بِهِ قَرِيرَةٌ فِي أَجْمَلِ أَسْلُوبِ، وَلَهُ الْحَمْدُ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا، كَمَا هُوَ أَهْلٌ، وَكَمَا يَنْبَغِي لِكُرَمِ وَجْهِهِ، وَعِزِّ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا شَهِدَ هُوَ لِنَفْسِهِ وَمَلَائِكَتُهُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ مِنْ خَلْقِهِ بِأَنَّهُ الْوَاحِدُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الْقَائِمُ بِقِسْطِهِ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى كَافَةِ الْخَلْقِ عَمُومًا، وَأَوْحَى إِلَيْهِ كَمَا أَوْحَى إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا﴾ (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) [النساء: 163/166]، وَكَانَتْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ

البالغة علينا وعلى الخلق كافة⁽¹⁾ ببعثه بالكتاب إلينا، وإرساله وإرشادنا إلى الحق والهدى، بأقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [155/156] أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغفيلين ﴿[156/155]﴾ [الأنعام: 156] إلى قوله: ﴿وَهْدَى وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: 157]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا تَسْتَسْئِرُونَ﴾ [المائدة: 15] إلى قوله: ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [المائدة: 16]، وقال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: 2]، إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْتَقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: 28]، فهو البشير النذير كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45]، الآية، وهو الخاتم للنبوّة والشرائع، والهادي إلى طريق الحق في أوضح السبل والمهايع، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة، تكون لصاحبها ذخراً يوم ردّ الودائع، وبعد:

فقد روي في الحديث الصحيح عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، ومن أحبّ عبداً لا يحبّه إلا الله، ومن يكره أن يعود في الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار» متفق عليه، رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

وروي عن العباس بن عبد المطلب: أن رسول الله ﷺ قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً» أخرجه مسلم والترمذي.

(1) الفصيح: وعلى الخلق كافة.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين» متفق على صحة هذا الحديث.
وعنه ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده؛ لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار».

وروى عنه ﷺ قال: «كُلُّ أُمِّي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن أبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».
وعن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مرتين؛ رجل كان له جارية فأدبها، فأحسن أدبها، ثم أعتقها وتزوج بها، ورجل من أهل الكتاب، آمن بكتابه، وآمن بمحمد ﷺ، وعبد أحسن عبادة الله، ونصح سيده» متفق على صحته.

وعن جابر، قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ، وهو نائم، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، قال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مائدة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المائدة، فقالوا: أولوها يفقهها، قال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً، فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً، فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس»، قال البغوي: حديث صحيح.

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قوماً، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير الغريان، فالنجاة النجاة، فأطاعه طائفة من قومه فأدّجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق» متفق على صحته.
وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي كمثل رجل استوقد ناراً،

فلما أضاءت ما حولها، جعل الفراش - وهو الدواب التي تقع في النار - يقعن فيها، وجعل يحجزهن، ويغلبنه، فيقتحمهن فيها؛ فذلك مثلي ومثلكم؛ أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، فتغلبونني، فتقتحمون فيها « رواه البخاري ومسلم والترمذي.

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، وكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها، فسرّبوا وسقّوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تثبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به». متفق على صحته. والأجادب: صلاب الأرض، التي تمسك الماء، ويروي أخادات وهي: الغدران.

وعن العرياض بن سارية، قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وبسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». رواه أبو داود والترمذي.

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، وعنه ﷺ، قال: «إن الدين بدأ غريباً، وسيعود غريباً، وطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي، من سنتي»، وعنه ﷺ، قال: «من تمسك بسنتي عند فساد أمتي، فله أجر مئة شهيد»، وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن كمعادن الفضة والذهب؛ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام» متفق عليه.

فالمؤمن من أهل الكتاب، إذا شرح الله صدره للإيمان، ونور قلبه بالبينات

الواضحة من الإيقان، بعد قراءة سالف الكتب والنبوات، ومعرفة الربِّ تعالى من شرائعه السابقة، ورزقه الله تعالى الفهم عنه فيها، وحُسن الإصغاء إلى تدبُّر قواعدها ومعانيها، ثُمَّ تَدَبَّرَ كَلَامَ اللَّهِ تعالى القديم المنزل على محمد ﷺ النبي الكريم، وَجَدَ النُّبُوتَ شَاهِدَةً، يشهد بعضها لبعض بالحقِّ والتصديق، ينعطف بعضها على بعض بالتشريع الإلهي على التحقيق، ثُمَّ وَقَفَ بعد ذلك على أحاديث الرسول ﷺ، وهو الذي ما ينطق عن الهوى، المتكلم بها من عين النبوة، ومعدن الحق والهدى، عَلِمَ أنه قد أُوتِيَ جوامع الكلم، وفُضِّلَ الخطاب، وعرف أن دينه هو الدين الجامع الكامل، كما تحقَّقه أولو الألباب، لكونه خاتم الأنبياء المكمل للنبوة، والتمم لها، ولهذا كان دينه أكمل الأديان، ويُناؤه أوضح البنا، وأنور البرهان، خصوصاً، إذا تأمل معجزاته ﷺ، وخوارق عاداته، وآياته، من مبدأ حمل أمه به إلى ميلاده، وإلى حين مبعثه، وتناهي حالاته، وذلك مما انتشر به أخبار الثقات في سائر البلدان والجهات، خصوصاً وقد وردت في أمور مختلفة الأنواع بروايات أقوام مُتَّبِئِي الهِمَمِ والدواعي والطِّبَاعِ، فيكون حُكْمُ مجموع ذلك موجباً للعلم الضروري، لأن الأمة قد تداولته عصراً بعد عصر، وقرناً بعد قرن، فيكون العلم به كالعلم بوجود آدم، ونوح، وإرسال إبراهيم إلى النمرود، وإرسال موسى وهارون إلى فرعون بسلطان مبین، وكالعلم بسخاء حاتم، وشجاعة علي، بل كالعلم بمبعثه ﷺ، فإن العلم بمبعثه ﷺ ضروري قطعي متواتر بأنه ﷺ دعا إلى عبادة الله، ونهى عن عبادة الأصنام - دون الله - [فلو لم يكن] ⁽¹⁾ العلم بظهوره متواتراً راسخاً في القلوب لما تداولته الأمة قرناً بعد قرن، وعصراً بعد عصر، فصارت مقطوعاً بصحته، فكذلك مجموع أخبار معجزاته، وإن كان فيها أخبار آحاد، لكن مجموعها من الثقله الكثيرين، المتفرقين في آفاق الدنيا، المتبائني الهِمَمِ والدواعي بوجوب العلم الضروري، بأنه ﷺ كانت تظهر عليه آيات خارقة للعادة، ومعجزات بيّنة لنبوته شاهدة، ولها منقادة، فنذكر منها جُملاً ملخّصةً، تداولتها الأمة عصراً بعد عصر، فإن

(1) كأنها: "فلو لم يكن".

معجزاته ﷺ أكثر من أن تُحصى، لأن أمره كله عَجَبٌ.

فمنها القرآن المجيد، الذي تحدّى به فصحاء الشرق والغرب، فكلّهم عَجَزَ عن الإتيان بسورة من مثله، وعَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْقَتْلِ، وأولادهم للسبي، وديارهم للهلاك، وكانوا أمراء الكلام، وفرسان النظام، يتباهون بالفصاحة، وتحبب الشعر والبلاغة، فتحَدّاهم ﷺ مرة بعد أخرى، على أن يأتوا بسورة من مثله، وهم يسمعون كلاماً عربياً يُتلى عليهم، مُشابه الوصف، مُتَجَانِس الرّصف، سَهْل الموضوع، عَذْب المسموع، خارجاً عن معهود القريض والأسجاع، مُستعذباً في الأفهام والأسماع، فلما عدلوا عن مُعارضته - التي لو تَمَّتْ لَدَلَّتْ على خلاف مُدّعاءه - إلى قتاله، كان الإعجاز قاهراً، وقد تلا عليهم: ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: 88]، فالقرآن العظيم رأس المعجزات، وهو من أقوى براهين النبوة الدالات.

ومنها: أنه شقّ الله له القمر بمكة، لما سأله قريش آية، ومنها: أنه أطعم النّفر الكثير في منزل جابر، ومنزل أبي طلحة، ويوم الخندق، مرّة ثمانين، من أربعة أمداد شعير وعناق - وهو من أولاد المعز - ومرّة أكثر من ثمانين من أقراص شعير حملها أنس في يده، ومرّة أهل الجيش، من تمر يسير، حتّى شبعوا من ذلك وفضل لهم.

ومنها: أنه نَبَعَ الماء من بين أصابعه، فشرب أهل العسكر، وهم عطاش، وتوضؤوا من قدح صغير، ضاق عن أن يسط فيه يده.

ومنها: أنه أهرق وضوءه في عين تبوك، وهي مثل الشراك.

ومرّة أخرى في بئر الحديدية، فجاشت بالماء، فشرب من عين تبوك، وهم ألوف حتّى رَوْؤوا، وشرب من بئر الحديدية ألف وخمسمئة، ولم يكن فيها طائل من الماء.

ومنها: أنه أمر عمر بن الخطّاب أن يزود أربع مئة راكب من تمر كان في اجتماعه كربضة البعير، وهو موضع بروكه، فزودهم كلّهم منه، وبقي على حاله.

ومنها: أنه رمى الجيش بقبضة من تراب، فعَمِيتْ عيونهم، ونزل بذلك القرآن،

قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17].

ومنها: أن الله تعالى أبطل الكهانة بمبعثه، وكان قبل ذلك يُوحى الشياطين إلى أوليائهم ما يسترقون به من السَّمْع، فلَمَّا بُعِثَ ﷺ، حُجِبُوا عن خبر السماء، ورُمُوا بثوابِ الشَّهْبِ، فطافوا شرق الأرض وغربها، حتى سمِعُوا القرآنَ فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝﴾ [الجن: 1/2] وهم الذين آمنُوا مِنَ الْجِنِّ.

ومنها: أنه كان في المسجدِ جذعٌ يَسْتَنْدُ إليه، فلَمَّا عُمِلَ لَهُ المنبرُ، ورقِيَ عليه، حَنَّ ذلكَ الجذعُ إليه، حتى سَمِعَ الحاضرونَ من أصحابه صوتاً، كادَ منه أن ينشَقَّ، فنزلَ النبي ﷺ حتى ضَمَّهُ إليه، فجعلَ يَبْنِي أنينَ الصبي، حتى استقرَّ.

وأخبر⁽¹⁾ عثمان رضي الله عنه، بأنه تُصِيبُهُ بلوى بعدَها الجنة، وبأنَّ عماراً ثَقُلَتْهُ الفِتْنَةُ الباغيةُ، وبأنَّ الحسنَ بنَ عليٍّ يُضِلُّهُ اللهُ به بينَ فئتينِ عظيمتينِ مِنَ المسلمين، وأخبرَ عن رجلٍ قَاتَلَ في سبيلِ اللهِ أَنَّهُ مِنَ أَهْلِ النَّارِ، فَبَانَ بَعْدُ أَنَّهُ قَتَلَ نَفْسَهُ، وَاتَّبَعَهُ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ بنِ جَعْشِمٍ، حتى سَاخَتْ يَدَا فَرَسِهِ في الأَرْضِ، حتى استغاثَهُ، فدعا لَهُ، فَانْطَلَقَتِ الْفَرَسُ، وأخبره⁽¹⁾ بأنه سِيَوْضُعٌ في ذِرَاعِيهِ سِوَارُ كِسْرَى، فَكَانَ كَذَلِكَ، وأخبرَ بِقَتْلِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ الْكَذَّابِ لَيْلَةَ قَتْلِهِ، وهو بصنعاءِ الْيَمَنِ، وأخبرَ بِمَنْ قَتَلَهُ، وخرجَ على مِئَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَهُ لَيْلَةَ مُهَاجَرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَضَعَ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَلَمْ يَرَوْهُ، وَشَكَا إِلَيْهِ الْبُعِيرُ بِحَضْرَةِ أَصْحَابِهِ، وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَتَذَلَّلَ لَهُ، فدعا صاحِبَهُ وقالَ لَهُ: «إِنَّ هَذَا يَشْكُوكَ بِأَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُذِئِبُهُ».

وقالَ لَنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ مُجْتَمِعِينَ: «أَحْذَكُمُ ضَرْسُهُ فِي النَّارِ، مِثْلُ أَحَدٍ». فَمَاتُوا كُلُّهُمْ عَلَى اسْتِقَامَةٍ، وَارْتَدَّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ الرَّجُلُ الْحَنْفِيُّ، فَقُتِلَ مُرْتَدًّا. وقالَ لِآخَرِينَ مِنْهُمْ: «أَخْرُكُم مَوْتًا فِي النَّارِ». فَسَقَطَ آخِرُهُمْ مَوْتًا فِي نَارٍ، فَاحْتَرَقَ فِيهَا وَمَاتَ.

(1) في الأصل: (وأنذر) و(أنذر).

ودعا شجرتين، حينَ أرادَ أنْ يَتَبَرَّزَ في الخلاءِ تحتَهُما ليظِلَّاهُ، ويُسْتِرَّاهُ، فَأَتَيَاهُ طائعتين، واجتمعتا، ثُمَّ أَمَرَهُمَا فافْتَرَقَتَا.

وكانَ ﷺ نَحْوَ الرِّبْعَةِ مِنَ الرِّجَالِ، وَإِنْ مَشَى مَعَ الطَّوَالِ، وكانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ في اليَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فيفَصِّمُ عَنْهُ، وَإِنْ جَبَّيْنَهُ لِيَتَفَصَّدَ عِرْقاً.

ورآه - يوماً - أبو جهلٍ، فجاءَ لِيَطَأَ رَقَبَتَهُ الْكَرِيمَةَ، فما يَهُمُّ إِلَّا وهو يَنْكُصُ على عَقْبِيهِ، وَيَتَّقِي بِيَدِهِ، فَقِيلَ لَهُ: مالِكُ ؟ قال: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَنْدَقاً مِنْ نارٍ، وهولاً، وأَجْنَحَةً، فقال ﷺ: « لو دَنَا مِنِّي لاختطفَتْهُ الملائكةُ عُضْواً عُضْواً ».

وقالَ لَعَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ: « هَلْ رَأَيْتَ الْحَيِرَةَ ؟ فَإِنْ طَالَتْ بِكَ الْحَيَاةُ فَلتَرَيْنَ الطَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحَيِرَةِ، حتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، لا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَلتُفْتَحَنَّ كَنْزُ (كسرى)، وَليَرَيْنَ الرَّجُلُ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فلا يَجِدُ أَحداً يَقْبَلُهَا مِنْهُ، وَليلْقِيَنَّ اللَّهُ أَحَدَكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجِمَانٌ يَتَرَجِّمُ لَهُ، فليقولَنَّ: أَلَمْ أبعثُ إِلَيْكَ رَسُولاً ؟ فيقولَنَّ: بلى، فيقولَنَّ: أَلَمْ أُعْطِكَ مالاً، وَأَفْضَلَ عَلَيْكَ ؟ فيقولَنَّ: بلى، فينظرُ عَنْ يَمِينِهِ، فلا يَرى إِلَّا جَهَنَّمَ، وينظرُ عَنْ يَسَارِهِ، فلا يَرى إِلَّا جَهَنَّمَ، فاتَّقُوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فمنَ لَمْ يَجِدْ فِكْلِمَةَ طَيِّبَةٍ »، قالَ عدي: فرأيتُ الطَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحَيِرَةِ حتَّى تَكُونَ بِالْكَعْبَةِ، لا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكنتُ فيمَنْ افْتَحَ كَنْزَ كَسْرَى بْنِ هَرْمَزٍ، وقالَ لأصحابه: واللَّهِ لِيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتٍ، لا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ على غَنِمِهِ، وَلكنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ. وقالَ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: « هذا مِصرُ فُلانٍ، ووَضَعَ يَدُهُ على الْأَرْضِ هَهُنَا وَهَهُنَا »، فما مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وانكسرتْ ساقُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتِيكٍ، فقالَ لَهُ: ابسِطْ رِجْلَكَ، فَمَسَحَهَا. قال: وكأني لَمْ أَشْكُهَا قَطُّ. وَعَرَضَتْ لَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدِقِ كُذِيَّةٌ - وهي الْحَجَرُ الَّذِي لا يَتَحَفَرُ - فقامَ، وبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ مِنَ الْجُوعِ فَضَرَبَهُ بِالْمَعُولِ فَعَادَ كَثِيلاً أَهْيَلًا.

وعَطِشُوا مَرَّةً أُخْرَى، في غَرَاةٍ، فذهبوا يَطْلُبُونَ الْمَاءَ، فوجدوا امْرَأَةً بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ، فاستَنْزَلُوهَا عَنْ بَعِيرِهَا، ودعا النَّبِيُّ ﷺ بِإِنَاءٍ، فأفرغَ فِيهِ مِنْ أَفْواهِ الْمَزَادَتَيْنِ، ونُودِيَ

في الناس: اسقوا، اسقوا، قال: فشربنا عطاشاً أربعين رجلاً، حتى رَوَيْنَا، وملأنا كلَّ قربةٍ معنا، وأداوةٍ، والله لقد أقلعَ عنها، وإنه ليتخيل إلينا أنها أشدُّ ملاءةً منها حين ابتدأنا، ثُمَّ جمعوا للمرأة من تمرٍ، ودقيقٍ وسويقٍ، وقال لها ﷺ: اذهبي، فإننا لم نأخذ من مائِكَ شيئاً، ولكنَّ الله الذي سقانا.

وارتدَّ رجلٌ كان يكتبُ الوحي، ولحقَ بالشِّركِ، فقال النبي ﷺ: (إن الأرض لا تقبلُهُ)، فأتى أبو طلحةَ الأرض التي ماتَ فيها، فوجده منبوذاً، فقال: ما شأنُ هذا؟ فقالوا: دفناه مراراً، فلم تقبلهُ الأرض.

وقَدِمَ ﷺ من سفرٍ، فلما قَرَّبَ من منزله، هاجت ريحٌ، فكادت أن تدقَّ الراكبَ، فقال النبي ﷺ: بُعِثَتْ هذه الرِّيحُ لموتِ منافقٍ، فإذا عظيمٌ من المنافقين قد مات. وكانت امرأةٌ تُهدي لهم سمناً في عَكَّةٍ فيأتيها بنوها فيسألونها الأذمَّ، وليس عندهم شيءٌ، فتعتمدُ إلى تلك العَكَّةِ فتجد فيها سمناً، فما زال يقيمُ لها أذمَّ بيتها، حتى عصرتها، فقال ﷺ: لو تركتها ما زال قائماً.

وأصابَ الناسَ مجاعةٌ في غَزَاةِ تبوكَ، فقال عمر: يا رسولَ الله: ادعهم بفضْلِ أزوادهم، ثُمَّ ادعُ الله لهم عليها بالبركة، فبَسِطَ نِطْعٌ حتى اجتمع عليه من أزوادهم شيءٌ يسيرٌ، فدعا رسولُ الله ﷺ بالبركة، ثُمَّ قال: خذوا في أوعيتكم، فما تركوا في العسكرِ وعاءاً إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلةٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله، وأني رسولُ الله، لا يلقي الله بهما عبدٌ -غيرَ شاكٍ- فيحجب عن الجنة.

وسَمَّتِ امرأةٌ من يهودِ خيبرِ شاةً مصليةً وأهدتها إليه، فأخذَ الذراعَ، وأكلَ منها، ومعه رَهْطُهُ، فقال: ارفعوا أيديكم، وأرسلَ إلى اليهودية، فقال: سَمِّيتِ هذه الشاةُ؟ فقالت: مَنْ أخبرك؟ فقال: أخبرتني هذه. يعني الذراعَ، فقالت: نعم.

وأناه أبو هريرةَ بتمراتٍ، فقال: يا رسولَ الله ادعُ الله فيهن بالبركة، وضمَّهنَّ، ودعا. فقال: خُذهن، فاجعلهنَّ في مزودك، كلما أردت أن تأخذَ منه شيئاً، فأدخل يدك فيه، ولا تنشره نشرأ، قال: فقد حملتُ من ذلك التمرِ كذا وكذا وسقاً في سبيلِ الله، وكنا نأكل ونطعم، وكان لا يفارق حَقْوِي حتى كان يومُ قتلِ عثمانَ فانقطع.

ودعا النصارى إلى المباهلة، فامتنعوا، وأخبرهم أنهم إن فعلوا هلكوا، فعلموا صحة قوله، فامتنعوا.

وأناه عامر بن الطفيل، وأريد بن قيس، وهما فارسا العرب، وفاتكاها، عازمين على قتله، فحبل بينهما وبين ذلك، فلما خرجا مات عامر بغدة أصابته وأصابته أريد بن قيس صاعقة، وكان قد دعا عليهما فقال: اللهم اكفنيهما بما شئت، أو نحوه. وأخبر أنه يقتل أبي بن خلف الجمحي، فخدشه يوم أخذ خدشاً لطيفاً، فكانت فيه منيته.

وأنذر-عليه السلام- بأن طوائف من أمته يغزون في البحر، فكان كذلك. وزويت له الأرض، فأري مشارقها ومغاربها، وأخبر ببلوغ ملك أمته ما زوي له منها، فكان ذلك، وبلغ ملكهم من أول الشرق، من بلاد الترك إلى آخر المغرب من بحر الأندلس، وبلاد البربر، ولم يتسعوا في الجنوب، ولا في الشمال كما أخبر عليه السلام، سواء بسواء.

وأخبر ابنته فاطمة بأنها أول لحاقاً به، فكان كذلك. وأخبر نساءه بأن أطولهن يداً أسرعهن لحاقاً به، فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن يداً، وأولهن لحوقاً به.

ومسح ﷺ ضرع شاة حائل لا لبن لها، فذرت، فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود، وفعل ذلك مرة أخرى في خيمتي أم معبد، وكان عندها أعنز عجاف فقدم زوجها فوجد عندها لبناً، فقال: من أين هذا؟ فأخبرته، ووصفت له رسول الله ﷺ فقال: هذا فتى قريش.

ونذرت عين بعض أصحابه، فسقطت فردّها - عليه السلام - بيده، فكانت أصح عينيّه وأحسنها، وتفل في عين عليّ، وهو أرمذ، يوم خير، فصح من وقته، وبعثه بالراية، وبشر أنه يفتح الله على يديه، فكان كذلك.

وحكى الحكم بن أبي العاص مشيته ﷺ، فلم يزل يرتعش حتى مات. ورأى بضعة عشر رجلاً فوران الماء من بين أصابعه ﷺ، وهذا أبلغ من انفجار

الماء من الحجر.

وشكا إليه قومٌ مُلَوَّحَةٌ بِئْرِ لَهُمْ، وَقِلَّتْهُ، فجاء في جماعةٍ من أصحابه، حتى أشرف على بئريهم، فَتَفَلَّ فِيهَا، فانفجرت بالماء العذب الزلال.

ولما بلغ مُسَيْلِمَةَ الكذاب هذا، وسئل معجزةً مثل هذه، فَتَفَلَّ في بئرٍ فغارَ ماؤه، بعد أن كان أجاجاً⁽¹⁾، فأكدَّ اللهُ صِدْقَ النَّبِيِّ ﷺ، وكذبَ مسيلمة.

وعن حبيب بن مدارٍ أن أباه خرج إلى رسولِ الله ﷺ، وعيناه مبيضتان، لا يُبْصِرُ بهما شيئاً، فنفتَّ رسولُ الله ﷺ في عينه، فأبصر، قال الراوي: فرأيتُهُ يُدْخِلُ الْخِيطَ فِي الْإِبْرَةِ، وَإِنَّهُ لَا بِنُ ثَمَانِينَ، وعيناه مبيضتان.

وانقطع سيفُ عكاشة بن محصن يومَ بدرٍ، فأعطاه النبي ﷺ جذلاً من حطبٍ فقال: قاتل به، فلما أخذه من يده، هزَّه فإذا سيفٌ في يده طویلُ القامة، فشهدَ به المشاهد معه، وَقُتِلَ يَوْمَ الرَّدَّةِ وهو في يده.

ولما فتح اللهُ مكةَ قصدَ الأصنامَ، فأخذَ عوداً وجعلَ يطعنُ وجوهها، ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: 81] وكلَّما أشارَ بيده إلى صنمٍ خرَّ لِوَجْهِهِ من غيرِ أن يَمَسَّهُ شيءٌ.

وكان يوماً بالحجون وهو كئيبٌ حزينٌ، فقال: (اللَّهُمَّ ارْنِي آيَةً لَا أَبَالِي مَنْ يَكْذِبُنِي بَعْدَهَا)، ونادى شجرةً من قِبَلِ عَقْبَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فجاءتْ تَشُقُّ الْأَرْضَ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَيْهِ، فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَهَا فَرَجَعَتْ.

وقَدِمَ رَجُلٌ بِابِلٍ إِلَى مَكَّةَ، فَابْتَاغَهَا مِنْهُ أَبُو جَهْلٍ، وَمَطَّلَهُ أَثْمَانَهَا، فَشَكَاهُ إِلَى قَرِيشٍ، فَأَشَارُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اسْتِهْزَاءً بِهِ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَ إِلَى بَابِ أَبِي جَهْلٍ فَضَرَبَ عَلَيْهِ الْبَابَ، فَخَرَجَ، وَقَدْ انْتَقَعَ لَوْنُهُ، فَقَالَ: أَعْطِ هَذَا الرَّجُلَ حَقَّهُ، فَدَخَلَ وَخَرَجَ إِلَيْهِ بِحَقِّهِ، فَقَالُوا لِأَبِي جَهْلٍ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ ضَرَبَ عَلَيَّ بَابِي، وَسَمِعْتُ صَوْتَهُ فَمُلِئْتُ رُعْباً، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَيْهِ، وَإِنَّ فَوْقَ رَأْسِهِ لَفَحْلاً مِنَ الْإِبِلِ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَامَتِهِ وَأَنْبِيَاهِ

(1) كذا، ولعلها: ثجاجاً

فخلأ، لو أبيث لأكلني.

ودخل رسول الله ﷺ حائطاً للأنصار، وفيه غنم فسجدت له.
والذين كسروا رُبَاعِيَّتَهُ لم يولد لهم مَوْلودٌ، وَنَبَتْ رُبَاعِيَّتُهُ.
وكانت رُؤْيَتُهُ مَنْ خَلْفَهُ كَرُؤْيِيَّتِهِ مَنْ أَمَامَهُ.

وتنام عينه ولا ينام قلبه، ويسمع أصوات أهل القبور وأطيط السماء.
ومن ذلك دعاؤه المستجاب في مواطن عدة، أحدها: لما قال: «اللهم اشدُّ وطأتك على مُضَرٍّ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، فابتلوا بالجوع، حتى أكلوا العِلْهَزَ - وهو الدَّمُ بالوَبَرِ - والثاني: لما قال: اللهم عليك بالملأ من قريش، وعدَّ أسماءهم، فقتلوا كلهم يوم بدر، والثالث: لما تلا ﷺ: ﴿وَالنَّجْرُ إِذَا هَوَىٰ﴾ قال عتبة بن أبي لهب: كفرت برب النجم، وردَّ على رسول الله ﷺ ابنته، وآذاه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فخرج مع أصحابه في غير إلى الشام، فزار الأسد فجعلت فرائضه تُرعد، فقيل له: ما تخشى؟ فقال: إن محمداً دعا علي، ولا والله ما أظلت السماء من ذي لهجة أصدق من محمد، ثم وضعوا العشاء، فلم يدخل يده فيه، حتى جاءهم النوم، فحاطوا أنفسهم بمتاعهم ووسطوه بينهم، وناموا، فجاء الأسد، فضغمة ضغمة كانت إياها، وهو يقول في آخر رمق به: ألم أقل إن محمداً أصدق الناس.

الرابع: لما قحط الناس قام إليه رجل يوم الجمعة، وهو يخطب، فقال: يا رسول الله قحط المذر، واحمرَّ الشجر، فادع الله لنا، فرفع يده ودعا الله أن يسقيهم الغيث، وما في السماء قزعة سحاب، فما استتمَّ دعاءه حتى نشأت سحابة، فأمطرت من الجمعة إلى الجمعة، فقام إليه في الجمعة الأخرى ذلك الرجل، أو غيره، فقال: يا رسول الله: تهدمت البيوت، وانقطعت السبل، فادع الله لنا، فرفع يديه، وقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فانجاب السحاب عن المدينة، حتى أحرق بها كالإكليل، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه.

ومعجزاته ﷺ أكثر من أن تحصر في هذا الكتاب، فإن أحواله وشؤونه إذا تأملها

المتأمل يجدُها كلها أنباءً دالةً على نبوته، وبراهينَ ساطعةً قاطعةً برساليته، وإنما هذه جُمْلٌ مِنْ رُؤوسِ معجزاته، ولم يَسْجِعِ الْكِتَابُ لنقلها بكمالِ متونها، وَمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ، فليستخرجها بكمالها مِنْ كُتُبِ السَّيْرِ وَالْمَغَازِي، بِأَسَانِيدِهَا وَطُرُقِهَا، وَكَمَالِ مَثُونِهَا، وَالْمَرَادُ هَهُنَا التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا، لِمَنْ وَقَفَ عَلَيْهَا مِنَ السَّيْرِ، فَتَكُونُ تَذَكُّرَةً لَهُ، وَبَيَانًا لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْمَعَانِي السَّلَوَكِيَّةِ، الَّتِي تَرَسَّخُ بِهَا الْأَدْيَانُ، وَتَقْوَى بِهَا الْقُلُوبُ، وَيَتَأَيَّدُ بِهَا الْإِيمَانُ، وَيَتَضَحَّى بِسَبِيلِهَا بَرَاهِينُ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِيقَانِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَإِيَّاهُ نَعْبُدُ، وَإِيَّاهُ نَسْتَعِينُ.

ثُمَّ لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِيْمَانِهِ مُتَرَقِّيًا، كُلُّ وَقْتٍ يَنْكَشِفُ لَهُ بَرَهَانٌ مِنْ بَرَاهِينِهِ، وَدَلِيلٌ مِنْ أَدْلَتِهِ، وَشَهَابٌ مِنْ شُهُبِهِ، يَحْرِقُ بِهَا هَوَاجِسَ الْوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَكُلُّ حِينٍ يَجِدُ مُصْبِحًا مِنْ مُصَابِيحِ الْيَقِينِ، يُسَرِّجُ فِي ظِلْمَاتِ الشُّكُوكِ، وَدِيَاجِي الْارْتِيَابِ الْعَمَاوِيَّةِ، حَتَّى تَرَسَّخَ فِي قَلْبِهِ قَوَاعِدُهُ وَأَصُولُهُ، وَتَنْتَشِرَ فُرُوعُهُ فِي فُضَاءِ سِرِّهِ وَغُصُونِهِ، فَيَصِيرُ مُؤْمِنًا حَقًّا، فَالْإِيمَانُ: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ٢٤ تَوَقَّ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿[إِبْرَاهِيم: 24/25]، وَهُوَ دِينٌ عَظِيمٌ لَا نِهَايَةَ لِأَسْرَارِهِ وَحَقَائِقِهِ، وَلَا نِفَادَ لِمَعَانِيهِ وَدَقَائِقِهِ، وَكُلُّ شَخْصٍ يَتَضَحَّى لَهُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ مَا قُسِمَ لَهُ مِنْهُ، وَاقْتِضَاءُ اسْتِعْدَادِهِ، وَانْتِهَى إِلَيْهِ حِدَّةُ فِطْنَتِهِ، وَنُورُ قَلْبِهِ، وَاسْتِمْدَادُهُ، فَفَهْوُمُ عُلُومِهِ غَزِيرَةٌ، وَأَنْوَارُ مَشَاهِدَتِهِ جَمَّةٌ كَبِيرَةٌ، وَلَيْسَ فَهْمُ عَوَامِ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَسْرَارِ هَذَا الدِّينِ، كَفَهْمِ الصُّلَحَاءِ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ فَهْمُ الصُّلَحَاءِ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، كَفَهْمِ الْمُوقِنِينَ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ فَهْمُ الْمُوقِنِينَ كَفَهْمِ الصَّدِيقِينَ، الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَخُلَفَاءُ الرُّسُلِ، أَهْلُ الْمَعَارِفِ الرَّاسِخَةِ، وَالْمَرَاتِبِ الشَّامِخَةِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40].

فصل

وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنُ أَنَّ هَذَا الدِّينَ لَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، وَصُورٌ⁽¹⁾ وَلِبَاطٌ، وَأَسَاسٌ وَذُرُوءٌ،

(1) كُتِبَ فِي الْمَخْطُوطِ: (فُصُور).

فالموفق مَنْ لم يَقْنَعْ مِنْ هَذَا الدِّينِ بظَاهِرِهِ، حَتَّى يَتَحَقَّقَ بِحَقَائِقِ أَسْرَارِهِ وَبَاطِنِهِ، وَلَا يَطْمِئُنُّ حِينَ الْوُقُوفِ عَلَى أَسَاسِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى ذُرْوَةِ عُلْيَائِهِ، فَأَكْثَرُ الْعَامَّةِ إِنَّمَا حُجِبُوا عَنْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ قَنَعُوا مِنَ الْأَشْيَاءِ بِضُورِهَا، وَلَمْ تَسْمُ هِمَمُهُمْ إِلَى ذَوْقِ حَقَائِقِهَا وَعَزِيزِهَا⁽¹⁾.

فصل

وَمَنْ أَرَادَ تَحْقِيقَ هَذَا الدِّينِ وَالْوُصُولَ إِلَى ذَوْقِ الْمُحِبِّينَ، فَعَلَيْهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ، وَتَصْفِيَّتِهَا مِنَ الشَّوَائِبِ، فَإِنَّ «الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ»، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»، وَقَرَّةُ الْعْيُونِ فِي الْإِنْتِهَاءِ إِنَّمَا تَكُونُ بِتَصْحِيحِ عَزَائِمِ الْإِبْتِدَاءِ، وَالتَّخَلُّفِ عَنْ دَرْكِ الْغَايَاتِ، إِنَّمَا يَكُونُ بِسَبَبِ فُسَادِ الْبُدَايَاتِ، فَمَنْ صَحَّحَ أُمُورَ بَدَايَاتِهِ قُضُوداً وَعُلُوماً وَأَعْمَالاً، سَارَ إِلَى مَطْلُوبِهِ حَمِيداً، وَانْحَلَّتِ الْعَوَاقِقُ مِنْ قَلْبِهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْتَظَارُ مَا قُسِمَ لَهُ فِي الزَّمَانِ الَّذِي وُقِّتَ لَهُ، فَهَذَا حَالُ تَصْحِيحِ أُمُورِ الْبُدَايَةِ فِي الْقُصُودِ، وَتَحْقِيقُهُ أَنْ يَقْصِدَ رِضَا اللَّهِ بِاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ اللَّهُ، لِقَائِهِ -يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ- يَوْمَ يَلْقَاهُ بِوَجْهِ أَبْيَضٍ، فَتَقَرَّرَ عَيْنُهُ بِلِقَائِهِ، وَيَحْظَى مِنْهُ بِالْكَرَامَةِ وَالتَّقَرُّبِ وَالزُّلْفَى عِنْدَهُ، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ، ثُمَّ يَر_اقِبُ هَذِهِ النِّيَّةَ فَيُصَفِّيْهَا مِنَ الشَّوَائِبِ الْقَادِحَةِ، وَالْعَوَارِضِ الطَّارِقَةِ الثَّائِرَةِ، مِنْ عَوَالِمِ الطَّبِيعَةِ وَالنَّفْسِ الْمَمَازِجَةِ لِعَوَالِمِ الْقَلْبِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا، وَكُلُّ شَطْرٍ مِنْهُمَا يَمِيلُ بِطَبِيعِهِ إِلَى حِظِّهِ، فَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُصَفِّي قَصْدَ نَصِيبِ قَلْبِهِ، عَنْ حِظِّهِ الْمَشْوَشِ، مِنْ نَصِيبِ نَفْسِهِ، حَتَّى يَصِيرَ الْحِظُّ الْأَعْلَى خَالِصاً عَنِ الْحِظِّ الْأَدْنَى، وَبِذَلِكَ تَتِمُّ صِحَّةُ الْقُصُودِ فِي الْمُبَادِي، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

(1) قد علمنا من مجموع كلام الواسطي أنه لا يعني بكلامه على الظاهر والباطن ما عناه زنادقة الصوفية.

فصل

ثُمَّ عَلَيْهِ - حِينَئِذٍ - بَعْدَ تَصْحِيحِ الْقَصْدِ وَتَكْمِيلِهِ، بِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ لِهَذَا السَّفَرِ كَالزَّادِ فِي تَبْلِيغِهِ إِلَى مَقْصِدِهِ، وَتَوْصِيلِهِ، وَعَلَى الْعِلْمِ، يَتَرْتَّبُ الْعَمَلُ، وَعَلَيْهِمَا تَرْتَقِي مَبَانِي الْعِبُودِيَّةِ، الَّتِي مَنْ وَصَلَ إِلَيْهَا اسْتَقَرَّ دِينُهُ، وَقَوِيَ تَمَكُّنُهُ، وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمُوسُ الْعِرْفَانِ، وَبَزَعَتْ فِي سِرِّهِ أَقْمَارُ الْإِيْقَانِ، فَيَذْهَبُ مَعَهُ كُلُّ رَيْبٍ، وَيَصْفُو عَنْ كُلِّ دَنْسٍ وَعَيْبٍ، وَيَصِيرُ الْخَبْرُ عِنْدَهُ مَعْرِفَتُهُ بِالْمَعْبُودِ عَيَانًا، وَيَعُودُ التَّصْدِيقُ إِيقَانًا وَبِرْهَانًا.

أَوَّلُ ذَلِكَ: الْإِعْتِنَاءُ بِعِلْمِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، مِثْلُ سِيرَةِ (ابْنِ هِشَامٍ)، أَوْ مَغَازِي (مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ)، أَوْ (سِيرَةِ الْوَاقِدِيِّ، وَيَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأُمَوِيِّ، وَمُحَمَّدِ بْنِ عَائِدٍ)، وَكِتَابِ دَلَائِلِ الثَّبُوتِ (لَأَبِي نُعَيْمٍ الْحَافِظِ الْأَصْبَهَانِيِّ)، (وَلَأَبِي بَكْرِ الْبَيْهَقِيِّ)، وَلَأَقْصَى الْقَضَاةِ (الْمَاوَرِدِيِّ)، وَ(لَعَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ أَحْمَدَ الْهَمْدَانِيِّ)، وَ(لَأَبِي الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيِّ)، وَغَيْرِهِمْ، وَمِنْهَا: كُتُبُ مَنَاقِبِهِ وَفَضَائِلِهِ، كَكِتَابِ (شَرَفِ الْمُصْطَفَى) (لَأَبِي سَعِيدِ النِّسَابُورِيِّ)، وَكِتَابِ (الشِّفَا فِي تَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى، لِلْقَاضِي عِيَاضٍ)، وَ(الْوَفَاءُ لِأَبِي الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ)، وَغَيْرِهِمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الْمَوْضُوحَةِ لَدَلَائِلِ النَّبُوتِ وَمَعَالِمِهَا، فَذَلِكَ مِنْ أَهَمِّ الْعُلُومِ لِلطَّالِبِينَ، فَإِنَّ مَنْ عَجَزَ فِي زَمَانِنَا عَنْ لِقَاءِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالْمَهَاجِرَةِ إِلَيْهِ، غَدَلَ عَلَى سِيرَتِهِ، وَالنَّظَرِ فِي ابْتِدَاءِ حَالِهِ ﷺ مِنْ طُفُولِيَّتِهِ إِلَى كِمَالِ بُلُوغِهِ وَمَنْشِئِهِ، وَكَيْفَ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ بَوَادِي الْوَحْيِ وَأَعْلَامُ النَّبُوتِ طَوْرًا طَوْرًا، مِنْ حِينَ بَدَأَ الْوَحْيُ إِلَى حِينَ مَهَاجِرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَإِلَى حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِ الْكُفَّارِ، وَإِلَى أَنْ ظَهَرَ دِينُهُ عَلَى الْأَدْيَانِ، وَانْتَشَرَ بَارِزًا فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:9]، فَبِذَلِكَ يَنْكَشِفُ لِلْقَلْبِ حَقَائِقُ النَّبُوتِ، وَيَعْرِفُ أَسْرَارَ الرِّسَالَةِ، وَيَعْرِفُ النِّسْبَةَ بَيْنَهُ ﷺ، وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالرَّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، فِي دَعَائِهِمُ الْكُفَّارَ إِلَى عِبَادَةِ الرَّبِّ الْقَهَّارِ، وَمَعَانِدَتِهِمْ لَهُمْ، وَصَبَرَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمْ حَتَّى فَتَحَ عَلَيْهِمْ بِالنُّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَتَغَلَّبَ كَلِمَةُ الرَّحْمَنِ عَلَى كَلِمَةِ الطَّغْيَانِ، وَيَجِيءُ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَيَدْخُلُ النَّاسُ

في دين الله أفواجاً، خصوصاً لمن قد عرف النبوات السالفة، والشرائع السابقة، فيتحقق القلب أن الله أرسله حقيقةً، كما أرسل الأنبياء من قبله، ويوقن القلب أن دينهم واحد، وشرائعهم شرائع مختلفة، ينطقون من عين واحدة، ويسطع نورهم من مشكاة واحدة، ويدعون إلى رب واحد، كما قال النجاشي لما سمع القرآن: « هذا والذي جاء به موسى من مشكاة واحدة ».

فحينئذ يترقى القلب إلى عين اليقين، بأمور الدين، بعد وجدانه لعلم اليقين، ثم بعد ذلك يعتني بعلم السنن والآثار، ليعرف دين هذا النبي الكريم، وآدابه وسننه وعاداته في قيامه وقعوده، وأسفاره ومغازيه، وعباداته ومعاملاته، ومعاشرته للأصحاب والأزواج، وغير ذلك مما تدل عليه سننه المدونة في مثل: الصحاح كصحيح البخاري ومسلم، وموطأ مالك، وصحيح الإسماعيلي، والبرقاني، وأبي حاتم البستي، والحاكم النيسابوري، وصحيح الجورقي، وصحيح أبي نعيم الأصبهاني، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود، وابن ماجه، وشرح السنة للبغوي، وكتب المسانيد الكبار، كمسند الإمام أحمد بن حنبل، ومسند إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، ومسند أبي بكر بن أبي شبة، ومسند عبد بن حميد الكشي، ومسند محمد هارون الروياني، ومسند عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ومسند أبي يعلى الموصلي، ومسند أبي داود الطيالسي، ومسند موسى بن قرة الزبيدي، وكتب المختصرات من الكتب، كالجمع بين الصحيحين للحميدي، وجامع الأصول لابن الأثير الجزري، والمصابيح للبغوي، وأحكام عبد الحق المغربي، وعبد الغني المقدسي، وأبي البركات ابن تيمية الحراني، ومحمد بن عبد الواحد المقدسي، وغير ذلك من كتب الحديث، الموجودة في هذا العصر، في آفاق الدنيا، المحفوظة عند الحفاظ ؛ ليعرف الإنسان مجمل كمال ما جاء به الرسول ﷺ، فإن ذلك من أهم المهمات، فكثير من السالكين اختصر لنفسه طريقاً إلى الله تعالى من السنة قبل الوقوف على مجمل ما جاءت به السنة، فانضم قصوره في الحال إلى تقصيره في العلم، فانحرف انحرافاً بيناً، والموفق من عرف أولاً: كمال ما جاء به الرسول، فإن

وَجَدَ نَفْسَهُ مُسْتَعِدَّةً لِلْأُمُورِ الْخَاصَةِ وَالْعَامَّةِ، قَامَ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنْهَا، وَإِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ عَاجِزاً عَنِ الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ الْعَامِّ، كَمَا قَامَ بِهِ الرَّسُولُ وَخُلَفَاؤُهُ الْكُمَّلُ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ اخْتَصَرَ - حِينَئِذٍ - لِنَفْسِهِ مِنْ تِلْكَ طَرِيقَةً، يَرْتَقِي بِهَا حَيْثُ عَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ بِكَمَالِ الدِّينِ، وَاشْتَغَلَ بِخَاصَّةِ نَفْسِهِ، حَيْثُ لَمْ يَتَسَّعَ لِعَامَّةِ الْخَلْقِ مِنَ الْقِيَامِ بِأُمُورِ الْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ وَالْجِهَادِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ بُعِثَ بِكَمَالِ الْعِلْمِ مَكْمِلاً لِلْعَمَلِ وَالْحَالِ الْقَلْبِيِّ، مُجَاهِداً لِأَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى.

هَذَا دِينُهُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ سُنَّتُهُ، وَالْكِتَابُ الْعَزِيزُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَاقْتَسَمَتِ الْأُمَّةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ ثَلَاثًا:

فَقَوْمٌ اعْتَنَوْا بِالْعُلُومِ الظَّاهِرَةِ، وَلَمْ يَعتَنُوا بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَأَحْوَالِهَا، وَهَمُّ غَالِبٌ فَفُتُّوا عَصْرَنَا.

وَقَوْمٌ اعْتَنَوْا بِالْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ، وَلَمْ يَعتَنُوا بِالْعُلُومِ، وَلَا التَّزَامَ الشَّرَائِعِ عَلَى الْكَمَالِ، وَهَمُّ غَالِبُ الْعُبَادِ وَالْفُقَرَاءِ.

وَقَوْمٌ اعْتَنَوْا بِجِهَادِ الْأَعْدَاءِ، وَلَمْ يَعتَنُوا بِالْعِلْمِ وَلَا بِالْعَمَلِ مَعَ الْحَالِ، وَهَمُّ الْغَزَاةِ.

وَالدِّينُ الْمَحْمُودِيُّ الْكَامِلُ هُوَ الدِّينُ الْجَامِعُ لِهَذِهِ الْأَقْسَامِ، فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْرِفَ أَوَّلًا: كَمَالَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، لِيَعْرِفَ مَا هِيَ الدِّينُ وَصُورَتُهُ، فَإِنْ قَدَرَ عَلَى إِقَامَتِهِ بِكَمَالِهِ وَإِلَّا أَخَذَ مِنْهُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي طَرِيقٍ خَاصَةٍ لَهُ، وَمَتَى تَعَبَّدَ قَبْلَ مَعْرِفَتِهِ بِكَمَالِ الدِّينِ جَذَبَهُ الْجَهْلُ إِلَى الْإِنْحِرَافِ عَنِ الدِّينِ، حَتَّى يَبْقَى فِي شُعْبٍ مُنْحَرِفٍ عَنِ شُعْبِ الْمُهْتَدِينَ.

ثُمَّ يَقِفُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَا يَلِزُّهُ مِنَ عِلْمِ الْفَرَائِضِ وَالْأَحْكَامِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فَيَقْلُدُ فِيهِ الْمُجْتَهِدِينَ، إِنْ عَجَزَ عَنِ اسْتِنْبَاطِهِ مِنَ الْحَدِيثِ، وَمَعَالِمِ الدِّينِ، فَيَعْرِفُ فَرَائِضَ الْوُضُوءِ وَسُنَنَهُ، وَفَرَائِضَ الصَّلَاةِ وَسُنَنَهَا، وَفَرَائِضَ الزَّكَاةِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِ الْفُرُوضِ الْخَاصَةِ بِهِ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَخْصُهُ مِنَ الْفُرُوضِ مَا لَا يَخْصُ غَيْرَهُ، وَيَبْتَلَى بِوَاجِبَاتٍ لَا يَبْتَلَى غَيْرُهُ بِهَا، فَإِنَّ التَّاجِرَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ مَا لَيْسَتْ عَلَى الْفَقِيرِ، وَمِثْلُهُ الْقَاضِي وَالْوَالِي، وَوَلِيُّ الْأَمْرِ، كُلُّ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ عِلْمَ وَاجِبَاتِ

ما يلزمه القيام به، فبذلك يعرف حدود الله فيه فيلتزمها، ويقوم بها، ومن كان جاهلاً بالحدود يتعداها: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229].

فصل

فإذا صحَّح النية في الابتداء، وأتقن العلم في التوسط، فعليه - حيثئذ - التكميل بالعمل، وأول ذلك:

الاعتناء بآمرار السنة على الظاهر والباطن، والتمسك التام بالشرعة والاقتفاء لأثار الرسول ﷺ، وطلب التشبه به في دله وسمته وهديه، وصيامه وقيامه، وتهجدّه وصلاته وقراءته، فيجعله مرةً بين عينيه شيخاً له، ومؤدباً يراه بعين قلبه، وإن غاب في الظاهر عن شخصه، فبذلك يتم الاتباع له، والاقتداء به.

ومن كان في الدنيا متبعاً له مقتدياً به، قد جعله إماماً بين يديه، ناظراً إليه في كل حركة، يُصغي إليه ما يقول فيها، فيستعمله، فهو في الدنيا معه، وفي الآخرة إن شاء الله تعالى يكون صاحبه، يُحشَرُ تحت لوائه وصُنَجَقِهِ⁽¹⁾، غير منحرف عنه، ولا حائد عن مرافقته.

ومتى جعل السالك شيخاً آخر قبْلته، وصارت له ربانية على قلبه تحجبه عن ربانية الرسول وهيمته، دخل الانحراف عليه قطعاً، عليم ذلك من علمه، وجهله من جهله، ومتى جعل النور المحمديّ أمامه اهتدى، ومن تمسك بشريعته وسنته فقد استمسك بالعروة الوثقى.

وإنما قصر متعبدو زماننا عن الوصول إلى الحقائق، لامتلاء أسرارهم من شيوخهم وربانيتهم عليها، فحجبوا بذلك عن ربانية الرسول، فانحرفوا كثيراً عن طريق الهدى، وذلك لأنهم عجزوا عن استنباط أسرار المعرفة من سنته، ووجدوا الشيوخ قد لحظوها، فجعلوا السنة حكماً للظاهر، وعدلوا إلى شيوخهم في الأسرار

(1) الصنjq ؛ وتنطق (الصنjq) أيضاً، لفظة تركية، تعني: العلم والراية، استعملت منذ الدولة الأيوبية، وتجمع على: سناjq.

والحقائق، ولو وُقِفُوا لاستنبطوا من سنته الحقائق الكاملة، والأسرار الباطنة، والمقامات العالية، والله الموفق.

وتمام العمل النصح لله فيه، وإتقان كل أمر دل عليه الاتباع، كما ينصح العبد البار الناصح لسيده الذي يحب له ما يحب لنفسه، فتراه إذا أشار إليه بأمر، أو ندبه إلى حاجة نهض نهوض الناصحين، وبذل جهده في تحصيل الغرض لسيده، فهو موثوق به أمين لذلك.

من طلب التحقيق بالمحبة والعبودية، والوصول إلى الأسرار العلية، ينصح ربه في كل حق أمره به، أو نهاه عنه، أول ذلك:

إذا دخل وقت الفريضة يعزم على النصح لله فيها، فيتوضأ كما دلت السنة عليه، بلا زيادة ولا نقصان، ثم يتقدم إلى المحراب بقلب معظم لله، محب له، مشتاق إلى لقائه، فيكبره بالإجلال والتعظيم، ويعلم أنه عالم به وبمكانه، مطلع على سره وضميره، فيقول: (الله أكبر) من سويداء قلبه، حتى يتسخ في التكبير عن قلبه سوى عظمة من كبره، فذلك هو النصح التام في التكبير، فمن كبر كذلك فقد نصح ربه في تكبيره، ولم يقصر. ثم إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، فليحمد الله بقلبه، ويجعل لسانه ترجماناً لما في ضميره، بلا مزاحمة ولا وسواس حائل عن نطق القلب بمعنى الحمد، ثم يتكلم بكل معنى من معاني الفاتحة بلسانه، مُعبراً عما في قلبه بخضوع وخشوع وحضور وابتهاال، كأنه واقف بين يدي ربه في عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ، وهو يُناجيه ويخاطبه، وكذلك يجتهد العبد في الركوع ؛ أن ينصح فيه لله، وصفة النصح فيه: أن يخضع لله بقلبه، كما خضع له ببدنه، فإن صورة الركوع صورة التواضع، فمتى خلت هذه الصورة من معنى وحقيقة كانت خداجاً، ناقصة كالبدن بلا روح، وروحها وحقيقتها خضوع القلب، مصداقاً لما ظهر من خضوع الجسم، وكذلك في السجود، يسجد بقلبه كما يسجد ببدنه، وهي التحيات يناجي ربه به بكل معنى من معانيه، كأنه يخاطب به ربه، وهو يسمعه ويراه، فبذلك يتم النصح لله في الصلاة.

ولو فرضنا رجلاً منا وقف بين يدي أمير، لاستحيا منه أن يكلمه وهو غير

حاضرٍ ولا مجتمعٍ الهَمِّ، بل ربُّما خافَ منه إنْ رآه على تلكِ الحالةِ أنْ يَهْمَ به، أو يَمُقَّتَه، فكيف بالعبدِ الذليلِ إذا وقفَ بين يدي الربِّ الجليلِ؟

والترقي إلى حقائق الإيمانِ وذروتهِ إنما يكونُ بالنصحِ لله في اتباعِ أوامره واجتنابِ مناهيه، فعوالمُ الخلقِ قَصَّروا عن ذلكِ لأنهم يعاملون ربَّهم بالظواهر، ولا ينصحونه في معاملته بالسرائر، يَقْنَعُونَ من الأعمالِ بِضُورِها وقلوبُهم خاليةٌ عن حقائقها.

ثُمَّ على العبدِ الطالبِ الراغبِ في سَنِيِّ التقريباتِ، وتَخَفِ المواهبِ، أنْ يجتهدَ من حينِ طلوعِ الشمسِ إلى غُرُوبِها، وَمِنْ غُرُوبِها إلى طلوعِها على أَلَا يعصِي ربَّه بجارحةٍ مِنْ جوارِحِه، وهذا هو حقيقةُ التقوى والتوبة، ولا يَسْتَمُ ذلكِ إلا برعايةِ الجوارحِ السبعِ، التي هي العينُ والأذنُ واللسانُ والبطنُ والفرجُ واليدُ والرجلُ، فيصونُ هذه الجوارحَ عن كُلِّ حَرَكَةٍ تُهَيِّئُ عنها، أو كُرِهَ له فَعَلُها، فيحفظُ العينَ عن النَّظَرِ إلى النساءِ والصبيانِ، فالصَّبِيُّ الجميلُ -في الحكم- كالمرأةِ، فكما حُرِّمَ النظرُ إلى المرأةِ فكذلكِ الصَّبِيُّ، ويحفظُ اللسانَ من الغيبةِ والنميمةِ وقولِ الزُّورِ وما لا يحلُّ، ويحفظُ السَّمْعَ عن الاستماعِ إلى الفواحشِ، فإن المستمعَ شريكُ القائلِ، ويحفظُ البطنَ عن أكلِ الحرامِ وأموالِ الظُّلْمَةِ، وما لا يملكُ من الغصوبِ وغيرها، وكذلك يحفظُ الفرجَ عن الحرامِ، واليدينِ والقدمينِ أنْ يحركهما أو يسعى بهما إلى ما حرَّمَهُ اللهُ تعالى، وعن جميعِ المكروهاتِ.

فَمَنْ لم يُجانبِ المكروهاتِ قد يقعُ في المحظوراتِ، فالمكروهاتُ سياجٌ، مَنْ تعدَّها جاوزَ إلى الحِمَى، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: 30]، قَدَّمَ غَضَّ البصرِ على حفظِ الفرجِ، فَمَنْ ضَيَّعَ بصرَه -وهي معصيةٌ يُمكنُ تلافِيها بالتوبةِ، عن قريبٍ- خيفَ عليه أنْ يقعَ في المعصيةِ الكبرى التي لا يُمكنُ تلافِيها إلا بالجهدِ الجَهِيدِ، وَمَنْ لم يحفظْ هذه الجوارحَ لم يستقمْ له قَلْبٌ، ولم يَنْمُ له عملٌ.

ولا بُدَّ مِنْ محاسبةِ النفسِ على كُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِ الجوارحِ حتى تَبْقَى

الجوارح في أقوالها وأعمالها محفوظة مضبوطة، وبذلك يخف الحساب على العبد في الآخرة، فإنما خف الحساب على قوم حاسبوا نفوسهم في الدنيا، ومن حاسب نفسه في الدنيا، واستغفر الله عند كل زلل يصدر منه، مُجِي عنه بذلك ذنبه إن شاء الله تعالى، فالعبد ولو تحفظ مهما تحفظ لا بد من الذنب، فمن محاه بالتوبة، فإنه يتنور قلبه، ويشرق سِرُّه، ويفتح على قلبه باب علم النية، ومعاملة الله تعالى بالإخلاص، فيتفقد حركاته وسكناته، فكل حركة أو عمل خلا من نية صالحة لا يتحرك فيها، والنية الصالحة إما أن يطلب بذلك العمل ثواب الله، أو يحصل له منه مصلحة دنيوية، يثم له فيها معاشه، وما عدا هذين الأمرين، فهو فضول لا فائدة فيه، ومن ترقى إلى علم النية والإخلاص ارتقى من أمور العالم إلى أعمال الموقنين، ودخل في أعمال أهل اليقين، وبهذا يثم النصح لله لأن من التزم هذا يطالب نفسه بالنصح لله في معاملاته وعبادته يجب أن لا يتخلف عن نذب نذبه ربه إليه، أو حق أوجبه عليه، ثم لا يرضى من نفسه أن يقوم بصورته دون أن يعامل ربه بمعناه وحقيقته، فبذلك تتم العبودية، ومن ذلك تصحيح أمور الصلاة كما مر أولاً، ومحاسبة النفس كما مر ثانياً، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على حسب الاستطاعة، والتخلص من كل حق وجب لله عليه، مثل صلاة فاتت، أو زكاة فاتت، أو صوم أو نذر وجب، فلا يزال العبد يقضي ما فاته من ذلك حتى يبرأ فيما بينه وبين الله، وتبقى مظالم العباد، فيأخذ في التخلص منها، فيقضي ما في ذمته من دين، أو وديعة أو حق من مال أو عرض، حتى تبرأ ذمته فيما بينه وبين الخلق، كما برئت فيما بينه وبين الله، فإنه في الآخرة واقف بين يدي الله، ومسؤول عن ذلك كله، وهذا من أسباب الاستعداد للقاء الله، فمن أيقن بأمر استعد له، واستعان بالله في ذلك كله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قال الله تعالى: ﴿فِي شَأْنِ الصَّلَاةِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: 2/1]. وقال في شأن المحاسبة: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: 36] وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: 18] وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَخُضُّوا مِنْ

أَبْصَرِهِمْ ﴿[النور:30] وَالْأَخْبَارُ وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ لِمَنْ تَذَبَّرَهَا وَعَرَفَهَا،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فصل

فإذا وفق الله العبد لتصحيح النية في القصور، وتحصيل العلوم النافعة لمعاملة
المعبود، واستعمال الجوارح بالمأمورات وذبحها عن المخالفات، استقام العبد على
سواء السبيل، ولا يتم ذلك إلا بالاستعانة بالله تعالى، والصبر لتعتاد الجوارح على
التلبس بها، حتى يبقى الصدق والعلم والعمل طبيعة راسخة وهيئة ثابتة، بمثابة
العادات التي لا يجد العبد لها تكلفاً، بل يتألم إذا فاتته شيء منها، إذا جاء وقت
العبادة يجد باعثاً يجذبه إليها فحينئذ يكتسي العبد كسوة الإيمان حقيقة، ظاهراً
وباطناً، علماً وعملاً، ومتى صار بهذه المثابة، فقد آن أوان الزهور، التي هي مبادئ
الثمرات فيظهر على الأشجار ما أودع الله فيها، ففي الناس من يسبق زهره ورق
شجرته، وأولئك المجذوبون، الذين تظهر عليهم اللوائح ومبادئ الحقائق في أول
السلوك، وأما الغالب منهم، فلا تظهر زهرتهم إلا بعد إتمام أحوال شجرتهم، من
إكمال أحوال العلم والعمل.

وليعلم العبد: أن أساس سلامة الثمرات الخالية من الفساد، هو صحة الاعتقاد،
وإتقان مسائله وأصوله، وهو معرفة ما يجب له سبحانه وتعالى من الصفات العلية،
وما يستحيل في حقه من الصفات الخلقية، وليعتمد أخذ ذلك من مذهب أهل السنة
والجماعة، كأحمد، والشافعي، ومالك، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وابن المبارك،
وإسحاق بن راهويه، والفضيل وأمثالهم، وأقرانهم ونظرانهم أهل الحديث والأثر،
فإن الناس في هذه الأزمنة ليغد العهد بالنبوة، حيث إن لها سبع مئة سنة قد مزجوا
بالشريعة الخالصة علوماً أخذوها من كتب الفلاسفة الأوائل، كالمنطق والكلام،
وغيره، من علوم الحكماء، فصارت عقائدهم ممزوجة بما ليس من الدين، مغشوشة
كالدرهم المغشوش، يعرف النقاد مقدار الفضة فيه من النحاس، وذلك لأنهم خلطوا

بالدين ما ليس منه، ولم يُقْنِعْهُمْ ما بعث الله به محمداً ﷺ من الشريعة الناسخة لغيرها، فَزَكَّوْا فِي عَقَائِدِهِمْ إِلَى مَجَرَّدِ عَقُولِهِمْ وَمَقَايِسِهَا، فزَاغُوا بِذَلِكَ عَنْ مُحْضِ الْإِيمَانِ، وَالسَّلَفِ الْأَوَّلُونَ اعْتَمَدُوا عَلَى الْإِيمَانِ الْمُوَافِقِ لِلْعَقُولِ الصَّحِيحَةِ، وَاسْتَنَدُوا إِلَى النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، فِي مَعَارِفِ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَعْلَمُ بِصِفَاتِهِ، وَكَذَلِكَ الرَّسُولُ ﷺ أَعْلَمُ النَّاسِ بِصِفَاتِ رَبِّهِ، وَهُوَ الْوَاصِفُ لِرَبِّهِ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، فِي كِتَابِهِ، فَهَلْ يَسْعُ الْمُؤْمِنَ أَنْ يَعْدَلَ عَنْ ذَلِكَ فِي صِفَاتِ رَبِّهِ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ عَقْلُهُ، وَفَهْمُهُ الْقَاصِرُ، فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ: أَنَّ الدِّينَ قَدْ خُلِطَ فِيهِ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ مَا لَيْسَ مِنْهُ.

وقد مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ - فِي هَذَا الزَّمَانِ - بِظُهُورِ شَيْخِنَا وَإِمَامِنَا، شَيْخِ الْإِسْلَامِ، وَمِصْبَاحِ الظَّلَامِ: تَقِيِّ الدِّينِ، أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ تَيْمِيَّةَ - أَمَتَعَ اللَّهُ الْكَافَّةَ بِبَقَائِهِ - بَأَنْ أَوْضَحَ لِلْأُمَّةِ مِنْهَاجَهَا الْأَوَّلَ فِي دِينِهَا وَعَقَائِدِهَا، وَبَيَّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ الدِّينُ الْعَتِيقُ الْخَالِصُ مِنَ الشُّبُوبِ، الصَّافِي مِنَ الْكَدَرِ، الْقَرِيبُ الْعَهْدُ بِالنُّزُولِ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَهُ - أَعَادَ اللَّهُ مِنْ بَرَكَتِهِ - عَقِيدَةٌ تُسَمَّى: (الْوَاسِطِيَّةُ)⁽¹⁾، فِيهَا جُمِلَ الْعَقَائِدُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَالْإِيمَانِيَّةُ، وَهِيَ كَافِيَةٌ لِلْمُسْتَرْشِدِ فِي الْإِبْتِدَاءِ، وَيُرْجَى أَنْ تَتَفَضَّلَ مَجْمَلَاتُهَا فِي الْأَثْنَاءِ، وَيُظْهِرَ لِقَلْبِهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فِي مَنَازِلِ السَّلُوكِ أَنْوَارُهَا، بِأَكْمَلِ الْوُضُوحِ وَالْإِنْجِلَاءِ، وَيُرْجَى - إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ - أَنْ تَصِيرَ الْعَقِيدَةُ التَّصْدِيقِيَّةُ لِقَلْبِهِ مَشْهُدًا، يَرَاهَا بَعِينِ الْيَقِينِ، ثُمَّ تَصِيرُ لَهُ مَقْعَدًا وَمَقَامًا مِنَ الْوُصُولِ وَالتَّمَكُّينِ.

فصل

وليعلم أنَّ أهماً مسألة في الاعتقاد: الإيمانُ بمسألة العرش، وتحقيقها علماً وتصديقاً، لأنها أصل من أصول السالكين، السائرين إلى طريق قرب رب العالمين،

(1) وسبب كتابتها أنه قدم على شيخ الإسلام ابن تيمية قاض من بعض قضاة نواحي واسط يقال له: رضي الدين الواسطي، وهو في طريقه للحج، وسأله أن يكتب عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته. انظر خبرها في مجموع الفتاوى 164/3.

لا يستقيم أمرهم إلا بها، ولا ينفذون إلى ربهم إلا بمعرفتها وتحقيقها، وهي مبدأ المعارف الإلهية، والأذواق الوجدية. هي نقطة أمرهم، ومركز دائرتهم.

عليها تنشأ قواعدهم، وأكثر من انحراف عن التحقيق، فلجهله بها، فمعظم الناس ليست لقلوبهم قبلة يتوجهون إليها، لكونهم لا يتحققون أن ربهم فوق كل شيءٍ بفوقية تختص به، وعلو يليق به، لا كالصفات اللائقة بالمخلوقين، فهم لا يفهمون من الفوقية والعلو إلا الفوقية اللائقة بهم، ولم تسر أذهانهم إلى أن صفات الرب تعالى، من علوه وفوقيته واستوائه، ليست كصفات الحداث، كما أن سمعهم ليس كأسماعهم، وبصره ليس كأبصارهم، وعلمه ليس كعلمهم، فإنها أعراض قامت بحديث، وصفات الرب تعالى هي صفات قائمة به، قديمة تليق بجلاله، وتختص به، لا تشبه بصفات خلقه، كما أن ذاته المقدسة لا تشبه بذوات خلقه. إذا علم هذا، وتحقق في السمع والبصر والعلم وغيره، فذلك في العلو والاستواء والفوقية بلا فرق، إذ الكل صفات لموصوف واحد.

فهؤلاء الضالون هم في صفاته المقدسة حائرون، ففهم من يقول: إنه لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوقه، ولا تحته، لأن الدخول والخروج من صفات التحديد والحديث، والرب تعالى منزلة عن ذلك.

ومنهم من يقول: إنه في كل مكان بذاته. والقولان متقابلان منحرفان، والتحقيق: أن الرب تعالى فوق كل شيءٍ بفوقية تليق بكمال عظمة الربوبية المختصة بجلال الإلهية، كما أخبر سبحانه وتعالى عن نفسه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5] وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50] وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10] وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 18] وقوله: ﴿ءَامِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [المُلْك: 16] وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55] وقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 157]

[158] وقوله حكاية عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَكْفُرُ كَذِبًا﴾، وهذا يدل على أن موسى - صلى الله على نبينا وعليه - أخبره أن إلهه فوق السماوات، ولذلك قال فرعون عن موسى: ﴿وَأِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: 36-37]، فمجموع هذه الآيات، وبمعراج النبي ﷺ من سماء إلى سماء إلى أن أوحى الله إليه ما أوحى وبقوله ﷺ: «أين الله؟» فقالت: في السماء، فقال: «من أنا؟» فقالت: أنت رسول الله، فأقرها، على ذلك، ولم ينكر عليها قولها: (في السماء)، فمجموع هذه الأدلة عليم العارفون بأن ربهم تعالى فوقهم وفوق كل مخلوق، فوق عرشه، وفوق سبع سماواته، منتزه عن الدخول في خلقه، ووجوده بائن عن وجود خلقه، والعرش العظيم لا يقبله ولا يحمله، ولا يحيط به، بل هو حامل العرش وحامل حاملة العرش، وهو سبحانه، في علوه وفوقيته مع عباده يعلم سرهم ونجواهم ومقتلهم ومثواتهم، فهو قريب في علوه، عال في دنوه، ومع كل شيء بمعية هي صفته، ومحيطة هي نعته، تعالى الله علواً كبيراً، ومن لم يعتقد حكم المسألة، ولم يؤمن بفوقيته سبحانه، ومعيته لم يصل قلبه إلى حقيقة الأمر، لأن مبدأ الحقائق وجودها في النفس المعتقد علماً قطعياً، واعتقاداً تصديقياً، ثم تعود تلك العقائد بعينها فتصير للقلوب مشاهد، ثم تصير المشاهد مقامات للقلوب ومقاعد، فإذا كانت العقائد فاسدة كانت المشاهد وهمية فاسدة، ومن عرف أن ربه فوق كل شيء صار لقلبه قبلته توجهه ودعائه ومطلبه، كما أن المصلي قبلته في صلاته الكعبة إليها يتوجه، ونحوها ينحو، فإذا تحقق بذلك يصير العرش المجيد قبلته قلبه في إرادته وتوجهه، فإذا تحقق بذلك يغيب قلبه عن العرش لاستيلاء الحقيقة عليه، وامتلائه به، فيصير القلب عرشاً للمثل الأعلى كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: 27] فهو سبحانه له المثل الأعلى في السماوات والأرض، وفي قلوب المؤمنين، وذلك بتوفيق الله تعالى وفضله، يُمْنٌ على من يشاء من عباده.

فصل

وأكمل الأسباب الاستعداد لهذا الشأن امتلاء القلب بحب الرسول ﷺ بحيث يجعله السالك إمامه ومتبوعه في كل شيء، يراه بعين قلبه، ويصغي إلى أوامره عند حركاته وسكناته، كما مرّ أولاً، ولا يمتلئ من مخلوق آخر غير هذه الواسطة، فمن وفقه الله تعالى لذلك اعتدلت هيئة قلبه، واستعدت لتجلي الحقائق عليها، على أكمل الوجوه، وأتم الأمور، والسُر في ذلك: لأن الرب تعالى إنما تعرّف إلى هذه الأمة من جهته، وتجلي عليهم بكلامه، فمن استقام قلبه على مقارنة ستنه ومحبه استعد للتحقق بالحقائق على ما هي عليه، ومن امتلأ من شيخ غيره أو أستاذ سواه، بحيث حجبته عن ربانيته قد تتجلى له الحقائق منحرفة أو ناقصة، لبعده عن الواسطة القريب المقابل له بالعبودية من كل الوجود، فليفهم العبد هذا السر، فإنه كنز من الكنوز لمن أراد التحقق بالأسرار، ولم تُقنعه الأمور الظاهرة، فإذا رزق العبد ذلك يترقى بتوفيق الله تعالى إلى فهم التنزيل، وهي الرسالة التي بُعث بها هذا الرسول الكريم ﷺ.

وهذا أول مفتاح من مفاتيح المعرفة والوصول، عرف ذلك من عرفه، وجعله من جهله، ومتى ذاق العبد شمة من ذوق القرآن المجيد، يسكن فيه من شدة ما يستجلبه، ولا يصبر عن مداومة تلاوته وتدبره، وحسن الاستماع إليه، خصوصاً إذا ذاق القلب مع الفهم، تعرّف صفات المتكلم، من الكلام، وهذا أول الأسرار لمن عقله وفهمه، فإنه سبحانه يتكلم تارة بكلام رحيم لطيف بعباده، وتارة يخاطبنا بكلام جبار قاهر منتقم من أعدائه، وتارة يخاطبنا بكلام ملك مقتدر، يُدبر الأمر، ويفعل ما يشاء، وتارة بكلام عظيم جليل ذي مهابة وعزة، كل ذلك لنعرفه بمعاني صفاته، ونقابل كل صفة بمقتضاها من العبودية والخضوع، فمثال الرحمة واللطف، قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ [الزمر: 53]، فانظر ما الذي تدل عليه هذه الآية، من معاني صفات الرحمة

واللطف.

ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ (٢٠) ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ (٢١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (٢٢) [الحاقة: 30/32] فانظر ما الذي تدل عليه هذه الآية من معاني صفات الجبروت والقهر والانتقام من مخالفيه وأعدائه.

ومثال الثالث، قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ الآية [الرعد: 2]، فانظر ما الذي تدل عليه هذه الآية ؛ من معاني صفات الملك والرُّبُوبِيَّة والاقْتِدَار، وأمثال ذلك، فمتى حَقَّقَ القلب هذه المشاهد، وذاق حلاوتها، ترقى مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْيَقِينِ والعرفان، خصوصاً لمن قد عَرَفَ السيرة والسُّنَّة، ومَرَّ عليها، وعَرَفَ معاني التنزيل، وأسباب النزول، مِنْ كِتَابِ التفسير، فمنها ما هو مَرْوِيٌّ بِالْإِسْنَادِ كتفسير محمد بن جرير الطبري، وتفسير ابن شاهين، وبَقِيَّ بن مَخْلَدٍ الأندلسي، وعبد الرحيم بن إبراهيم دحيم، وغيرها، ومنها ما هو محذوف الإسناد، وهي كثيرة جداً، (كمعالم التنزيل) للبغوي، و(زاد المسير) لأبي الفرج بن الجوزي، وغيرها، فإن القرآن المجيد نزل على وقائع السيرة، وأحوال الصحابة رضي الله عنهم، فيبقى العبد - حينئذ - كأنه مشاهدٌ لهم، ولأُمُورهم، حاضرٌ معهم، في مغازيهم ومشاهدتهم، يراهم بعين قلبه، وَيَوَدُّ لو كَانَ معهم، ويذوق - حينئذٍ بمشيئة الله - ما ذاقوه مِنَ الْإِهْتِمَامِ بتعظيم الرب تعالى، في أوامره ونواهيه، لأنه يَشْهَدُ الربُّ تعالى يخاطبهم على لسان نبيِّه بكلامه، على أحكام أحوالهم ووقائعهم، فتجتمع له في هذا المقام المعارف كلها ؛ معرفة الرب العظيم الجليل الذي هو فوق عبادِهِ، والفهم عنه في كلماته وآياته، وحسن الاستماع والإصغاء إلى أوامره ومواعظه وزجره، ووعده ووعيده، وتخويفه وتحذيره وترغيبه، وغير ذلك من معاني تنزيله، ويجتمع له مع ذلك معرفة الرسول ﷺ بأخلاقه وشمائله وآدابه ويستمتع إلى مخاطبة الرب تعالى له في كلامه، بأحسن أسمائه، في قوله: ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ [الأحزاب: 1]، و: ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ [المائدة: 41]، و: ﴿ يَأَيُّهَا

الْمَرْقُلُ ﴿[المزمل:1]﴾، وَ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ﴾ [المدثر:1]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ لَطَائِفِ مَخَاطِبَةِ الْإِلَهِ لِنَبِيِّهِ وَمَحْبُوبِهِ وَمُضْطَنَعِهِ ﷺ، وَيَجْمَعُ لَهُ مَعَ ذَلِكَ مَعْرِفَةُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، مِنْ الصَّحَابَةِ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ حِينَ دَعَاهُمْ، الْمَسَارِعِينَ إِلَى امْتِنَالِ أَوَامِرِهِ، الْعَارِفِينَ بِمَرَادِهِ مِنْهُمْ فِي أَمْرِهِ لَهُمْ، الْقَائِمِينَ بِحَقِّهِ وَأَوَامِرِهِ.

وَإِذَا رُزِقَ الْعَبْدُ هَذِهِ الْمَشَاهِدَ الْعَالِيَةَ فِي الْإِيمَانِ بِالدُّوْقِ الْقَلْبِيِّ، وَالْعُرْفَانِ الْوَجْدِيِّ، فَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ يَفْعِلُ عَمَّا يَصْمَلُونَ﴾ [الأنعام:122].

فصل

وَلِيَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ إِذَا دَخَلَ فِي هَذَا الْمَنْزِلِ فَقَدْ وَلَجَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَفَارَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ، مِنْ أَكْثَرِ الْوُجُوهِ، وَدَخَلَ فِي عَوَالِمِ الْآخِرَةِ، فَقَلْبُهُ عِنْدَ رَبِّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَجَسَدُهُ بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ، فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَ لِلْعَارِفِ وَقْفَةٌ، فَإِنَّ مَعْرِفَتَهُ تَتَزَايَدُ عَلَى مَمَرِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، إِذَا اسْتَعْمَلَ الْمَوَادَّ الْمَقْوِيَّةَ لِإِيمَانِهِ، وَقَلَّلَ الْمَوَادَّ الْمَقْوِيَّةَ لَطَبْعِهِ وَجَسْمَانِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِي الْكُونِ مَوَادَّ تَقْوِي الْإِيمَانَ وَالْمَعْرِفَةَ، وَجُنُوداً تَقْوِي مَوَادَّ النَّفْسِ وَالْهَوَى وَالشَّيْطَانِ، وَالطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ، وَالْعُلُومَ وَالْعُلَمَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ جُنُودَ وَمَوَادَّ تَقْوِي بِهَا الْقُلُوبَ وَالْمَعَارِفَ، وَالدُّنْيَا وَالشَّهَوَاتِ وَالْغَفْلَاتِ وَقِرْنَاءَ السُّوءِ جُنُودَ وَمَوَادَّ تَقْوِي بِهَا النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ، فَلِيَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّ هَذِهِ الْمَعَارِفَ لَا تَسْكُنُ إِلَّا فِي الْقُلُوبِ الطَّاهِرَةِ، وَالْأَبْدَانِ الْمُرْتَاضَةِ الزَّكِيَّةِ، الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي مَرْضَايِ اللَّهِ، مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَلَا تَسْكُنُ فِي قَلْبٍ مَلُوثٍ بِالشَّهَوَاتِ مُحْشَوْ بِمَحَبَّةِ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِبَاعِ وَالرَّئَاسَاتِ، وَلَا فِي قَلْبٍ مَعْلُوقٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَوَالِمِ السُّفْلِيَّاتِ، إِلَّا فِي قَلْبٍ صَادِقٍ يَطْلُبُ قُرْبَ إِلِهِ السَّمَاوَاتِ، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَكُونُ مُسْتَعْمِلاً لِلتَّقْوَى وَالْمَحَاسَبَةِ، وَسِيَاسَةِ النَّفْسِ بِالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَقَلْبُهُ مَعْلُوقٌ بِشَيْءٍ مِنَ الْكُونِ، فَيُنَحْجَبُ بِذَلِكَ الشَّيْءِ عَنْ هَذِهِ الْأَنْوَارِ وَالْمَعَارِفِ، لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ لَهُ عَلَى الْقَلْبِ سُلْطَنَةٌ وَرِئَاسَةٌ، فَإِنَّهُ يَمْنَعُ

وصول سلطنة الحقِّ وربانيته إلى القلوبِ وأكثر المحجوبين عن هذه الحقائق لهذه الموانع، وذلك مثل حبِّ رئاسةٍ أو مالٍ أو جاهٍ، أو زوجةٍ أو مملوكٍ، أو معاشرة أصحابٍ، أو غير ذلك من الأسبابِ، التي يتعلق بها سرُّه، ويسكنُ إليها قلبه فلا يكملُ إقباله على ربِّه ولا طلبه له، فيحجبُ عنه بذلك، فمن حُرِّم الوصول من الطالبين فليتهم أنفسهم، وليتطهروا من الأدناسِ، ولينفكوا من العلائقِ التي لا ضرورةَ له إليها، وأما ما إليه ضرورةٌ في معيشتِهِ، وإقامة صورة واستغناء عن الناسِ، فذلك من جملة الذي لا يتمُّ الدينُ إلا به، ولا يشتغل ولا يحجب، إذا اقتصد الإنسانُ فيه، ولم يضع جميع الوقتِ فيه.

فصل

ولا بد لطالبِ حقائق الذوقياتِ مع قطع العلائقِ، من وقتٍ يخلو فيه برِّه، ويجمعُ همَّه على صفاءِ ذكره، ليتوحدَ قصده، ويصفو قلبه، فإن الحقائق كالعروسِ الجميلةِ المفتنة بحسنها، الممتنعة على خطابها، تطلبُ عاشقاً صادقاً في حبِّها، يبذلُ في طلبها مهجته، وتحلو عنده في حصولِ وصالها المراراتُ وتهونُ عليه فيها المشقاتُ، كما قيل: (من عرف ما يطلبُ هانَ عليه ما يبذلُ)، ومن عرفَ هذا المعنى تحققَ أن هذا السرَّ لا يفتحُ غالباً إلا على القلوبِ الطاهرة، والهممِ المحترقة، المتخلية عما سوى مطلوبها، بالقانونِ الشرعيِّ المحمديِّ، لا بالتجريدِ النصرانيِّ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]، فمن طلب الحقائق المحمدية لم يزغ عن طريقها، فإن الحقائق المحمدية لا تكملُ في حقِّ سالكي العيسوية، وكلُّ شيءٍ له قانونٌ وطريقة، وطرفان ووسط، وخيرُ الأمور أوساطها، بلا غُلُوٍّ ولا انحرافٍ، فالصومُ الدائم، والسهرُ الدائم، وترك الأسبابِ التي بها يقومُ الوجودُ بالكلية، كلُّ ذلك غيرُ مشروع. يصومُ قصداً ويقومُ قصداً، ويقطعُ قلبه عن الركونِ إلى الأسبابِ، لا إلى المسببِ، ومنْ خالفَ هذا المنهج، وارتكبَ أعمالاً شاقةً غيرَ مشروعة، لم يجدْ لها ثمرةً وأوهنتُ بدنه وأضعفتْه في آخرِ الأمرِ، وأورثته أحوالاً منحرفة، ممزوجةً بحدَّةٍ وسوءِ خلقٍ، عرفَ ذلك مَنْ عرفه وجهله من جهله، ومتى اقتصرَ

على الأمر المشروع المحمديّ اجتمعت هِمته وتوفرت قوته على القيام بما أمر والانبعاث إلى ما يطلب، واستعمل العبد ما يحلو لقلبه من العبادات المشروعة، والأذكار المندوبة، وليواظب على ما يحلو لقلبه من ذكر الله، فمتى حلا لقلبه شيء من الأذكار يرجى أن يُفتح له فيه.

فصل

وليتوخي الأوقات الفاضلة، مثل: الثلث الأخير من الليل، ويوم الجمعة عند اجتماع الناس إلى انقضاء الصلاة، ويوم عرفة، وأوقات الصلوات الخمس، فإن فيها تنزل الأنصبة على الطالبين، وتلوح البوارق على قلوب المشتاقين والمحبين، وهي القلوب المتفرغة عن كل هم سوى هم مطلوبها، الخالية عن كل ربانية سوى ربانية الحق وأوامره، فلا يزال العبد كذلك مستعملاً للأعمال المشروحة في صدر هذه الرسالة، بحسب إمكانه، ومبلغ استطاعته، ومن بذل جهده [لا يلبث] حتى يفتح الله عليه بمشهد معرفة صفة الإلهية، التي ينكشف في نورها فهم الكتاب، ويظهر فيه نور الرسول ومعرفة، ومعرفة أصحابه، ويرتبط القلب بمحبته، ومحبة أصحابه، في نور معرفة المتجلي علينا بواسطتهم، فمتى فتح الله على القلب هذا المشهد جاء الخير، وانفتح الباب، وانجلي الظلام واحتدت الأفهام، وانجذبت القلوب، فقد يظهر للقلوب من مشاهد معرفة الإلهية بوارق تلوح للقلوب أحياناً، ولا تدوم بمثابة البروق اللوامع، فليلازم حاله ولا يستبطئ عودها، فإن المواهب على قدر الاستعداد، فقد لا يكون في هذا الآن مستعداً لكمال الأمر، فتلوح له البارقة في السنة يوماً، وفي الشهر يوماً، وفي الأسبوع مرة، ثم تتقارب حتى يبقى كل يوم مرة، ثم متى قصدها وجدها، ثم يترقى إلى أن يكتسي القلب بملابس نور القرب من صبغة العظمة الإلهية، ونور المثل الأعلى، ويدوق القلب - حينئذ - الهيمان بالجلال والجمال، والعظمة والكبرياء، وهذه أنوار القرب لخصوص هذه الأمة المحمدية، صلوات الله على المبعوث بهذا الدين، الذي هذا نتائجه وثمراته، وصلى

على إخوانه من النبيين والمرسلين، وعلامةُ صاحبِ هذا المقامِ وهو مقامُ مَشْهَدِ الإلهيةِ المفتوحِ على العبدِ من فَهْمِ القرآنِ المجيدِ ؛ أَنْ يَأْلَهُ قَلْبُهُ محبةَ الإلهِ، الذي ظهرَ للقلبِ نورهَ وتعرَّفَ إليه بما شاءَ كيفَ شاءَ بلا تمثيلٍ ولا تكييفٍ فيعكفُ - حينئذٍ - على صفاءِ ذِكْرِهِ وخالصِ وِدِّهِ، ويعيشُ بقيةَ عُمرِهِ في ظلِّ كنفِهِ، مغموساً مغموراً في أبحرِ أنوارِ قربه، ولذيدِ ذوقِ محبته، ويهيجُ من قلبه بواعثُ الاشتياقِ إلى معانيته، فيعكفُ عليه ويأنسُ ويطمئنُ إليه، ويثقُ به، ويتوكلُ عليه، ويستغني به، وبوجوده، لأنه قد عرفه، وكيف لا يستغني به مَنْ عرفه وقد قيل:

حبيبٌ جَفَوْتُ النَّاسَ لَمَّا عَرَفْتُهُ كَأَنَّهُمْ مَا جَفَّ مِنْ زَادٍ قَادِمٍ
وعادَ سروري لا يَفِي بِنِدَامَتِي على ما مَضَى مِنْ عُمْرِي المتقادمِ

فالإنسانُ يستغني بمعرفةِ مَلِكٍ من ملوكِ الدنيا، حيث صار إليه طريقاً، وله به معرفةٌ فكيف لا يكونُ ذلكَ لملكِ الملوكِ، الذي تَعَرَّفَ إليه فعرفه، وتحببَ إليه فألَّهه وأحبَّه.

فصل

ثُمَّ يَزِيدُهُ اللهُ فِي مَعْرِفَتِهِ، فيفتحُ له معرفةَ صِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، بعد أن عَرَفَهُ مَشْهَدَ الإلهيةِ، فإذا ظهرَ للقلبِ صِفَةُ الرُّبُوبِيَّةِ وهو انفرادُ الربِّ تعالى: بالتدبيرِ والقيوميةِ، فلا نفعَ ولا ضررَ ولا عطاءَ ولا منعَ ولا قسطَ إلا بِيَدِهِ، وهو العليُّ على عَرْشِهِ يدبُرُ الأمرَ، فما من ذرةٍ إلا وهي في قبضتهِ وتدبيرِهِ، فعند ذلكَ يستسلمُ العبدُ له حقيقةَ الاستسلامِ، ويفوضُ إلى رَبِّهِ في المقاديرِ والأحكامِ، ويتحقق بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، في مَشْهَدِ الرُّبُوبِيَّةِ، ولسانُ حاله يقولُ:

لقد ظهرتَ فما تخفى على أحدٍ إلا على أكمه لا يعرف القمرا

وهذا الرمزُ كافٍ، فإن هذه الحقائقَ تلطفُ عن العبارةِ، وتسمو عن الإشارةِ، وتُعرفُ بالذوقِ، فلفظُ الشُّكْرِ لا يُعْطِي في الفمِ حلاوةَ طعمِ الشُّكْرِ لذائقه، والله

الموفق.

فصل

وفوق ذلك مزائد لأهلها لا تحتملُ البيانَ ولا الشرحَ التامَّ، ومضمونها قوة المعرفة وزيادة المحبة والتعظيم، والابتهاجُ بالربِّ الكريم وبقربه وملاطفاته، وقبضه وبسطه وتصرفه بما يشاء، من الاصطناع والمحبة الخاصة، وغير ذلك من أحوال أرباب النهايات والوصول، فمنها الجمعُ وهو اصطلاحُ الواحد عن شعوره بوجوده لقوة استغراقه بموجوده، وعلامةُ صحة هذه الحال: أن يكونَ محفوظاً في الأوامر والنواهي، وصاحبُ هذا المقام عند أهل التحقيق ناقضٌ لم يكمل، والكاملون هم أهل البقاء بعد العبور على أطوار الفناء، فيكتسبون في بقائهم وجوداً غير الوجود الأول، فإنَّ الوجودَ الأولَ قام بالنفس والهوى، وهذا وجودٌ قام بنور الحقِّ تعالى، فهو وجودٌ محفوظٌ، يتولاهم الله فيه، فلا يحجبهم عن مشاهدتهم شيء، ولا يفرقهم عن مولاهم شيء، فهم متفردون في الأعمال الشرعية وهم مجموعون في عين الجمع بوجود آخر، غير الوجود الأول، الذي ذهب بالفناء، ولصاحب هذه الأحوال سلوكٌ خاصٌ يختصُّ به، يطالبُ هو به دون غيره من السالكين، على حسب مقامه، فإن له ذنباً ليست في حقِّ غيره ذنباً كما قيل في ذنوب صاحب الفناء: (وجودك ذنبٌ لا يقاسُ به ذنبٌ) فهو أبداً يعملُ على التخلص من وجوده، والطهارة منه، والنفس بطبعها تدخله في أسباب تعيُّد عليه وجوده، وهو مطالبٌ بإفنائهِ حتى يرقِّيه الله تعالى إلى مقام البقاء، فيعيِّدُ عليه وجوداً محفوظاً مطهراً، يتولاه فيه، ولا يكلِّه إلى نفسه، فيصيرُ -حيثُ- في مقام البقاء، بالله يسمع، وبالله يبصر، وبه ينطق، كما جاء في الحديث، وهذه غاية ما تشير إليه العبارة، وتظهره الإشارة، ولهم مع ذلك مزائد من فضل الله، من التقربات في اليقظة والمنام والأذن الخاص لهم، إذا نابهم شيء ينزلونه بالله، فيعرفهم الحقُّ مراده منهم، بتعريف خاص، يطابق الكتاب والسنة، ولا يخالفه، ومتى خالفه لم يعتد به، فالكتابُ والسنةُ يحكمان على كلِّ شيء من

أُمُورِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، مِنَ الْبَدَايَاتِ إِلَى النِّهَايَاتِ، فَلَا خُرُوجَ عَنْهُ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَهَذَا مَقَامُ الصَّدِيقِينَ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ الْكَامِلِينَ، الَّذِينَ كَمَلُوا سُلُوكَ دِينِهِمْ، وَوَصَلُوا إِلَى حَقَائِقِهِ، وَارْتَقَوْا إِلَى ذُرُورَةِ سَنَامِهِ، وَقَدْ نَظَّمْ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ أَبْيَاتاً يُشِيرُ إِلَى الْبَدَايَاتِ وَالنِّهَايَاتِ:

رصدَ النجومَ وأوقدَ المصباحا	من كانَ في ظلمِ الليالي سارياً
تركَ النجومَ وراقبَ الإصباحا	حتى إذا ما البدرُ أرشدَ ضوءه
ورأى الصبحَ بأفقه قد لاحا	حتى إذا انجابَ الظلامُ بأسره
والبدرَ، وارتقبَ السنا الوضاحا	تركَ المسارجَ والكواكبَ كلَّها

وَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ: فَإِنَّ الْمُبْتَدئَ فِي ظِلْمَاتِ الطَّبِيعَةِ يَرصدُ نَجُومَ الْعِلْمِ، وَيوقدُ مِصْبَاحَ الْإِتِّبَاعِ حَتَّى يَبْدُو لِقَلْبِهِ قَمَرُ التَّوْحِيدِ، وَهُوَ مَشْهَدُ الْإِلَهِيَّةِ الْمَذْكُورِ أَوَّلًا، فَحَيْثُ يُرَاقِبُ طُلُوعَ الصَّبْحِ، لِيَزْدَادَ عِلْمًا بِوُضُوحِ طَرِيقِهِ لَذَهَابِ ظِلْمَاتِهِ، فَلَا يَلْبُثُ حَتَّى يَطْلُعَ عَلَيْهِ الْفَجْرُ، فَلَا يَزَالُ حَتَّى يَكْمَلَ طُلُوعُ فَجْرِهِ، وَتَفْنَى ظِلْمَاتُ طَبِيعِهِ وَوُجُودِهِ، وَلِهَذَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يَقَاسُ بِهِ ذَنْبُ.

فَالْوُجُودُ وَطُلُوعُ فَجْرِ الْيَقِينِ ضِدَانِ، ثُمَّ إِذَا تَكَامَلَ صَبْحُهُ، وَتَحَقَّقَ بَفَنَائِهِ ارْتَقَبَ طُلُوعَ الشَّمْسِ، وَهُوَ حَالُ الْبَقَاءِ فَإِنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ أَمِنَ الْمَسَافِرُ مِنَ اللَّصُوصِ وَذَهَبَتْ كُلُّ ظَلْمَةٍ، وَصَارَ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ حَقِيقَةً كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وِظْلَامُهُ فِي النَّاسِ سَارِ	لِيلِي بِوَجْهِكَ مَشْرِقُ
وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ	النَّاسُ فِي سُدْفِ الظَّلَامِ

فصل

وَجَمِيعُ مَا شَرَحَ مِنَ الْأَنْوَارِ وَالْمَعَارِفِ، وَأَحْوَالِ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ، هِيَ مِثْلُ -يَقُومُ

بقلوبهم - من أمثلة العظمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: 27] فقد يجد من ذلك شيئاً بعض الجاهلين فيتوهم أن الحقيقة قد خالطت قلبه، أو مازجته أو امتلاً وجوده منها، تعالى الله أن يحل في شيء، أو يحل فيه شيء، لكن عظمته باشرت قلوبهم، وامتلات منها مفاصلهم، كما قال ﷺ: «أسألك إيماناً يباشر قلبي»، ويجدون في أنوار ذلك ملاطفات وتقريبات ومؤانسات ومحادثات من ربهم، وليس حال هؤلاء الصديقين كحال هؤلاء الضالين؛ القائلين بوحدة الوجود كابن سبعين، وكابن عربي، وكالصدر القنوي، وكابن هود، وأتباعهم وأشياعهم - طهر الله الأرض من آثارهم - فإنهم ضلّال يزعمون أن الوجود وجود واحد، فلا يثبتون للخلق وجوداً أصلاً، بل يقولون إن وجودهم هو عين وجود الحق، فعندهم أنه ليس مع الحق شيء، فكل شيء ظهر في الكون فهو الحق المطلق، ظهر في تلك الصورة المعينة، ولكل واحد من هؤلاء مذهب في وحدة الوجود يختص به:

فابن سبعين يقول: الحق يظهر في الماء بلونه، وفي النار بلونها.

والصدر القنوي يثبت الكون والمراتب، ويقول: الحق وجود مطلق غير متعين، والكون مظهر له، ويعني: أنه الوجود الساري في كل شيء.

وإشارة ابن عربي تقول: كانت الأشياء ثابتة في عدمها، ففاض وجود الحق عليها. وابن هود يسري مسرى ابن سبعين ونحوه، مع اختلافهم.

والعفيف التلمساني وأتباعه يقولون: إن نسبة الكون من الحق كنسبة الموج من البحر، فعين الموجه هي عين البحر.

وأصل هذا الضلال من قبيل أنهم لا يعتقدون أن الباري تعالى كَوَّن الأشياء لا من شيء، كما هو مذهب أهل السنة، بل يقولون: لم يخلق شيء من غيره، لأنه ليس معه غير، بل هو، يظهر في مراتب الكثرة بالوحدة، وهو عندهم وجود مطلق، غير متعين، وهذا هو الفرق بين مذهبهم ومذهب المسلمين. فهؤلاء زنادقة هذه الأمة ومشركوها، أشركوا مع الله كل شيء، فهم أسوأ حالاً من عبادة الأصنام، وأسوأ حالاً

من النصارى، فإنهم خصصوا هذا المعنى في شخص واحد وهو المسيح، وهؤلاء عَمِمُوا الأمر في كُلِّ موجودٍ؛ حتى في الكلبِ والخنزيرِ والدُّبِّ والقردِ، والخنافيسِ والعقاربِ والنملِ والديدانِ، فهل ذهبَ إلى هذا المذهبِ عاقلٌ يجعلُ عينَ وجودِ الكلبِ والخنزيرِ والقردِ، عينَ وجودِ مَنْ لا يُسمى في هذا الموضع؟! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فهؤلاءِ عُبَادُ الوجودِ المُطْلَقِ، المشتركِ بين جميع الخلقِ. وابن عربي يقول: النصارى إنما ضلوا حيثُ خصصوا، ولو عَمَّمُوا لما ضلُّوا.

فصل

واعتقادُ أهلِ السُّنَّةِ: أن الربَّ تعالى:

فوق عَرْشِهِ، بائنٌ من خلقِهِ، له وجودٌ قديمٌ يختص به، والكون حادثٌ، له وجودٌ آخرٌ غيرُ وجودِهِ سبحانه، والكونُ مفتقرٌ إليه في كُلِّ شيءٍ، في إقامته له، وتدبيره له. وهو سبحانه كَوَّنَ الوجودَ لا من شيءٍ، ولم يظهر هو فيه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والعبدُ عبدٌ، والربُّ ربٌّ، لا تمتزج الرُّبُوبِيَّةُ بالعبادِ، ولا العبادُ بالرُّبُوبِيَّةِ، وهؤلاءِ يعبدون نفوسَهُمْ، ولا يستوحشون من قولِهِمْ: (أنا الحقُّ)، والصديقون يعبدون إلهَهُمْ من فوق عَرْشِهِ، القريب منهم. كلما ازدادوا معرفةً به ازدادوا عبوديةً له، وتعظيماً وإجلالاً لعزِّ جلاله، وسبحات وجهه الكريم.

ونسألُ اللهَ الكريمَ: أن يحيينا على الكتابِ والسُّنَّةِ غير مبدلين ولا مغيرين، ولا مغضوبٍ علينا، ولا ضالين، آمين، والْحَمْدُ لِلَّهِ وحده، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلِّم، تسليماً كثيراً، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ميزانُ الحقِّ والضلالِ
في تفصيلِ أحوالِ النُّجباءِ والأبدالِ
وشرحِ كِبَرِ الجَهْلَةِ مِنَ الْعُمَّالِ
الذينَ عَدِمُوا عِلْمَ التَّفْصِيلِ والإجمالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله الذي خَضَعَتْ لِعَظَمَتِهِ قُلُوبُ الْأَوْلِيَاءِ، وَخَشَعَتْ مِنْ مَهَابَتِهِ أَسْرَارُ الْأَصْفِيَاءِ، وَانْقَادَتْ إِلَى عِبُودِيَّتِهِ أَعْنَاقُ الْأَتْقِيَاءِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ الْمَتَعَزِّزُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالْمَتَعَالِي بِعَظَمَتِهِ، وَالصِّفَاتِ الْمُقَدَّسَةِ الْوَارِدَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مِنَ الْأَمْوَاتِ وَالْأَحْيَاءِ ﷺ صَلَاةً دَائِمَةً تَسْمُو بِصَاحِبِهَا إِلَى الْعِلْيَاءِ.

وبعد: فَإِنَّ الْعِبُودِيَّةَ مِنْ أَعْلَى مَقَامَاتِ الصَّادِقِينَ، وَالتَّوَاضَعُ لِعَظَمَةِ اللَّهِ مِنْ أَسْنَى مَلَابِسِ الْمُقَرَّبِينَ، مَنْ ظَهَرَتْ آثَارُهُمَا عَلَيْهِ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى وَجْدَانِهِ وَعُرفَانِهِ، وَمَنْ لَمْ يَتَقَمَّصْ بِهِمَا، فَقَدْ أَقْرَبَ بِمَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ مِنَ الطَّبِيعَةِ بِبُعْدِهِ وَهَوَانِهِ، فَلَا حَالٌ لِلْعَبْدِ أَشْرَفَ مِنْ ظُهُورِهِ بِصِفَاتِ الْعِبُودِيَّةِ وَالْإِلْتِزَامِ⁽¹⁾ بِأَحْكَامِ الرُّبُوبِيَّةِ. مَنْ تَعَدَّى صِفَتَهُ إِلَى مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الصِّفَاتِ أَبَانَ عَنْ جَهْلِهِ وَحِمَقِهِ، وَمَنْ وَقَفَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُ مِنْ صِفَاتِهِ وَحُدُودِهِ اتَّصَفَ فِي عِبُودِيَّتِهِ وَحَقِّهِ، وَكَيْفَ لَا، وَالْعِجْزُ وَالضَّعْفُ صِفَتَاهُ، وَالْفَقْرُ وَالذُّلُّ حَالَتَاهُ، وَقَدْ اتَّصَفَ رَبُّهُ تَعَالَى بِأَضْدَادِهَا مِنَ الصِّفَاتِ ؛ مِنْ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ، وَالْغِنَى وَالْعِزَّةِ، فَمَنْ أَظْهَرَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عِجْزَهُ، وَشَكَا إِلَيْهِ ضَعْفَهُ، وَتَقَمَّصَ ذُلَّهُ وَكُسْرَهُ، وَكَأَنَّهُ تَسَمَّى بِأَسْمَائِهِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا، وَتَكَنَّى بِكُنَاهِ الَّتِي بِهَا ظَهَرَ لِلْخَلِيقَةِ رِقُّهَا، لِأَنَّهُمْ مَرْبُوبُونَ وَبِعِزَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ مُقَهَّوْرُونَ، فَذَلِكَ سِيْمَاءٌ مِنْ عَرَفَ نَفْسَهُ، فَقَدَّرَهَا قَدْرَهَا، وَعَرَفَ رَبَّهُ فَقَدَّرَهُ قَدْرَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91] وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ. وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا دَاوُدُ

(1) كلمة: غير مقروءة، فلعلها: (الالتزام) لمجازاة السياق.

اعرفني، واعرف نفسك. قال: قد عرفت نفسي بالعجز والضعف والفناء، وعرفتُك بالقدرة والقوة والبقاء. أو كما قال، فقال الله تعالى: الآن عرفتني، أو نحو ذلك. فعلى العبد أن يلازم صفاته، ويعرف نفسه بها، ولا يتعدها، فيكون من الجاهلين، وربما أداه ذلك إلى قلب الحقائق، فيكون من الفراعنة الملحدين، عصمنا الله تعالى من ذلك وإياكم أجمعين.

قد جاء في الحديث: «أسألك إيماناً يُبَشِّرُ قلبي»، فعلامة من بَشَرَ الإيمان قلبه - وهو عبارة عن معرفته لربه سبحانه وتعالى بأفعاليه، أو بشيء من أسمائه، أو بلوامع من آثار أنوار صفاته، أو ببارقة تلوح لقلبه من عظمة ذاته، هذه جملة المعارف، وإن تعددت أقسامها، وتنوعت درجاتها، جعلنا الله من المتحققين بذلك، القائمين بأحكامها، آمين يا رب العالمين - أن ينكسر بهذه المعارف قلبه لربه، ويذل سره لما قام به من حبه، فإن المعرفة تقتضي المحبة في هذا الشأن، وإن كان لا يلزم منها المحبة في غيره من الأكوان، فقد يعرف الإنسان الشيء ولا يحبه، وأما هذا الجنب فلا يتصور أن يعرف منه شيء إلا ويقترب به المحبة، وإن كان من الصفات القهرية فإن لها تعلقاً باطنياً بالصفات اللطيفة، الموجبة للمحبة، فمن تحقق القلب بوجوده لشيء من هذه المعارف أعطاه ذلك ذبولاً، وانكساراً، وتعظيماً ووقاراً، هذا إذا لاح للقلب تفصيله على ما ذكر من الأفعال والأسماء والصفات، فإن ذلك يقتضي في القلوب الصافية، والأذهان الصقيلة الوافية تعظيم المعروف، لإشراق معارفه في أنوار القلوب، وتلوح في تلك الأنوار ما يستحقه العبد بمقتضى تلك المعرفة من العبودية، التي تطالبه تلك المعرفة بها فيفرق في ذلك النورين بين صفات ربه، وصفات نفسه، فيعطي الرُّبُوبِيَّةَ حقها بحسب إمكانه، ويعطي الرُّبُوبِيَّةَ والعبودية حقها بحسب ما قام له من برهانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: 40].

فصل

إذا تأمل المتأمل أسماء الله تعالى وصفاته الواردة في التنزيل، وفيما أبان عنه

الرسول ﷺ يجدُّ كُلَّ اسمٍ وصفةٍ إلى معنى خاصٍّ قامَ بالرُّبُوبِيَّةِ، واقتضى ذلك المعارفَ ذوقاً خاصاً يعرفُ به المسمى بذلك الاسم المتصف بتلك الصفة، وكان ذلك الاسم أو الصفة طاقة المعارف، يدخل منها إلى جميع المعارف، فيأخذ من كل اسمٍ أو صفةٍ بقسطٍ ما يلزم تلك الصفة أو الاسم من جميع الصفات والأسماء، ويقدر ما يرتبط مما عرفه من الأسماء والصفات على حدِّ يقسمُ الله له، مثال ذلك: مَنْ عرفَ ربَّه تعالى بالاسم العليم لزم من العلم الحياة، أو عرفه بالتدبير، لزم من التدبير العلم والمشية والقوة، والحكمة والرزق والرحمة والقدرة، وأمثال ذلك، أو عرفه بصفة الكلام، لزم منه الخبير العليم الحي الموعِد المخوف، الجليل الجميل، أو عرفه بالاسم المنتقم، لزم منه القادر الحي العليم الديان، وأمثال ذلك، وأيضاً فإن المعروف بتلك الصفة أو الاسم المعروف ببقية الصفات والأسماء إذ كُلَّ اسمٍ يُسمَّى به الله تعالى، أو صفةٍ اتصف بها بابٌ إلى معرفة الموصوف وطريق إلى محبة المعروف، ومراقبة إلى معرفة غيره من الأسماء والصفات، إمَّا بطريق اللزوم، أو بطريق الجمع الجامع للجميع.

فصل

إذا عُلِمَ ذلك، وأنَّ كُلَّ اسمٍ أو صفةٍ تقتضي معنى خاصاً، قامَ بالرُّبُوبِيَّةِ كُلُّ معنى من مدلولات الأسماء والصفات، غير الآخر فذلك يقتضي كُلَّ اسمٍ وصفةٍ بمعناه الخاص عبودية خاصة من العبيد، الذين عرفوا ربهم بذلك، فمن عَرَفَ منهم ربَّه تعالى بشيء من أسمائه وصفاته، أو أفعاله، فعلامه صحة معرفته وبرهانها: أن يعبد الله تعالى، الذي عرفه من ذلك الاسم الخاص، أو الصفة الخاصة عبودية تناسب مقتضى السبب الموجب للمعرفة، مثال ذلك: الربُّ سبحانه وتعالى اتَّصفَ بالغني، القادر، العزيز، القوي، فعلامه من عرفه بصفة الغني؛ أن يقوم له قلبه بحقيقة الافتقار، فإن صفة الغنى منه سبحانه اقتضت منا أن نعبدَه بالافتقار إليه، وكذلك من عرفَ ربَّه سبحانه بصفة القدرة؛ اقتضت منا عبودية خاصة، تناسبها، وهي صفة العجز، وكذلك صفة العزة اقتضت منا أن نعبدَه بصفة الذلِّ لعزته، والخضوع

لأحكامه، وكذلك صفة القوة منه، اقتضت منا أن نعبده بصفة الضعف والاستعانة بالقوي لهذا الضعيف، وأمثال ذلك.

فصل

قد تبين فيما تقدم أن المعرفة الصحيحة، توجب عبودية وخضوعاً، من كل عارف صحّت معرفته، فبرهان المعرفة العبودية، وبرهان المحبة المذلة، فإن كل محب ذليل لمن أحبه، وهذا لا يكون إلا فيمن تفصّلت معرفته على التفاصيل الشرعية، وشعر قلبه بوجه التفصيل، ومتى شعر القلب بوجه التفصيل صار للمعرفة هيمنة على القلب يحكم عليه بالعبودية الخاصة، بمقتضى الأمر المعروف، فيعبد الله تعالى بتلك العبودية الخاصة، في مقابلة ما ظهر لقلبه من المعارف، ويشعر قلبه أيضاً بتلك العبودية وأنه يعامل الله تعالى بها، ومن فتح الله تعالى عليه هذا الباب، وتحقق ودام له واتصل بالعبودية سيّره كان بريئاً من رعونات النفس، في غالب الأمر وأكثره، محفوظاً من نزغات الشياطين، وحركات الجبابة والمتكبرين، بل يلوح عليه سيماء العابدين، الذين يعبدون ربهم بجوارحهم وقلوبهم في العالمين، فإن من خصوصية المعارف الصحيحة، المفصلة على التفاصيل الإسلامية ؛ أن تتصرف في نفس العارف فتدوّبها وتصفّيها، وتلطّفها وتحميها، فتبقى حارة لطيفة، بعد أن كانت بحكم الطبع باردة يابسة، فيلوح على شمائل العارف مكارم الأخلاق، وظرافة الشيم، والصفاء، حيث قد صار له ربّ في قلبه يعرفه، ويحبه ويعبده ويؤله، فنفسه خاضعة لسلطانه، وقلبه مأسور في قبضته، وروحه مغمورة في حضرة، وسره مُمتّع بمشاهدته ومن سكنت هذه الأحوال الشريفة في باطنه، بقيت نفسه أسيرة حقيرة، مضبوطة عن صفات المتجبرين، محفوفة بأنوار المحبين، محفوظة عن مخروم الحركات، موزونة بالعدل في أغلب التصرفات، تلطّفت غلظته، وتهذبت قسوته، واعتدل جوره، والتزم العدل في أموره، إن تحرك تحرك عدلاً، وإن نطق نطق حكمة وفضلاً، أو صمت صمت فكرة وحلماً، أو نظر نظر عبرة وحقاً، أو سمع

سَمِعَ إِشَارَةً وَحُكْمًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ عَقْلَهُ تَصَرَّفَ فِي نَفْسِهِ تَصَرُّفَ الْمُؤَدِّبِ لَطْفُهُ، وَعَقْلُهُ تَأَيَّدَ بِرَبِّهِ، وَاتَّصَلَ بِنُورِ قَرْبِهِ، فَالْقَلْبُ مِنْهُ فِي اتِّصَالِ رَبِّهِ، مُتَّصِلٌ بِتَهْذِيبِهِ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ قَائِمٌ بِرَبِّهِ عَلَى هَمِّهِ وَعَقْلِهِ، وَقَائِمٌ بِهِمْ وَقَلْبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهَذِهِ هِيَ الْغَايَةُ لِأَهْلِ الْغَايَةِ الْمُتَوَطِّنِينَ مَقَامَاتِ أَهْلِ الْوَلَايَةِ ﴿وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الْآيَةُ [المائدة: 54].

فصل

وهؤلاء قسمان: قسمٌ أهلُ فناءٍ، وقسمٌ آخرُ أهلُ تمكينٍ وبقاءٍ، فغالبُ ما يظهرُ على أهلِ الفناءِ من الانقباضِ والانفرادِ، ومجانبةِ الناسِ، وإهمالِ بعضِ حقوقِهِمْ، من البدايةِ بالسلامِ، وإظهارِ التوددِ إلى أهلِ الإيمانِ، والإخلالِ ببعضِ جزئياتِ المتابعةِ، من إجابةِ الدعوةِ، واتباعِ الجنائزِ، ومخالطةِ الخلقِ، فما سببه إلا اجتماعُهُمْ على حالِهِمْ وسياسَتُهُمْ أنفُسُهُمْ بما يلزمُهُمْ من حقوقِ معروفِهِمْ، فللحالِ على هؤلاءِ سلطنةٌ تقبضُهُمْ عن كثيرٍ من التفرقاتِ، وفيهِمْ مَنْ يشهدُ بقلبه من سوءِ الطوياتِ، وجرائمِ الآفاتِ، فهربَ بقلبه من تلكِ الظلماتِ، فإنَّ عنده ما يشغله عن غيره، ولا يتسعُ للأغيارِ، ولا يقوى على مقاومةِ الأشرارِ، وذلك لا يقدحُ في مقامِهِ، وإن كان غيظه أكملَ منه، لا تساعه، ومثلُ هذا لا ينشرحُ إلا لمحِبٍّ صادقٍ، تميلُ المحبةُ بقلبه إليه، فيشهد ذلك من باطنِهِ، فيوفيه حقَّ محبَّتِهِ بالإقبالِ عليه، والإصغاءِ إليه، وإنَّ وجدَ هناك استعداداً نصحه، وإلا وفَّاه حقه، وأمسك، وهؤلاء لم يكلفوا غير ذلك، ومتى كلفوا تحمّلوا ما لم يطيقوا، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والقسمُ الآخرُ ؛ وهم الأطباءُ، أهلُ التمكينِ والولايةِ، والبقاءِ والدرايةِ، أفناهم الله تعالى به، ثم أبقاهم، فكانوا به، فهم الأدلاءُ لخلقِهِ عليه، والمعالجون لهم، في إصلاحِ أمراضِهِمْ، وهؤلاء كُلفوا مخالطةَ الخلقِ لقوتِهِمْ وتمكينِهِمْ، وهم القائمونُ بجزئياتِ المتابعةِ جُمْلِهَا وتفصيلِهَا، لتصرّفِهِمْ في أحوالِهِمْ، يقومون بأعباءِ الخليقةِ جُلِّهَا ودَقِّهَا، يسوسونَهُمْ ويصدونَهُمْ عن الباطلِ بسوطِ الشريعةِ وحكمِهَا، فهم خلفاءُ الرسلِ، وأمناءُهم، فقد ظلمَهُمْ وجهلُ استعدادِهِمْ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَا جَا ﴿ [المائدة: 48].

فصل

قد تبين أحوال أهل الحق ذوي المشارب، وما هي وظيفتهم، فأما الآفات الداخلة على العباد، أهل الأذواق المجملة، الذين لا بصيرة لهم في دينهم، ولا معرفة لهم بأحوالهم، ولا ميزان لهم يزنون به حركاتهم وسكناتهم، فهم في حيرة يعمهون، وخبط يتعثرون، فهي أكثر [من] أن تحصى، لكن نذكر منها ما يكون تبصرة واعتباراً، يُستدل بها على غيرها من الآفات، وبالله المستعان.

فمنهم من يكون طريقه العبادة فينازله أحياناً في عبادته شيء من آثار العظمة الإلهية مجملاً، غير مفصل، على تفاصيل الأسماء والصفات، ويتفق أن يكون بليداً، لا فطنة له، غليظاً لا لطافة له، قوي النفس، والطبيعة لها التصرف فيه على عقله وقلبه، فيصبغ قلبه بذلك الأثر، فيغيب عن صفات نفسه وشؤونها، وتسلب النفس ذلك الأثر، فيجعل لها فيظهر هو في مظهر الجبروت والعظمة، وتلوح عليه أمارات الكبرياء والرياسة، فيمشي بين العالم بنفس كبيرة، وضولة جسيمة، فيتردى برداء الكبرياء والته، ويتسلط على أشكاله بالغلظة، مع ما هو فيه، فيأمرهم وينهاهم والنخوة في رأسه، والقسوة في قلبه، والشر في أحداقه وتحديقته، يريد الخير فيقع في الشر، ويقصد العدل فيهبط في الجور والظلم، هواة قائدة، لا عقل له، كأنه ثعبان يُزديه في آبار المهالك والمعاطب، حسود لا يفطن لحسده، يتكبر لا يشعر بكبره، أعمى بقلبه وبصيرته، لا ريب قد اتصف بصفات غيره من الكبر والعلو، وقد جاء في الحديث القدسي عن الله تعالى: « العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني أحدهما أدخلته ناري »، فمثل هذا أصحابه معه في جهد جهيد، وعناء شديد، ينزل على رؤوسهم من أعلى المقامات، ويروم أن يتصرف فيهم، فتكون إليه الإشارة في جميع الحالات، كلما امتلاً حلاً امتلاً كبيراً، وكلما ازداد قوة ازداد شراً، وأهل الله الصفة، على عكس ذلك، كلما امتلأوا حلاً اكتسوا تواضعاً، وكلما ازدادوا قوة

ازدادوا شكراً، فانظر -رحمك الله- إلى صاحبِ الحالِ المَفْصَّلِ ونوره، وكونه شَعَرَ قلبه بحالهِ، وشعر أيضاً بعبوديته المناسبة، لما ظهرَ في قلبه فعرفَ ربَّه فقامَ بحَقِّه، وعرفَ نفسَه، فأنزلها من صفاتِ المخلوقين، فعينُ قلبه ناظرةً إلى ربِّه خاضعةً، تظهرُ عليه كَسْرَةُ الخضوعِ، وذِلَّةُ العبودية، وإن كان عزيزاً في نفسه، مهيباً من بين أبناء جنسه، وانظر -رحمك الله- إلى صاحبِ الحالِ المجملِ، وقِلَّةِ نصيبه من شعوره برَبِّه، وجهله بصفته، وجهله - أيضاً - بنفسه وصفاتها، وما يجبُ عليها في المعرفة من قيامها في عبوديته، وبكونه اتصفَ بما ظَهَرَ لقلبه من العَظَمَةِ والجبروتِ، فظهر بما لا يملكه، ففاضَ عليه من الأخلاقِ الملائمةِ لجهله من الصولة، والنخوة والكبر والطيش، فلولا الحلمُ من الله الكريم، والإمهالُ لهذا العبدِ الجاهلِ العديمِ لخسفتُ به الأرضُ كما خُسِفَ بقارونَ حينَ قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78]

وخرج على قومه في زيتته، ولم يخرج في أثوابِ ذِلَّتِهِ وتواضعه، فقال ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ٧٩ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ اللَّهُ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ﴾ ٨٠ فحَسَفْنَا بِهِ وَيَدَارِيهِ الْأَرْضَ ﴿ [القصص: 81/79] عوقبَ بنقيضِ قصده، طلبَ العلوَّ فهو به طلبه إلى تخوم الأرضين، ولذلك جاء في الحديث « بينما رجلٌ يمشي إذ أعجِبَ بنفسه في حلته، فتبخر فيها، فحُسِفَ به، فهو يتجلجلُ في الأرض، إلى يوم القيامة » أو نحو هذا الكلام، فنسألُ الله العظيم أن يكسونا أثوابَ العبودية، والتعظيمِ لمالكِ البرية، ويوفقنا على ذلِّ نفوسنا، وعزة ديننا ومعبودنا، إنه أرحمُ الراحمين، وأكرمُ الأكرمين، والحمدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

مِيزَانُ الشُّيُوخِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ، بِاسْطِ الرِّزْقِ ذِي الْقُوَّةِ الْمَتِينِ، مُنْزِلِ الْوَحْيِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، بَاعِثِهِمْ إِلَى الْكَافَّةِ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، وَقَدْ أَوْضَحَ طَرِيقَ مَرَاضِيهِ وَمَسَا خِطَاهُ بِالتَّبْيِينِ، وَفَرَّقَ بِكِتَابِهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ بَيْنَ الضَّلَالِ الْمَشِينِ، الْمَزْدِي فِي طَبَقَاتِ سَجِّينَ، وَبَيْنَ الْهُدَى الْمَرْقِي إِلَى دَرَجَاتِ الْفَرْدَوْسِ فِي عِلِّيِّينَ، وَبَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ، وَالِدَلَالَةِ الْوَاضِحَةِ، وَجَعَلَهُ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسَرَاجًا مَنِيرًا، فَتَحَ اللَّهُ ﷻ بِيَعْتِهِ عَيْنًا غُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، فَتَلَقَّحَتْ بِنُورِهِ الْعُقُولُ، وَاسْتَقَامَتْ بِهِ الْأَعْمَالُ فِي طَرِيقِ الْوُصُولِ، وَاكْتَسَبَتْ الْفِطْرَ مِنْ شَمَائِلِهِ كَرَائِمِ الْأَخْلَاقِ، فَكَانَ لَهَا نَهَايَةُ السُّلُوكِ، وَانْجَذَبَتْ الْأَرْوَاحُ بِالْمَحَبَّةِ إِلَى فَاطِمَها الْعَلِيَّةِ، فَارْتَفَعَتْ إِلَى قُرْبِهِ صَاعِدَةً مِنَ السُّفُولِ، رَاقِيَةً مِنْ دَرَكَاتِ الْإِبْعَادِ، وَمَهَاوِي الْأَضْدَادِ وَالتُّزُولِ، وَكَمَّلَ الْأُمَّةَ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ غَايَةَ الْمَأْمُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ - وَخَصَّه بِالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَقَدَّمَ الصِّدْقِ الثَّابِتِ، الَّذِي لَا يَتَزَلُّزُ وَلَا يَزُولُ، وَرَزَقَنَا اتِّبَاعَهُ، وَسُلُوكَ نَهْجِهِ الْمُضِيِّ، الَّذِي لَا ضَلَالَةَ فِيهِ، وَلَا لِإِضَاعَتِهِ أَفُولَ، وَبَعْدُ:

فَهَذِهِ نَصِيحَةٌ كَتَبْتُهَا إِلَى إِخْوَانِي الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآفَاقِ - جَمَعَنَا اللَّهُ وَإِيَاهُمْ فِي خَضِرَةِ قُدْسِهِ يَوْمَ التَّلَاقِ - وَذَلِكَ لِمَا كَانَ فِي النِّصِيحَةِ لِلَّهِ، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ مِنَ الْمُنْدُوبِ، الَّذِي لَا يَسَعُ الْمُؤْمِنَ تَرْكُهُ، وَلَا الْإِعْرَاضُ عَنْهُ خُصُوصًا فِي هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ الْمَتَبَاعِدَةِ عَنْ زَمَنِ الرَّسُولِ ﷺ فَلَهَا الْيَوْمَ سَبْعُمِئَةُ سَنَةٍ وَكُسُورٌ، فَحَدَّثْتُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ الْأَحْدَاثَ، وَكَثُرَتْ الْبِدْعُ وَتَشَرَّبَتْهَا النُّفُوسُ، فَقَدَفْتُ بِمِقْدَارِ مَا تَشَرَّبَتْهُ مِنَ الْبِدْعِ الْمُنْكَرَةِ سُنَنًا مَعْرُوفَةً، فَصَارَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَأَهْلُهُ غُرَبَاءَ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَقَدْ رَحِمَ اللَّهُ الْأُمَّةَ بِأَنْ أَقَامَ لَهَا فِي كُلِّ قَرْنٍ أَعْلَامًا يَكُونُونَ لِدِينِهِ أَنْصَارًا،

فَيَنْبَهُونَ النَّاسَ عَلَى الْأَحْدَاثِ النَّاشِئَةِ، وَالْبِدَعِ الْكَائِنَةِ، يَتْلُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا، يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَنِ، وَفِي الْحَدِيثِ: (مَنْ أَحْيَا سُنَّةً أُمِيتَتْ فَقَدْ أَحْيَانِي، وَمَنْ أَحْيَانِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ).

فصل

إِنَّمَا يَقْتَدِي الْعَامَّةُ بِرُؤُسَائِهَا وَأَشْرَافِهَا وَمَشَايِخِهَا، فَعَلَيْهِمْ وَزُرُّ مَا ابْتَدَعُوا، وَلَهُمْ أَجْرٌ مَا تَبِعُوا - كَذَلِكَ - إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرٌ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ ابْتَدَعَ بَدْعَةً لَا يَرْضَاهَا، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرٌ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) وَعَنْهُ ﷺ قَالَ (مَا مِنْ قَتِيلٍ يُقْتَلُ إِلَّا وَعَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهِ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ) يَعْنِي بِهِ (قَابِيلُ) الَّذِي قَتَلَ (هَابِيلَ).

وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ: (وَإِنْ تَوَلَّيْتَ، فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ) وَالْأَرِيسِيُّونَ هُمُ الْآتِبَاغُ وَالْأَكْرَةُ، يَعْنِي إِنْ تَوَلَّيْتَ عَنِ الْحَقِّ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ مَنْ اتَّبَعَكَ فِي الضَّلَالَةِ، وَالتَّوَلَّى عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَحْبَارُ دِينِ زُرْهَبَانُهَا

يُرَوَّى هَذَا الْقَصِيدُ بِكَمَالِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ ؓ.

فصل

الْقَادَةُ فِي زَمَانِنَا أَصْنَافٌ: مُلُوكٌ، وَأُمَرَاءٌ، وَرُؤُسَاءٌ، وَعِلْمَاءٌ، وَمَشَايِخُ صُوفِيَّةٍ، وَمَشَايِخُ فَقَرَاءٍ، فَالْمُلُوكُ وَالرُّؤُسَاءُ وَالْأُمَرَاءُ - وَإِنْ كَانُوا أُولَى أَمْرِ - فَأَبْصَارُهُمْ طَامِحَةٌ إِلَى مَشَايِخِ الْعِلْمِ، وَمَشَايِخِ الزِّيِّ، فَإِلَى مَشَايِخِ الْعِلْمِ يَسْتَنِدُونَ فِي الْقَضَايَا وَالْأَحْكَامِ، وَمِنْ مَشَايِخِ الزِّيِّ يَسْتَنْشِقُونَ أَرَائِحَ الْمَوَاجِيدِ، وَحَقَائِقَ الْإِيمَانِ، ثُمَّ إِنَّ الْمُلُوكَ، وَالْأُمَرَاءَ، وَالرُّؤُسَاءَ، لَمَّا انْصَرَفَتْ هِمَمُهُمْ إِلَى جَمْعِ الْحُطَامِ، وَقَهْرِ الْأَنَامِ، وَشُرْبِ الْخُمُورِ، وَمَعَانِقَةِ الْمُنْكَرِ وَالْمَحْظُورِ، وَاسْتِحْلَالِ الْمَحَارِمِ وَالْمَظَالِمِ

والمُكُوس، واقتناء المماليك للاستمتاع المحرَّم، ففَسَتْ لذلك القلوب وأظلمت أرجاؤها، وانعكست فطرهم، فصار عندهم الحسنُ ما استَحَسَّتْهُ نفوسُهُم واستطابَّتْهُ، والقيح ما قَبِحَ في نَظَرِهِم، فأعرضوا عن استحسانِ الشَّرْعِ واستقباحِهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَشْيَاءَ ظواهرٍ، يَنْخَرِمُ الدينُ جُمْلَةً بتعاطيها، وَخَزَقَ سياجها، كاستباحة المحارم ظاهراً، وَخَزَقَ سياج الصوم والصلاة، فهذا لم يُمكنهم تركُهُ لأنه خروجٌ إلى الكفر بالأصالة.

فَلَمَّا عَمِيَتْ قُلُوبُهُم وَأظْلَمَتْ أَسْرَارُهُم، خَفِيَ عَنْهُمْ تَمَيُّزُ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَكُلُّ مَنْ لَبَسَ عَنْدهم هَيْئَةُ الْعُلَمَاءِ، وَوَجَدُوا عَنْده كَلَاماً وَنَهْماً فِي الْمَنْطِقِ، كَانَ فَقِيهاً، وَكُلُّ مَنْ تَزَيَّأَ عَنْدهم بِلُبْسِ الْمَرْقَعَةِ كَانَ صَوْفِيّاً أَوْ فَقيراً، فَضَلَّتِ الْعَامَّةُ بِهِمْ ضَلالاً مَبِيناً، لَجْهَلِهِمْ بِالصَّادِقِينَ، وَعَدَمِ التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكَاذِبِينَ.

فصل

وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ، فَلَمَّا اهْتَمُّوا - أَيْضاً - بِحُبِّ الدُّنْيَا، وَجَمَعَ الْخُطَامُ، وَالتَّكَالَبَ عَلَى الرِّفْعَةِ وَالْمَنَاصِبِ بَيْنَ الْأَنَامِ، وَشَدَّةَ الْإِهْتِمَامِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَى الْأُمَرَاءِ وَالدُّخُولِ مَعَهُمْ فِي أَهْوَائِهِمْ، وَيَفْتَنُونَهُمْ بِآرَائِهِمْ طَلَباً لِلْمَنْزِلَةِ عَنْدهم، أَظْلَمَتْ - أَيْضاً - قُلُوبُهُمْ، وَعَمِيَتْ عَنِ الرُّشْدِ، فَتَصَرَّفَ هَوَاهُمْ فِي عُلُومِهِمْ وَكَدَّرَهَا، فَصَارَتْ عُلُومُهُمُ الشَّرْعِيَّةُ مَشُوبَةً بِأَكْثَادِ الْهَوَى، مَمْرُوجَةٌ - وَإِنْ كَانَتْ حَقّاً - بِأَبَاطِيلِ آرَائِهِمْ وَمَحْبُوبَاتِهِمْ، فَلَا يُنْكِرُونَ الْمُنْكَرَ، وَلَا مَا قَامَ لَهُمْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، مِنْ كَسْرِ مَنْ عَانَدَهُمْ أَوْ نَاوَاهُمْ، فَيَكْسِرُونَهُمْ بِحُجَّةِ إِقَامَةِ الدِّينِ، وَيُظْهِرُونَ مَثَالِبَهُمْ، وَلَا يَأْمُرُونَ مِنَ الْمَعْرُوفِ إِلَّا مَا اسْتَجْلَبُوا بِهِ رِفْقاً أَوْجَبَ لَهُمْ رِئَاسَةً وَظُهوراً، فَمَاتَ الْحَقُّ لِظُهورِ رَغْبَتِهِمْ، وَظَهَرَ الْمُنْكَرُ لِإِبْقَائِهِمْ عَلَى رِئَاسَتِهِمْ، فَبَعُدُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَبْعَدُوا، وَكَانَتْ زَلَّتْهُمْ كَالسَّفِينَةِ تَغْرَقُ وَتُغْرَقُ، اللَّهُمَّ إِلَّا بَقَايَا مِنْهُمْ خَامِلُونَ مُضْطَهَدُونَ مَبْغُوضُونَ (وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) فَضَّلَ بِهِمُ الْعَامَّةُ وَالْمُلُوكُ، وَصَارُوا حُجَّةً فِي الْعَوَائِدِ الْفَاسِدَةِ وَالْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ، وَالرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّهَاولِ بِأُمُورِ الدِّينِ، يَقُولُ النَّاسُ بِأَجْمَعِهِمْ: (إِذَا كَانَ الْفَقِهَاءُ يَفْعَلُونَ وَيَتْرَكُونَ) فَاتَّخَذُوهُمْ قُدُوةً، فَضَلُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ، وَأَضَلُّوا عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ.

فصل

وأما مشايخ الزِّيِّ، فلَمَّا أَعْرَضُوا عن مجموع أمرِ الله تعالى، فطَلَبُوا الدنيا، وطابَ لهم أكلُها بما يُظهِرون مِنَ الزِّيِّ والحال، وحُسْنِ السَّمْتِ، ومدِّ العُنُقِ، وحبِّ الشهرة والقبول، ومحبة الاستتباع والاتباع في الدنيا، داهَنُوا لهذه الأغراض الملوك والأمراء، إبقاءً على رئاستهم، وكرهوا أن يصدعوهم، فصار سُكُوتُهم حِجَّةً لظلم الظالم.

وأما أهل الانحراف من أهل الزِّيِّ، الذين شأنهم استجلاب قلوب الجُهَّال والبطلة، والنساء، والفلاحين، بإظهار السماع والرقص، ودعوى أنهم أهل المحبة، والمعرفة، والاتصال بالله، والتصوف، فاتخذوا هذه الدعوى سبيلاً إلى أكل أموال الناس بالباطل، والتمتع بنسائهم وصبيانهم بعقد المؤاخاة، والمضاجعة معهم، فإن أحدهم - على زعمهم - إنما يُضاجع أخته أو أخاه، وذلك عندهم لا بأس به إذا كان القلب نظيفاً!!

يتقربون إلى الأمراء لنيل الدراهم والجاه عندهم، ويُرْوِكُونَ بالصياح والشهد عندهم، والأمراء مُنغمسون في الفواحش والمظالم، قد أظلمت قلوبهم، وعميت عن الحق أبصارهم، فصاروا لا يعرفون التمييز بين الحق والباطل، ولا بين الصادق والكاذب، فيُرَوْنَ شيخاً معه جمع كثير، عليهم المرقعات، قد أحسنوا زيَّهم، وتزينوا للخلق باجتماعهم وعكوفهم على شيخهم يُعْظَمُونَهُ وَيَقْبَلُونَهُ يده، وكيف لا؟! وهو دُكَّانُهُمْ، وسبب إلى نيل معاشهم.

بهذه الصورة تقوم صورهم، إذ لولاها لماتوا جوعاً، فهو لهم صنم يرتقون به، والحادي صنم آخر، على حِسِّه يجتمع الناس، ويؤلف بينهم، فالشيخ هو محلّ الوهم الذي يوهمون به الخلق، وأن هذا هو، وهو الحادي كطبل المُشْعَبِذِ، يجمع الناس على ذلك الوهم الفاسد، فينتج من اجتماعهم ميل القلب إليهم، ومحبتهم لهم، وصناعة الطعام لاجتماعهم، ولا بدّ من أولاد حسان وزوجات وضيئات، فإذا

مَالِ الْآبَاءِ إِلَيْهِمْ، فَبِالضَّرُورَةِ يَحِجُّ الْأَوْلَادُ وَالْأَزْوَاجُ إِلَيْهِمْ، فَيَرْتَقُونَ بِطَعَامِ الْآبَاءِ، وَيَتَمَتَّعُونَ بِالْإِخْوَةِ - وَهُمْ الْأَوْلَادُ وَالْأَزْوَاجُ - فَتَبْلُغُ نَفُوسُهُمْ هَوَاهَا وَغَرَضُهَا بِهَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي أَقَامُوهَا، فَضَلُّوا بِذَلِكَ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا، وَأَظْلَمَتْ قُلُوبُهُمْ وَالتَّبَسَّثُ صُورَ شَيْطَانِيَّةٍ، يَرَى الْعَارِفُونَ بِشَاعَتِهَا مِنْ وَجْهِهِمْ، فَمَا أَبْعَدَهُمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ حَقِيقَةً، وَهُمْ قُطَاعُ الطَّرِيقِ، يَقْطَعُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ عَنِ اتِّبَاعِ السَّنَةِ وَالْوَصُولِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَمَا جَاءَ الْإِسْلَامَ قَوْمٌ أَضَرَّ مِنْهُمْ عَلَى أَهْلِهِ، إِنَّمَا يَعْرِفُ ضَرَرَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ مَنْ يَعْرِفُ الْإِسْلَامَ وَطَرِيقَتَهُ، وَمَا أَصْدَقُ مَنْ قَالَ:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمَلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

فَنَسَأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، الْجَبَّارَ الْقَدِيرَ، الْعَزِيزَ الْحَكِيمَ، أَنْ يَكْشِفَ هَذِهِ الظُّلْمَةَ عَنِ وَجْهِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يُعْفِيَ آثَارَهَا، وَيَمَحِّقَ مَنَارَهَا، وَأَنْ يَكْشِفَهُمْ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ، حَتَّى تَرْمِيَهُمُ الْعَيُونَ بِالنَّظَرِ الشَّرِّ وَالْإِزْدِرَاءِ، وَيَقْلَاهُمْ الْخَلْقُ فَيَنَالَهُمُ الذُّلُّ عَقُوبَةَ الْإِفْتِرَاءِ، فَيَمُوتُوا جُوعًا وَغُرْيًا وَحَفَاءً وَذَلَّةً، أَوْ يَرْجِعُوا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَيَتَّبِعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجِيِّ وَالذَّهَابِ.

فصل

سَبَبُ انْحِرَافِ الْأُمَّةِ وَتَشَعُّبِهَا، هُوَ أَنَّهُ حَدَثَ فِي هَذِهِ الْقُرُونِ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ مَشَايخُ صَالِحُونَ، أُولُو أَحْوَالٍ أَمْثُونَ، لَا يَعْرِفُونَ تَفَاصِيلَ الشَّرِيعَةِ، فَلَمْ يَعْمَلُوهَا، وَلَمْ يَحْمِلُوا أَصْحَابَهُمْ عَلَى تَفَاصِيلِهَا، فَصَاتَ أَفْعَالُ شَيْخٍ كُلِّ طَائِفَةٍ بِهَا يَقْتَدِي أَصْحَابُهَا، وَصَارَ الشَّيْخُ هُوَ الْمَتَّبِعُ فِي شِمَائِلِهِ وَأَحْوَالِهِ وَعَادَاتِهِ، وَأَعْرَضُوا بِذَلِكَ عَنِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَأَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، لَا عَنِ اتِّبَاعِ الشَّيْخِ، فَلِذَلِكَ افْتَرَقَتِ الْأُمَّةُ فِرْقًا، وَصَارُوا بِهَذَا الْإِفْتِرَاقِ شِيْعًا.

فصل

فِي مِيزَانٍ تُوزَنُ بِهِ الْمَشَايخُ، لِيَكُونَ مُتَّبِعُهُمْ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ وَنِيَّتِهِ مِنْ حَالِهِ

اعلم أنَّ المشايخ في زماننا ثلاثة: شيخُ علمٍ، وهو الفقيه، وشيخُ سلوكٍ، وهو الصوفي، وشيخُ عامَّةٍ، وهو شيخُ الفقراء، ولا بُدَّ لهم من ميزان تُعرَف به جادة طريق المستقيم منهم والمنحرف، ومَن الذي يَتَعَيَّن اتباعه منهم، والذي يجب اجتنابه والتباعد عنه منهم، وبالله التوفيق، ونسأله أن يرينا الحق حقاً ويُعيننا على اتباعه، ويُرينا الباطل باطلاً ويُعيننا على اجتنابه.

الفصل الأول

في بيان استقامة طريق شيخ العلم من ⁽¹⁾ انحرافه

(العلماء ورثة الأنبياء، لم يُورَثُوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورَثُوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر)، كذا جاء في الحديث، وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: 56] فالعلمُ الكامل هو اسمٌ يدخل تحته كلُّ فضيلةٍ تتعلق بالدين الظاهر، أو بالحال الباطن، علماً وعملاً وخُلُقاً وحالاً، قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28] فقد نَبَّه على أن الخشية من الله تعالى ميزانُ العلم، أي العلم به، وبأمره، ونهيه.

فانقسم العلماء ثلاثة أقسام: [الأول] عالمٌ بالله ﷻ، وعالمٌ بدينه، وهو العالم الكامل الجامع، الذي علمه وحاله قُوَّةٌ ومادةٌ لكلِّ مؤمنٍ، ومسلمٍ، وصديقٍ، ومثالهم في الأمة كأبي بكر، وعمر، وبقية العشرة، وعلماء الصحابة وفقهائهم، أهل العلم الشرعي، والعمل الموفي به، والعلم اللدني، جمعوا كلَّ فضيلةٍ من علم وعمل، وخلق وحال ﷺ فهم كانوا أعمق الناس علوماً، وأصحَّهم أعمالاً، وأكملهم أحوالاً.

كانوا متَّبِعِينَ لأمر الله تعالى في الظاهر مجتنبين لِنَهْيِهِ، عالمين بأمره ونهيه، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. يبذل أحدهم نفسه لله، يرى دماءهُ تسيل،

(1) كذا، والأصوب: أو انحرافه.

وهو إلى قُدَامٍ يُقاتل على دين الله من خالف الله وكفّر به، هذا عَمَلُهُمْ، وأما وَعِلْمُهُمْ وحالهم، فكان شيخهم، ومُؤَمِّدُهُمْ من العلم والحال رسولُ الله ﷺ، فهو سيد العلماء، وسَيِّدُ العارفين، وكان عِلْمُ الصحابة من بحرِ علم الرسول ﷺ ورثوا الحال من صُحْبَتِهِ ونَظَرِهِ، وورثوا العلم من أقواله وأفعاله، فهم ساداتُ الأُمَّة، بهم نقتدي، وبهم نهتدي.

أيها المُنْصِفُ !! فهل كانوا كشيوخ الفقراء في زماننا؟! كلا - والله - بل لو رأوهم لجاهدوهم وقتلوهم على ما ابتدعوا في دين الله ما لم يأذن به الله، وكذلك جاء بعد الصحابة سادات التابعين وعارفهم وعلمائهم، كسعيد بن المسيّب، وأصحاب ابن مسعود، كعلقمة والأسود - من أهل البصرة - والحسن البصري وغيرهم، كان الحسن إماماً في كلّ فَنٍّ، كان قومٌ يأخذون عنه العربية، وقومٌ يأخذون عنه التفسير، وقوم الأحكام الفقهية، وقوم يأخذون عنه أحوال القلوب، فكان إذا اجتمع به أهل القلوب يَخْلُو بِهِمْ، فلا يدع غيرهم يدخل معهم، فرأى يوماً في حلقة شيخاً من غيرهم، فقال: ما أجلسك عندنا يا لُكْعُ؟ إنما جلسنا مع أصحابنا نتذاكر.

وكذلك كان في كلّ قرنٍ سادات من العلماء الكُمل، جمعوا العلوم، والأعمال، والأخلاق، والأحوال، حتى كان في المئة الرابعة، شيخ الإسلام وقُدوة الأنام، أبو إسماعيل عبد الله الأنصاري الهرويُّ بهراة، صاحب (منازل السائرين) كان إماماً في السُّنَّة والتفسير، إماماً في المواجيد والأحوال ﷺ ثم كان في المئة الخامسة الشيخ الإمام عبد القادر الجيلي ﷺ ببغداد، كان الفقيه يأخذ عنه مددَ علمه، وكان العارف يأخذ عنه مددَ عرفانه، فهؤلاء العلماء الكُمل ﷺ.

الثاني: عالمٌ بأمر الله تعالى، وليس عالماً بالله، وهم الفقهاء، ويعرفون أمر الله ونهيه، ولم تتصل قلوبهم بالله اتصال المحبة التامة، بكمال الزهد في الدنيا والمناصب.

الثالث: عالمٌ بالله تعالى، وليس عالماً بأمره، وهم العارفون الأُمِّيُّون، أحدهم له نصيب من الله ﷻ في قلبه، ولا يعرف تفاصيل الأمر والنهي، فهو صحيحٌ بشرط ألا

يُخْرِجُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ إِلَى بَدْعَةٍ، لَمْ يَسُنَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَعَلَامَةُ اسْتِقَامَةِ طَرِيقِ شَيْخِ الْعِلْمِ فِي زَمَانِنَا أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ، عَالِمًا بِسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، عَالِمًا بِفُرُوعِ الْأَحْكَامِ، وَرَدِّ الْحَوَادِثِ إِلَى الْأَصُولِ، يَقِيمُ بَرَهَانَ ذَلِكَ إِذَا سُئِلَ عِنْدَ النَّازِلَةِ، فَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَنْ يَكُونَ مَعَ ذَلِكَ عَامِلًا بِعِلْمِهِ، لَا يَجْرِي عَلَى ظَاهِرِهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ مَا يَخَالِفُ عِلْمَهُ، وَأَنْ يَكُونَ حَرِيصًا عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، مُهْتَمًّا بِهِ، يَصْبِحُ مُهْتَمًّا بِإِقَامَةِ أَمْرِ اللَّهِ، وَيَمْسِي بِهِ مُهْتَمًّا، حَرِيصًا عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا يَدْعُ فِيهِ مُمْكِنًا، يَنْذِلُ فِيهِ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ مَالِهِ وَجَاهِهِ، يَتَأَلَّفُ النَّاسَ بِمَالِهِ وَخَلَقَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَأَنْ يَكُونَ زَاهِدًا فِي الْمَنَاصِبِ، وَفَضُولِ الدُّنْيَا تَطْلِبُهُ وَلَا يَطْلِبُهَا، وَتَأْتِيهِ وَلَا يَأْتِيهَا، وَأَنْ يَكُونَ مُجَانِبًا لِلدُّخُولِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ الظُّلْمَةِ، فَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ لَطْلِبِ مَالٍ وَلَا جَاهٍ، يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ لِأَمْرِهِمْ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَيُعَلِّمُهُمْ أَمْرَ اللَّهِ وَنَهْيَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ لِيَسْتَضِيئُوا بِعِلْمِهِ وَنُورِهِ فِي ظُلُمَاتِ حَوَادِثِهِمْ، فَهَذَا الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا عَلَيْهِ تَارَةً، وَأُخْرَى مُسْتَحَبًّا، وَأَنْ لَا يُدَاهِنَهُمْ، وَلَا يَدْخُلَ مَعَهُمْ فِي أَغْرَاضِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَلَا يُفْتِيَهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، فَيَقْلُدُونَهُ فِيهَا، فَيَدْخُلُ مَعَهُمْ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ لِيَنَالَ مِنْ جَاهِهِمْ وَمَالِهِمْ، فَيَكُونُ جِسْرًا لَهُمْ يَعْْبُرُونَ عَلَى رَقَبَتِهِ إِلَى النَّارِ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ، مُجَانِبًا لِلْكَلامِ وَالْمُنْطِقِ وَأَهْلِهِ، عَقِيدَتُهُ عَقِيدَةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، لَا عَقِيدَةُ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْأَرَاءِ الْفَاسِدَةِ، وَأَنْ يَكُونَ وَرِعًا فِي مَنْطِقِهِ، فَلَا يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ، وَإِنْ سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ يَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ. وَرِعًا فِي مَأْكَلِهِ وَمَلْبَسِهِ، يَكُونُ لَهُ مَعِيشَةٌ يَسْتَغْنِي بِهَا عَنِ النَّاسِ، لَا يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ مِنْ مُسْتَفْتٍ يَسْتَفْتِيهِ، غَرَضُهُ أَنْ يُفْتِيَ فِي تَحْرِيمِ حَلَالٍ، أَوْ تَحْلِيلِ حَرَامٍ عَلَى وَفْقِ غَرَضِهِ، وَأَنْ يَكُونَ أَعْفَى النَّاسِ وَأَعْقَلَهُمْ، فَمَنْ قَلَّ عَقْلُهُ لَا يُؤْمَنُ فِي عِلْمِهِ مِنَ الْخَطَأِ، وَسُوءِ الرَّأْيِ، وَأَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ الْمَرْوَةِ، لَهُ مَعَ رَبِّهِ فِي خَلَوَاتِهِ عِبَارَاتٌ وَأُورَادٌ، تَعَامُلُهُ يُظْهِرُ أَنْوَارَ الْمَعَامَلَةِ عَلَى وَجْهِهِ، وَيُظْهِرُ السَّكِينَةَ عَلَى مَنْطِقِهِ وَعَمَلِهِ، قَلِيلُ الْإِنْبِسَاطِ، ضَحِكُهُ تَبَسُّمٌ، مُسْتَعْمِلُ الْأَخْلَاقِ مِنَ الْحِلْمِ، وَالصَّبْرِ، وَالتَّوَاضُعِ مَعَ

المؤمنين، مستعملًا للشدة والغلظة، مستعملًا للمصابرة والمداراة مع من يرجو منه الانتفاع بعلمه وكلامه، راقد النفس، ساكن الهوى، فمن غلب عليه الهوى في علمه لا يؤمن أن ينتصر لباطل إذا حُوجِّج فيه، ويخذل الحق إذا ظهر مع خصمه، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال من علماء زمانكم فاغتنموه، واسألوه عن أمور دينكم، وقَلِّدوه أحكام حوادثكم ونوائبكم، واعلموا أن مثل هذا العالم يُسَمَّى وارثًا، فإنه قد وَرِثَ الرسول ﷺ فيما قام به من العلم والعمل والخلق، فهو نور الأمة، ومصباح العالم، يُستضاء بنوره، ويهتدى بعلمه.

فصل

ومتى رأيتم العالم يعمل بخلاف ما يعلم، فيخالف عَمَلُهُ عِلْمَهُ، ويقول مالا يفعل، أو يميل إلى الهوى في العلم، أو يُقِلُّ الاكتراث بالسنة والنصوص، ويجنح إلى الرأي والتقليد، مع قدرته على ذلك، فيُستدلُّ بأعماله - بذلك - على سقوط منزلة النصوص عن قلبه، فيستدل بذلك على قلة دينه، أو سوء عقيدته، ومتى رأيتم العالم غير مهتم بالأمر بالمعروف، غير مكترث بالنهي عن المنكر، لا يبالي إذا انتهكت المحارم، ولا يتوجع قلبه لها، ولا يتأسف إذا عُصي الله في أرضه، ولا يغضب لله في مخالفة أمره، ولا يحرص على الأمر بالمعروف، ويتآلف الناس عليه بالمال والخلق، فاتهموه في علمه ودينه، واستدلوا بذلك على قسوة قلبه، والطبع عليه، فما أشبه هذا بعلماء اليهود. قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: 74] الخطاب مع اليهود، وكذلك من عرف أمراً وخالفه، أورثه ذلك القسوة، وبضدِّه من عمل بما يعلم، أورثه ذلك الحكمة والحكم، ميراث خشوع القلب وصلاحه، وإذا رأيتم العالم راغباً في فضول الدنيا، منازعاً لأهل المناصب في مناصبهم، يأتي أبواب الظلمة لما يناله من ذلك أو يطمع فيه، إذا دخل مع الأمراء يدخل معهم في أهوائهم، لا يُحَسِّنُ الحسن عندهم، ولا يُقَبِّحُ القبيح، يأخذ معهم في الحكايات المضحكات لبسطهم، ويأتي بالمحاضرات والمُلح فيما زحمهم، فاتهموه على علمه، وعلى دينه خصوصاً إذ لم ينصر عندهم مظلوماً،

ولا يعتني بقضاء حاجة مُضْطَرٍّ مَلْهُوفٍ، فإنه من القاسية قلوبهم، المعرضين عن ربهم، قلبه بعيد من الآخرة، متعلق بالدنيا، علمه دُكَّاهُ، ويتأكل ويرتزق، ولا يعامل الله بعلمه إلا قليلاً، يسكت عن الحق خشية سقوط منزلته، ويمالي على الباطل طلباً للرفعة، فما أبعد هذا عن الله وعن طريقه، علمه حجة عليه.

ومتى رأيتم العالم قليل الورع في كلامه، يتكلم مجازفة، ويكذب أحياناً، ويستعمل الهزل واللعب، ويذكر المردان، ويميل إليهم، أو رأيتموه قليل الورع في المأكَل والمشرب، والمدخل والمخرج، لا يبالي ما أكل حلالاً كان أو حراماً، فاتهموه على علمه وعلى دينه، ولا تقلدوه أموركم، واحذروه أن يَسْلِبَكُمْ دينكم، بتهوينه للأشياء الصغيرة من الحرام والشبهات، يسرق بذلك عقولكم، فيستدرجكم من حيث لا تعلمون.

ومتى رأيتم العالم يقبل الهدية من المستفتي ويفتيه على غرضه، ويدخل في التأويلات والشبهات، كمسألة الاستحلال، ومسألة الربا والمعاملة، ولا تجدونه متعففاً في معيشتهم، ترونها طامعاً في أموال الناس، يُدْخِلُ القضاة ليولوه الولايات، مع شَرِّهِ على الدنيا، وقلة ورعه ومبالاته بالحلال والحرام، فاتهموه على علمه ودينه.

ومتى رأيتم عالماً في عقله سخافة، وفي نظره قصور، يضع الأشياء - غالباً - في غير مواضعها، فاتهموه على استنباطه وعلمه ورأيه، ولا تُقلِّدوه.

ومتى رأيتم العالم لا يُتِمُّ صلاته المفروضة، ولا يطمئن في ركوعها وسجودها، ولا يحضر مع قراءته فيها بالخشوع والحضور، والتدبر والترتيل، فاتهموه بقساوة القلب، وبعده عن الرب ﷻ.

ومتى وجدتم العالم لا معاملة له مع ربه ﷻ، تظهر عليه بهجتها وأنوارها وسكيتها، من تلاوة وصيام وقيام، فاعلموا أنه قليل النصيب من ثمرة العلم إذ ثمرة العلم المعاملة، وقليل النصيب من المحبة والخشية، وَإِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ **الْعَلَمُونَ** [فاطر: 28].

ومتى رأيتم العالم هواه غالب على عقله، ينتصر لنفسه في الباطل، ويخذل غيره في الحق فاتهموه على علمه، ولا تقلدوه حتى تظهر لكم الحجة الصحيحة على فتياه، وبالله التوفيق والمستعان، وهو أعلم.

فصل

وأما ميزان استقامة طريق شيخ السلوك، فهو أن يكون عالماً بأمر الله ونهيه، مما يلزم علمه والعمل به، دون علم النكاح والطلاق واللّعان وغيره من الأحكام العامة، فإن اتسع لذلك كان أكمل لمرتبته، وأعلى لحاله، وأن يكون عاملاً بعلمه، واقفاً عند حدوده، ليس للشرعية عليه مطالبة، لا في ظاهره، ولا في باطنه. قد أحكم شيئين هما ركنا الطريق، وعليهما تبنى قواعده، الأول: التقوى، والتقوى هو: معنى عام في كلّ قولٍ وفعلٍ وخاطرٍ، قد أحكم هذا الأستاذ تقوى الله تعالى في لسانه، فلا يتكلم بما حرمه العلم أو كرهه، واتقى الله تعالى في عينيه، فلا ينظر إلى ما حرمه العلم أو كرهه، واتقى الله تعالى في سمعه فلا يسمع ما لا يحبه الله، ولا ما يكرهه، واتقى الله تعالى في بطنه، فلا يدخله من الطعام إلا ما أحله العلم، ويجتنب ما حرمه العلم، أو كرهه، واتقى الله تعالى في يديه ورجليه، فلا ينقلهما ولا يحركهما إلا إلى ما يحب الله ويرضاه، ولا ينقلهما إلى لهوٍ ولعبٍ وباطلٍ، وفي الجملة فلا يحرك جوارحه إلا فيما يرجو ثواب الله عليه، وفيما يأمن فيه عقابه بمقتضى العلم وحده، ثم تصل تقواه من ظاهره إلى باطنه، فيبقى الله تعالى في الخطرات والوساوس، والهّم والعزائم، والمقصود حتى يحرس قلبه من جميع ما حرمه الله وكرهه، كما حرس جوارحه فإن الخطرة من الشر إذا أهملها صاحبها صارت وسوسة، بمعنى أنها تتردد وتتكرر، فإن حفظها قبل أن تصير وسواساً اندفعت، وصلح القلب، وذهب أثرها عنه، وإن تركت صارت وسواساً، فيصعب دفعها في حال الوسواس أكثر من صعوبته في حال الخطرة، ثم إن دفعت الوسوسة ذهب أثرها، وصلح القلب وطهر من كونها، وإن تركت صارت الوسوسة همّة، فيكون دفعها أصعب فإن دفعت الهمّة اندفعت، وإلا صارت عزمًا فيكون دفع العزم أصعب وأصعب وأصعب، فإن اندفع وإلا صار

قصداً، فإن اندفع وإلا صار عملاً ظاهراً بالجوارح، فيعصي العبد بذلك ربه.

فهذه قاعدة عظيمة النفع من عرفها وكابد نفسه فيها استقام باطنه، واستقام ظاهره لاستقامة باطنه، فإن القلب إذا صلح صلح الجسد كله، وبها يعرف الإنسان كيف تنشأ المعاصي، فجميع المعاصي والطاعات هكذا تنشأ مبدأً من الخواطر، فلا يزال هذا الشيخ يتقي الله في ظاهره وباطنه حتى يملك ظاهره بالمحاسبة، ويملك باطنه بالمراقبة، فيصير القلب كالكوكب الدُّرِّي في أفق السماء، تتلأأ فيه الأنوار بمشاهدة الأذكار، ومتى لم يكن الشيخ بهذه المثابة لا يصلح للمشيخة، لأنه يريد أن يأخذ المريد في هذه الطريقة، وهو لم يحكمها ولم يحقق عملها فكيف يقدر على أن يسوس المريد فيها.

الركن الثاني من أركان الطريق بعد تحقيق التقوى يكون الشيخ المذكور قد حقق الزهد في الدنيا، فتكون نفسه ساكنة، غير متحركة إلى طلب الدنيا من مالها وجاهها، ففي الناس من يكون ساكناً عن طلب المال متحرراً إلى طلب العلو والرفعة والاستتباع، يحب أن يطاء عقبه الناس، وينكسر إذا لم ير وراءه أحداً، فهذا طالب رئاسة، وهي من أغلى مطالب الدنيا، فقد يُبذل المال لطلب الرئاسة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ بَجَعَلْنَاهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) [القصص: ٨٣] ومن لم يتحقق التقوى والزهد في فضول الدنيا، من مالها وجاهها، كيف يلج قلبه ملكوت السماء؟ وكيف يذوق الحب الخالص الملهب للأرواح؟ هذا مستحيل، ومن لم يلج قلبه ملكوت السماء، ولم يكشف بالمحبة الخالصة كيف يصلح للمشيخة؟!، وهو يريد أن يأخذ المريدين في طريقها ولم يبلغها هو.

فصل

ومن شرط شيخ السلوك أن يكون متعافاً، غير طامع في فتوح الناس، وإن كان ذا سبب كان أكمل بحاله، وأن لا يقبل الفتوح من كل أحد، ولا يأكل طعام كل أحد، ولا يأكل إلا طعام من يقصد الله تعالى بإنفاقه، ولا يكون لما أنفقه في قلبه

منزلة بل يراه قليلاً، ويرى نفسه بإنفاقه قليلة حقيرة، ولا يرى بإنفاقه لنفسه منزلة وفضلاً على الفقير الذي أطعمه، ويرى الفضل لمن آكله يشكره على آكله، ويعتذر إليه من تقليله وتهجمه، والفقير لا يقبل إلا لقلب هذا العبد الصالح، ويرى منة الله تعالى عليه لسياقة هذا الرزق إليه، فكلُّ منهما قد يثاب على إنفاقه وبذله، وهذا يثاب على قبوله وتناوله، إذ كلُّ منهما له فيما عمله قصد صالح وعمل صالح، ولا يأكل الفقير طعام أهل النفوس الحارة، العامة طباعهم، الثقيلة أنفاسهم، الذين يذكرون ما أنفقوا، ويمنون بلسان حالهم، وإن لم يقولوا بألسنتهم، وإن كانوا عباداً صلحاء فإنهم أهل نفوس تثقل نفوسهم في طعامهم، فمثل طعام هؤلاء سمٌّ يضرُّ القلوب ويوهنها، بل ربُّما كان أكل الشبهة ممن عنده أهلية ورياضة، أقل ضرراً من الحلال إذا كان الباذل له صاحب نفس ثقيلة، ولهذا قال أحمد بن حنبل رحمه الله: (جوائز السلطان أحب إلي من صلة الإخوان)، فقد تعارض في هذا الشبهة والمنة، فاختر الشبهة لما له فيها من الحق في بيت المال على المنة التي تضرُّ القلوب وتشغلها، وهذا من دقائق علوم أهل الله وخاصته والصفوة من عباده.

ومن شرط شيخ السلوك أن يكون قلبه متصلاً بالله تعالى، وأنفاسه محفوظة مع الله ﷻ، قد أشهده الله تعالى مشاهد الإلهية، ومشاهد الرُّبُوبِيَّة، ومشاهد الجمع وحقيقه بمَشْهَد الفردانية وعمَّر وجوده بأنواره، وصار له نصيب من القرب الخاص، والمحبة الخالصة، وأوقفه الله تعالى على الفرق بين دقائق التوحيد ودقائق الاتحاد، وعرف المداخل والمخارج، والقوادح والقواطع، والنهايات والحقائق، والتهب باطنه بالمحبة الخاصة من أنوار الله المخزونة، فإذا عرفه المريد أوقفه على مقام مقام، وسار به إلى موطنٍ موطن، بشرط الموافقة من المريد وحسن الاعتقاد، وترك الاختيار، وحسن الانقياد والاستسلام، فيتخلص المريد بصحبته من حُجُب النفوس الكثيفة، ثم من حُجُبها اللطيفة، ثم من حجب القلوب وأنوارها، فيخلص إلى فضاء الوجدان، ومباشرة الروح صريح الفتوح، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فصل

وإذا رأيتم شيخ السلوك جاهلاً بأمر الله ونهيه، لا فقه عنده فيما يخصه من دين الله، ولا يسأل العلماء إذا نابته نائبة، أو يكون عالماً مخالفاً لعلمه، مفرطاً في عمله، لم يحكم أساسه على التقوى والزهد، يحب الدنيا والمال والمناصب، يدهن العامة لحفظ منصبه، لا يأمرهم بمعروف ولا ينهاهم عن منكر، يتملقهم بالكلام والطعام ليجبوه، يتقرب إلى أبناء الدنيا ويكرمهم لينال فتوحهم، يجالس غير أبناء جنسه أو يجري على لسانه الغيبة والنميمة والكذب والفضول والهذيان والهزليات والمضحكات، أو يتباهى بالنظر إلى الصور الملاح، ولا يبالي بضجة الأحداث، ومعاشرتهم، أو يحضر السماع، فيستمع المكروهات، من الدفوف والشبّابات، أو يرقص على التصفيق والتوقيع في هذه الاجتماعات، أو لا يبالي بما يأكله من الشبهات، فمثل هذا يكون بعيداً عن حفظ الخطرات بين يدي قيوم السموات وعالم الخفيات، ويكون محجوب القلب عن الأحوال والكرامات، فإن من خلط في الجوارح الظاهرة، وأهمل المراعاة القلبية الباطنة، كيف يتحقق بدعوى الحال؟ وعمله قد أبان عما به عن الصدق حال، ومن أين لمثل هذا الإحاطة بالمشاهد الربانية؟ وكيف يعرف هذا الجمع والفرق؟، والسكر والصحو؟، والفناء والبقاء؟، والانفصال والاتصال؟، وهو في عبودية النفس الأمارة، لم ينفصل عنها، ولم يحكم سياسة الشرع عليها، ولم يذعن قلبه للشرع ولا لأحكامه؟ فمثل هذا يُتهم في سلوكه، وصحبته تقسّي القلب، وتفسد الوقت، ونعوذ بالله ممن يكون ممقوتاً بدعوى الحال، فينقلب سواد وجهه إلى الآخرة في المآل.

فصل

وأما ميزان شيخ الفقراء، أو علامة استقامته في طريقته، أن يكون فقيهاً فيما يخصه من أمر دينه، يعلم فرائض الوضوء وسننها، وفرائض الصلاة وسننها، وأحكام الماء الطاهر والنجس وغير ذلك مما يخصه، عالماً بالواجبات والمندوبات

والمستحبات عاملاً بأحكام علمه، متَّبِعاً لسنة رسول الله ﷺ في هديه وطريقته، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، يحل ما أحله الله، ويحرم ما حرمه، ويكره ما كرهه. قد طالع كتب الحديث ومرَّ على الصحاح الستة سماعاً، فاكْتَسَبَ قلبه من المرور عليها التخلص من الكيفية الجاهلية، والتكيف بالمحمدية، وأن يكون محباً لرسول الله ﷺ يهتزُّ قلبه عند ذكره، أكثر ما يهتزُّ عند ذكر شيخه، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، يضرب أصحابه إذا اجتمعوا بالنساء الأجنيات أو واخوهنَّ، أو اتخذوا الصبي أخاً، وهو الذي يسمونه الحوار، ويُعرِّفهم أن الأنس بالنساء الأجانب والصبيان ليس من طريقة الرحمن، إنما هو من طريقة الشيطان، والسبب الموجب لذلك هيجان شهوة النكاح، ويُعرِّفهم أن النظر إليهم زنا العين، (إن العين لتزني وإن اليد لتزني، وإن اللسان ليزني والفرج يُصدِّق ذلك ويكذبه)، والشيخ إذا كان مُتَّبِعاً لله ورسوله يعلم ذلك، فيتبع قول الله ﷻ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: 30] فإذا كان الشيخ مخالفاً لله، ولا ينهى أصحابه عن مخالفة الله ﷻ كيف يكون اتباعه والاجتماع به؟

ومن شرط مشايخ الفقراء أن يكون قد صحح التوبة في بدايته، وصحح مقام الورع ومقام الزهد ومقام المحاسبة والرعاية، ودخل في ميدان الخوف والرجاء، فحينئذ يحق له أن يدخل في مقام الفقر، فلا يصح الفقر إلا لمن صحح هذه المقامات قبله، وهي عبارة عن الفقر عما سوى الله، ثم يدخل بعدها إلى مقام الغنا بالله وهو مقام الشكر، ثم ينتقل إلى مقام التوكل فيصححه، ثم إلى مقام الرضا، فيصححه، ثم إلى مقام المحبة والمكاشفة، فحينئذ يصح له مشيخة الفقر، وأن يكون داعياً إلى طريقة الفقر.

ومن شرط الشيخ أن يتشبه بأصحاب رسول الله ﷺ، ويجتهد هو وأصحابه على اتباع طريقهم والعمل بعملهم، والذي يتبع الرسول ﷺ لا يعمل السماع ولا يرقص فيه، ولا يدع أصحابه ينزلون النار، ولا يمسكون الحيات، فإن الصحابة كانوا أفضل الناس، وأعلم الناس، وأقرب الناس إلى الله، ورسوله سيد الأولين والآخرين بين

أظهرهم، وهو معلمهم ومؤدبهم، والوحي من عند الله مع جبريل ينزل عليهم، فهم أفضل الخلق، وسادات الناس، بلغكم معاشر العقلاء أنهم عملوا سماعاً قط؟ بلغكم أن أبا بكر الصديق، أو عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان أو علي بن أبي طالب رقصوا في الطابق، أو داروا؟ أم هل بلغكم أن بلالاً الحبشي أو غيره غنى بالكف أو الدف؟ أم هل بلغكم أنه كان فيهم مولهون مكشوفو الرؤوس لهم شغف؟ أم هل بلغكم أنهم كانوا يدورون من قرية إلى قرية بأكياس الحيات، ويتخذون الحوار؟ أم هل بلغكم أنه كان لهم الشخرة والنخرة؟

يا قوم انتبهوا!!، يا قوم اعقلوا!!، يا قوم ارجعوا إلى الله، فإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ ما اتبعتم، وكذلك التابعين ما اتبعتم، لأنه قط ما بلغنا أنهم كانوا يعملون من ذلك شيئاً بل كان طريقهم طريق الصحابة، وعملهم عملهم، وكذلك تابع التابعين ما اتبعتم، لأنهم قط ما بلغنا أنهم عملوا هذه الأشياء، فليت شعري لمن اتبعتم؟ أم بمن اقتديتم؟

لم يظهر بعد محمد ﷺ نبي آخر بشريعة أخرى، كان محمد ﷺ خاتم النبيين، فليت شعري من أين جاءت هذه الشريعة الزائغة؟ ومن الذي أظهرها، ودعا الناس إليها فأضلهم بها؟ يا شؤم حالنا، يا فضيحتنا مع الله تعالى، إن لم يتب علينا، يا سوء حالنا إن لقينا الله تعالى ونحن مصرّون على هذه البدع، يا سواد وجوهنا إن لقينا الله ونحن على هذه الحال.

ومن شرط شيخ الفقراء:

ألا يدخل على الأمراء والظلمة، لينال صدقاتهم ومبراتهم، ولا يأكل طعامهم، فإن الجسم إذا نبت من حرام، فالنار أولى به.

وأن يأمر الفقراء بكتمان الحال والوجد، فقد رأيت من يصرخ في السماع ويرقص ويضطرب كأنه يقول للناس: يا معاشر الناس اعرفوني اعرفوني، فإني ولي الله، وأنا صاحب حال أعطوني أعطوني، يا صبايا، يا صبيان، أنا رجل صالح، واخوني واخوني، تقربوا مني حتى أعطيكم حالي، حتى ينالكم مني نصيب!!.

معاشِر العقلاء !! مثلُ هذا [لا] يَنْطَلِي إِلَّا عَلَى أَحْمَقٍ، قَلِيلِ الْعَقْلِ، جَاهِلٍ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، بَعِيدٍ عَنْ مَعْرِفَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، أَعْمَى عَنْ مَعْرِفَةِ الصَّادِقِينَ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكَاذِبِينَ.

بَعُدْنَا عَنْ اللَّهِ، وَقَلَّتْ عَقُولُنَا حَتَّى صَارَ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْبُغَضَاءِ الْبُعْدَاءِ، إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ، يَدْخُلُونَ مَنَازِلَنَا، وَيَأْكُلُونَ طَعَامَنَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِصَبِيَانِنَا وَنِسَائِنَا، بِحُجَّةٍ: سَيِّدِي فَلَان، وَسَيِّدِي فَلَان، وَسَيِّدِي فَلَان !!.

أَمَا أَنْ لَنَا أَنْ تَضْحَوْ عَقُولُنَا ؟ وَتَنْفَتِحَ عَيْنُونَا، وَنَقْفَ عَلَى زُؤْكَرَةِ هَؤُلَاءِ، وَنَعْلَمَ أَنَّهُمْ مُتَأَكِّلَةٌ يَأْكُلُونَ النَّاسَ، وَيَتَفَرَّجُونَ عَلَى نِسَائِهِمْ وَصَبِيَانِهِمْ؟

حَيِّرَةٌ، يَا سَبْحَانَ اللَّهِ !! قَطُّ مَا سَمِعْنَا طَرِيقَةَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ، الَّذِينَ كَانُوا بَعْدَ الصَّحَابَةِ، وَبَعْدَ التَّابِعِينَ، مِثْلَ: الْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ، وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهْمَ، وَوَهْبِ بْنِ الْوَرْدِ، وَوَهْبِ بْنِ مُتَنِّهِ، وَحَذِيفَةَ الْمَرْعَشِيِّ، وَسَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ، مِثْلَ ذِي الثَّنُونِ الْمَصْرِيِّ، وَشَقِيقِ الْبَلْخِيِّ، وَحَاتِمِ الْأَصَمِّ، وَسَهْلِ التُّسْتَرِيِّ، وَمَعْرُوفِ الْكَزْخِيِّ، وَسَرِيِّ السَّقَطِيِّ، وَأَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ، قَطُّ - يَا مُسْلِمُونَ - عَمِلُوا هَذِهِ الْأَعْمَالِ، أَمْ قَطُّ اتَّصَفُوا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ. كَانُوا قَوْمًا مُسْتَوْرِينَ صَادِقِينَ مَعَ رَبِّهِمْ، يَحْتَقِرُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَيَخَافُونَ رَبَّهُمْ، وَيَغْضُونَ أَبْصَارَهُمْ، وَيَسْتَمْعُونَ إِلَى الْقُرْآنِ هُوَ سَمَاعُهُمْ، شَغْلُهُمُ الصِّيَامُ وَالْقِيَامُ، وَالذِّكْرُ عَلَى الدَّوَامِ، وَالْخَوْفُ الْمَحْرَقُ لِلْأَكْبَادِ، يَنْتَظِرُونَ الْآخِرَةَ وَالْقُدُومَ عَلَى اللَّهِ، قَدْ تَهَيَّأُوا لِلْمَوْتِ وَالْقَبْرِ وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ، يَخَافُونَ النَّارَ، وَيَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ، مُتَّبِعِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَءُونَ كِتَابَ رَبِّهِمْ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِمْ، مُشْتَغِلِينَ بِالصَّدَقِ مَعَ مَوْلَاهُمْ.

معاشِر العقلاء !! أَفَلَا تَنْتَبِهُونَ وَتَسْتَيْقِظُونَ ؟ أَفَكَانَ هَؤُلَاءِ يَشْبَهُونَ هَؤُلَاءِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ ؟ كَلَّا وَاللَّهِ، ثُمَّ وَاللَّهِ لَقَدْ ضَلَّ هَؤُلَاءِ الزُّوَكَرُ ضَلَالًا بَعِيدًا، وَتَاهُوا فِي تَبَةِ الضَّلَالِ وَالْإِنْحِرَافِ، بَعُدُوا عَنِ اللَّهِ وَعَنْ أَمْرِهِ، وَعَنِ الْمَرْوَةِ، فَيَا لَيْتَهُمْ يَأْكُلُونَ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ، بَلْ يَأْكُلُونَهَا بِالْمَحَالِ وَالزُّؤْكَرَةِ، يَسْتَخْفُونَ الْعَامَّةَ وَالْجُهَالَ وَالنِّسَاءَ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الرَّحُوفُ: 54] فَعَلَيْكُمْ

معاشر العقلاء بمجانبة هؤلاء، والبعد عنهم، والمقت لهم، فإنهم ممقوتون، يَمَقَّتْهم الله من فوق عَرْشِهِ لمخالفتهم أمره وارتكابهم نهيه.

واعلموا أن إيمانهم ليس بطائل، لغلبة النفاق على قلوبهم، أشهد بالله الذي لا إله إلا هو، لو رآهم رسول الله ﷺ أو أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، أو أمراء الصحابة، أو أمراء بني أمية، وهم على هذه الحال، قوم مكشَّفَةٌ رؤوسُهُم، يَزِيدُونَ وَيَشْخَرُونَ، وَيَتَّقِرُونَ الصلاة إذا صلوا، ويَهْرُبُونَ من القرآن إذا سمعوه، فإذا دخلوا في السماع طَرَبُوا وَرَقَصُوا يوماً إلى الليل، معهم أكياس الحيات، يُخرجون للناس اللاذن والزعفران، ويؤاخون النسوان والمردان، ويأكلون الحرام - أي شيء جاءهم أكلوه - لا يقولون: هذا حلال، ولا هذا حرام، هَمَّتْهم بطونهم، أو مليح أو مليحة، يَحْتَقُونَ عليهم، فَهُمْ عبيدُ بطونهم وفروجهم، يرقصون ويأكلون ويشاهدون وينامون، ويدَّعُونَ أنهم أهل القطع والوصل والتصرف، وأنهم أولياء الله. كَذَبُوا على الله، وابتدعوا في دين الله ما لم يأذن به الله، أشهد بالله لو رأوهم على هذه الحال لدَعَوْهم إلى الله، فلو امتنعوا لجاهدوهم بالسيوف، لأنهم ظَهَرُوا بشعارٍ مُخَدَّتٍ مبتدع، لم يَنْزَلْ من السماء على رسول الله ﷺ.

وفي بعض هذا الوصف كفاية، ومن لم يكفه هذا من الكلام لا ينفعه التطويل، ومُصَيِّفُ هذه الأحرف أعرف الناس بهم، قال: كَانَ أَبُوهُ مِنْ بَعْضِ شُيُوخِهِمْ، وَرَبِّي بَيْنَهُمْ، ثُمَّ أَنْقَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَرَمِهِ مِنْهُمْ، إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ، فَهُوَ الْمَحْمُودُ الْمَشْكُورُ عَلَى ذَلِكَ.

فصل

معاشر الإخوان !! اجْتَنِبُوا هذا الصِّنْفَ من الناس، فإنهم دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، وعليكم بِصُحْبَةِ المشايخ والفقراء أهل الطريق، الذين يعرفون دين الله، وطريقة رسوله ﷺ، ومنهاج أولياء الله، الذين يعرفون تفاصيل الأمر والنهي، ويفهمون عن الله كلامه، ويستمعون إليه في أمره ونهيه، ووَعْدِهِ ووَعِيدِهِ، وَقَصَصِهِ وأخباره،

وَيُكَاشِفُونَ فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَى الصِّفَاتِ الْمُقَدَّسَةِ مِنَ الْهَيْبَةِ وَالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَالْفَضْلِ وَالْأَنْعَامِ، الَّذِينَ يَدْعُونَ الْخَلْقَ إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ ﷻ وَالْقَرَبِ مِنْهُ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالتَّعْوِيزِ إِلَيْهِ، وَاتِّبَاعِ السَّنَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَالسَّنَنِ وَالْآدَابِ، تَكْتَسِبُونَ بِصَحْبَتِهِمُ الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ ﷻ وَالرَّجَاءَ وَالْمَحَبَّةَ لَهُ وَالْمَحَبَّةَ لِدِينِهِ، فَتَمْتَلِئُ قُلُوبُكُمْ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ وَمَهَابَتِهِ، وَالْحَيَاءَ مِنْهُ، وَالْخَشْيَةَ لَهُ، أُولَئِكَ الْمَشَائِخُ وَالْفُقَرَاءُ، هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَحُجَّتُهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَمْنَاؤُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، يَدْعُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالْقَرَبِ مِنْهُ، فَتَفْلَحُوا بِصَحْبَتِهِمْ كُلُّ الْفَلَاحِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وَتَتَّصِلُ ظَوَاهِرُكُمْ بِسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ اتِّصَالاً لَا انفصالَ لَهُ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْفَقْرِ إِذَا سَأَلَكُمْ سَائِلٌ مَا الْفَقْرُ؟ فَقُولُوا لَهُ: اتِّصَالُ الظَّاهِرِ بِالسُّنَّةِ اتِّصَالاً لَا انفصالَ لَهُ، وَاتِّصَالُ الْقَلْبِ بِاللَّهِ ﷻ اتِّصَالاً لَا انفصالَ لَهُ.

وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ أَلَا يَجْعَلُنَا مِمَّنْ يَكْذِبُ عِلْمَهُ عَمَلُهُ، وَيَخَالَفُ قَوْلُهُ فِعْلُهُ، قَالَ تَعَالَى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:3] وَأَنْ يَوْفِقَنَا وَإِيَّاكُمْ إِلَى الْمَحَبَّةِ الْبِيضَاءِ، إِنَّهُ قَيُّومُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

فصل

وَمِنْ عَلَامَاتِ صِحَّةِ طَرِيقَةِ شَيْخِ الْفُقَرَاءِ:
أَنْ يَكُونَ خَاشِعاً فِي صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ، يَكْمُلُ هُوَ أَصْحَابُهُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ،
وَيَجِدُ هُوَ أَصْحَابُهُ لَذَّةَ الصَّلَاةِ وَالتَّعْنَمَ بِهَا.
وَأَنْ يَجِدَ لَذَّةَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ.

وَأَنْ يَحْبُوا الْفُقَهَاءَ وَيَجَالِسُوهُمْ وَيَسْأَلُوهُمْ عَنْ أُمُورِ دِينِهِمْ.
وَأَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّ الْحَقِيقَةَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ، وَكُلُّ حَقِيقَةٍ لَا تَوَافِقُ الشَّرِيعَةَ فَهِيَ زَنْدَقَةٌ، وَكُلُّ مَنْ ادَّعَى أَنَّ الْحَقِيقَةَ شَيْءٌ، وَالشَّرِيعَةُ شَيْءٌ، وَأَنْ صَاحِبَ الْحَقِيقَةِ قَدْ صَارَ حُرّاً، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى الشَّرِيعَةِ وَلَا إِلَى الْعِبُودِيَّةِ، فَهُوَ زَنْدِيقٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ يَجِبُ أَنْ يُسْتَتَابَ كَمَا يُسْتَتَابُ الْمُرْتَدُّ فَإِنْ تَابَ، وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.
وَأَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ أَوْرَعَ النَّاسِ، وَكُلُّ مَنْ ادَّعَى أَنَّ صَاحِبَ الْحَالِ لَا يَضُرُّهُ

الحرام، فهو مبتدع ضالّ، فلا حال أكمل من حال الصديق ﷺ شرب لبناً ثمّ سأل عن أصله فلم يرضه، فقام وتقيّاه، وأكل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما لحمَ جُزُورِ جَزَرَه الجزار بعشر منه، ولم يعلماه فقاما فتقيّاه، رواه ابن اسحق في السيرة، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ رأى في فَمِ الحَسَن أو الحُسَيْن تمرّاً من تمر الصدقة وهما دون البلوغ فأخرجها من فَمِ أحدهما، فقال: (كخ كخ، إن الصدقة لا تحلّ لمحمد، ولا لآل محمد) فإذا كان مثل هؤلاء الكُمل يضرُّهم الحرام والشبهة، فما ظنك بأهل الدعوى والنقص؟

أعاذنا الله من سيئات الإجماع، وموبقات الآثام، وحققنا بالسنة واتباعها مدي الأيام، والحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مفتاحُ المعرفةِ والعبادةِ
لأهلِ الطَّلبِ والإرادةِ
الراغبينَ في الدخولِ إلى دارِ السعادةِ
من الطريقةِ المحمديةِ
التي ليستُ منحرفةً عن الجادةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي فتح من قلوب مريديه مغالق أفعالها، وحدا بها إلى حضرات قدسه من علائقها وأغلالها، وجمع في الملاء الأعلى بين أرواحها وأرواح أشكالها، وقَدَس عزائمها عن الشوائب القادحة، وزكى بالقبول جميع أعمالها، وخلع عليها هنالك من خلج الأسماء العلية والصفات المقدسة الجلالية خللاً بهيئة، فهم يَزْفُلُونَ في أذيالها، أولئك قوم اختصهم الله برحمته، وسقاهم بكأس محبته، من أنهار الاجتباء، وعيون الاصطناع، رائق الأشربة وعذب زلالها، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كما شهد بالوحدانية لنفسه، وأولو العلم من خلقه، ونشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله، أرسله لهذه الأمة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تكون لصاحبها يوم العرض والنشور برهاناً ونوراً، وبعد:

فإن الموجب لتعليق هذه الكلمات هو ما أودع الله تعالى في قلبي من المودة والرحمة والشفقة لإخوان التجريد، أهل التحلي والانفراد لطلب التوحيد، الذين قطعوا العلائق، وانفردوا عن الخلائق، وطلبوا الحقائق بالجهد الجهيد. هجروا الأوطان وفارقوا الإخوان، تجرّعوا مرارات الفاقات، وكابدوا مضض التقطع في طلب الله سبحانه بالمجاهدات والرياضات، واستبدلوا من العز ذلاً، ومن الغنى فقراً. درسوا أنسابهم في الله، وطمسوا فيه أحسابهم، وفارقوا في حبه أترابهم بقلوب لها بنار الوجد زفير، وأكباد بها لفحات الشوق كحر الهجير، تحركهم هبوب الرياح في الأصائل، ينبعثون إذا أظلم عليهم الدجى بالأحزان والبلايل، يقول قائلهم:

أموت وما مئت إليك صبابتي ولا قضيت من فرط حبك أوطاري
وقال:

قوم همومهم بالله قد علقث فمالهم هممة تسمو إلى أحد

فمطلبُ القوم مولاَهُم وسيدُهُم يا حُسْنَ مطلبِهِم للواحد الصمدِ
وما إن تنازعَهُم دنيا ولا شرف من المطاعِ والذاتِ والولدِ
بلبلتْ قلوبَهُم بلابلُ الأحزانِ، وطرقَها طارقُ الفقرِ والأشجانِ، إنْ هَبَّتْ مِنْ
الغُورِ نسمةٌ تمرُّ على أسرارِهِم من شدي الحبِّ، لسانُ حالِهِم فيما يجدون،
وعبادتَهُم عما يستجنُّ في سِرِّهِم الكنونَ.
إذا غَبَتْ عن عيني تملأُ بكِ الفِكْرُ وإنْ لم يزرني الطيفُ طافَ بكِ السِّرُّ
وكلِّي لسانَ عن هواكِ مخبِرٌ وكلِّي قلبَ أنتَ في طيِّهِ نَشْرُ
برَقَّتْ على قلوبِهِم بوارِقُ المطلوبِ، وتدلَّتْ عليها لوامعُ من سِرِّ الغيوبِ،
فأصبحوا بها هائمين، وفي ابتداء الطلبِ تائِهين، والله لو حلف العشاق أنهم سكرى
من الوجد يوم البتِّ ما حثثوا.

ومن العجبِ العجيبِ أنَّ أحداً منهم لا يدري ما به، وما السببُ لهيمانه، وما
الوجه الذي إذا أمَّه وتوجَّه إليه ظَفَرَ بِمَرامِهِ، فمنهم من تَقَطَّعَهُ السِياحاتُ، وتَنَزَّلُ به
في أسفاره نوازلُ الفاقاتِ، ومنهم مَنْ يُعانيُ الجوعَ والضرَّ والزهدَ والتَقشُّفَ والفقرَ.
غرباء بين الخلقِ، يظنُّ الناسُ أنْ بهم جُنوناً وليسوا بمجانينَ، غيرَ أنَّ الطلبَ استولى
على عُقولِهِم فهَيَّمَها، وبَلَّبلَ أسرارَها وأزعجَها، وهم مع ذلك يشتاقونَ إلى لقاءِ دليلِ
ناصحٍ، يدلُّهِم على نهجِ السبيلِ، عساهم يَظفرونَ بما عليه يهمونَ، وإيَّاه يُؤمِّلونَ،
فمن أرادَ اللهُ به خيراً ألقاهُ على دليلِ ناصحٍ مُتَّبِعٍ لآثارِ الرسولِ ﷺ، على المنهجِ
الواضحِ، يعرفُ أمراضَهُم وعللَهُم، وترحِّمُهم ومضضَهُم، فيحضنُهُم كما تحضنُ
الطير ولدها، ويُرضعُهُم من لبانِ المعرفة ما يبرد به من قلوبِهِم لهبها، ويسدُّ بأقواتِ
المعارفِ فاقاتَهُم، ويروي بمياهِ الوصولِ ظمأَ أكبادِهِم، فهم جياعٌ بغيرِ المعرفة لا
يشبعون، عطاشٌ بغيرِ مياهِ الوصولِ لا يروون، أذلاء بغيرِ مقاعدِ الصدق لا يعتزُّون،
فما ليس بغيرِ كنوزِ التقريب لا يستغنون، هذا شأنُهُم وهم الغرباء، وطوبى للغرباء.
ومن أرادَ اللهُ امتحانَهُ منهم حجبَهُ عن الدليلِ، وطوَّلَ عليه الطريقَ، حكمةً بالغةً منه

في حقه، يُمَحِّصُ بذلك أدناسهم، ويمحو به بقاياهم وأدرانهم. وفي هذه الأزمنة، في رأس السبعمئة من الهجرة النبوية، والزمان الذي عزّ فيه الأدلاء الناصحون، وكثرت فيه الأكاذيب والمدعون، واستعلن مذهب الوحدة والاتحاد بدعواهم أنهم سبل الهدى والرشاد والصادقون، يلتزمون الخلوة والأذكار، والتقلل والانتظار، فمنهم من ينتهي في سلوكه إلى مجرد فناء في الذكر، وهمود خواطره في السرّ بلا فرقان يلوح بينه، يتبعها شاهد من شواهد الفتوح، فتراه جامد الظاهر، غايته فناء الخواطر، وربما فرحت نفسه بواقعة وجدها أو رؤيا صالحة قنع بها وضبطها، وفي الناقدين من أهل زماننا مَنْ يَرِدُّ عليه حالٌ يصطلمه، تعجزُ عبارته عن تمييزه، وتكلُّ بصيرته عن تحديده وتقديره، لا يَعْرِفُ العبادة ولا المعبود، إلا أنه مستغرق في مجمل الشهود، ولا شعور له بالصفات التي على صاحبها بالمعرفة الصحيحة تعود، فتراه أجنبياً عن السنة والقرآن، فهو عنهما معرض حيران، يتغيّر ذوقه عند القراءة، ويهزُّب من مجالس الحديث والإفادة كأنه في طريق مغايرة لطريق الدين، كأنه ليس من جملة المسلمين. وصاحب الذوق الصحيح إذا سمع القرآن طرب إليه، واتصل القرآن بذوقه اتصال الصفة بالموصوف، والكلام بالمتكلم المعروف.

وكذلك إذا سمع الحديث، يُجيب قلبه لدواعي ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] ويظهر هذا أن الأذواق المجملة غير المفصلة - وهو التأله البسيط - يشترك فيه متعبّدو أهل جميع الملل، من اليهود والنصارى والصابئين، إذ القدر المشترك بينهم مطلق التأله، وهذا حال لا يُغني شيئاً حتى يتفصل على التفاصيل الإسلامية، فيعرف الله تعالى من التفاصيل التي تعرّف إلينا بها من نعوته التامات، وصفاته الكاملات. وفيهم من يجعل القرآن والسنة علماً ظاهراً، والسلوك إلى الله تعالى من أحوال السرائر.

ومنهم مَنْ يَسْكُرُهُ لائِحَةُ من التوحيد، فيغرقُ في بحرِ القدرِ والتفريد، فيغيبُ بفعلِ الخالقِ عن فعلِ المخلوقِ، وَيَشْكُرُ بعلمِ كلماتِ التكوينِ عن علمِ كلماتِ التكليفِ، فيبقى غائباً عن الأوامرِ والنواهي، يَتَطَلَّعُ إلى صِرْفِ القدرِ المحضِ من جميعِ النواحي، وأنى تروي هذه الأشياءُ غليلاً أو تشفي بالمحبةِ الصادقةِ عليلاً، فالصادق في ابتدائه، في أوانِ غَلَبَاتِ وجده كالعَطِشَانِ كلما رأى سراباً مَالِ إليه، وحامَ نحوَه وعليه، فإن وقعَ في كَفَّةِ هؤلاء الأقسامِ المذكورين طالبِ صحيحِ الطلبِ بحيث يُلْقُونَهُ في لفيهم وَيَحْشُرُونَهُ في مضيقهم، وكان غرّاً جاهلاً بمتاهاتِ الطريقِ قد يسلُكُ معهم برهةً من الزمانِ حتى يصلَ إلى غايةِ أمدِهِم أو منتهى حُدُودِهِم ومددِهِم، فيظهرُ حينئذٍ أنه ليسَ على تحقيقٍ، فإنه تائهٌ عن الطريقِ، فيتعبُ بهم ذهراً طويلاً، ويشقى بسببهم شقاءً بعيداً، خصوصاً إذا أذابوا مهجته بالرياضاتِ، وطرحوه في مسالكِ التجوُّعِ والفاقاتِ، فتضعُفُ بذلك قواه البدنية، وتتغيرُ لطيفته الذهنية، فتروح حدته ونشاطه معهم، ويضيع عنفوان شبيبته في طريق انحرافهم، حتى تصل إلى غاياتهم، فيرى ما هم فيه سراباً يحسبه الظمانُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وقليل من السالكين يقف على عورهم، بل الغالب منهم ينقطعون معهم حيث انقطعوا، ويقفون في متاهاتهم متحيرين حيث وقفوا، ولا يقف على عورهم عند انتهاء سلوكه معهم إلا الصادقون لأن الصادق لاحت له لوائح صادقة ولوامع صحيحة راقية.

والبارقة وإن كانت شُعلةً من وقود وقَبَساً لطيفاً من الأمرِ الكُلِّي الموجود، فإنها دالةٌ على ما وراءها من الكمالاتِ، وهي أنموذجٌ صغيرٌ من ذلك الأمرِ الكبير، فإذا أداه السلوك السقيم والطريقُ الذي هو ليس بمستقيم إلى غاياته ومنتهى أمدِهِ، عَرَفَ بما عنده من البوارقِ الصحيحةِ أنه على غيرِ طريق، وأنَّ بلوغَه ليس ببلوغِ أهلِ التحقيق، ثمَّ غالبُ المصنِّفينَ لِكُتُبِ الرقائقِ تجدُهم يَصِفُونَ الطريقَ من الابتداءِ إلى الانتهاءِ، ومنَ التوبةِ إلى الفناءِ والبقاءِ، ولا يُبَيِّنُونَ الأمرَ الذي به يَتِمُّ السيرُ والسلوكُ، ولا يُبَيِّنُونَ على الأمرِ الذي تتدرجُ هذه المقاماتُ فيه تدريجاً تنبيهاً تمتحى مَعَهُ

الشكوك، ففيهم مَنْ أشار إلى مجرّد الذكر البسيط أو المركب مع الخلوة والتقلّل، وذلك يُعطي حالاً مجملاً لا تميّز شرعيّ فيه، فيبقى بينه وبين ذائقي أهل الملل قدراً مشتركاً، غير أنه يُصدّق بصاحب الشريعة، وهم به مكذبون، والقدّر الجامع بينهم مطلق التّأله كما ذكر أولاً.

ومنهم مَنْ أشار إلى العبادة والتلاوة بالتدبّر، وإنما ينفذ في التلاوة حقيقة النفوذ الموصّل إلى المطلوب مَنْ عرّف المقدمات التي هي بمثابة الأساس للبيان من معرفة الأيام النبوية والسّير الصحابية، وكيف كان ابتداء الإسلام، وطلوع شمسهِ، وبزوغ قمرهِ، وكيف نبع غُصن الإيمان وأينق، وسَطَعَ نورُهُ وأشرق، فمن عرّف ذلك وتحقّق بمعرفة الرسول ﷺ، وعرف دلائل نبوته وقام برهان ذلك في سِرّه حتى صار علّمه بذلك ضرورياً، ثم عرّف نبوة الأنبياء من قبله بوقوفه على قصصهم المطابقة لما نطق به الكتاب العزيز والسنة المأثورة، وذاق طعم الإيمان بصدقهم، ثم وَجَدَ في ذوقه ووجدّه أن الذي جاء به هذا النبي الخاتم للنبوة، وما جاءت به الرُّسل والأنبياء من قبله هو من عين واحدة، ونورهم جميعاً من مشكاة الربوبية، فدينهم واحد وشرائعهم مختلفة، والرّبّ الذي يدعون إليه إله واحد، ثم وَجَدَ نفْسَ الرحمن، وذوقَ الحقّ ظاهراً في جميع مللهم وشرائعهم بذوقه الصحيح وكشفه البين المنير انتفع حينئذ بالتلاوة حقيقة الانتفاع، وصارت طريقاً للطالب يوقعه على مطلوبه، وسبيلاً يوصل المحب إلى معرفة محبوبه، ومع ذلك لا بد من شيخ يريك شخصها أو صاحب ذائق ينبهك على رموزها.

وفي الجملة فالكتاب لا يستغني عن السنة في البيان، والسنة لا تستغني عن الكتاب، كلاهما من الله تعالى، وكلّ منهما يبيّن الآخر ويوضحه، ويدلّ على حقائقه، فلما وجدت الطالبين في زماني على هذا المنهج سائرين قد قطعتهم الإرادات وجحفت بهم الانحرافات استخرتُ الله تعالى في تعليق كلمات موجزات تكون للطالب الصادق أنموذجاً يستدل بها على ما وراءها من حقائق المطالب العلية العالية، وتُرشده إلى سبيل الصادقين من أمة هذا النبي الكريم ﷺ، أهل المشاهد الكاملة، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فيحبها الله تعالى على علمٍ قطع

بصحته، وأرجو من كَرَمِ الله تعالى أن يُحَقِّقَهَا لي حالاً اتصف بها بين أهل ولايته، فالناطقون عن علم لَهُم مرتبةُ الإخبار من علم اليقين، والواجدون لَهُم مرتبةُ التحقيق من عين اليقين، ويجب البيانُ كيلا يلتبس المتكلمُ بالعلم بالمتكلم بالحال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الأول

في المبادئ

إذا أراد الله بعبد خيراً أيقظه من سِنَةِ الغفلة للتخلص من مُوبقات الآثام والوَزْطَةِ، فأولُ ذلك عند ظهورِ الإنابة [و]الرجوعِ إلى الله تَرُدُّ على العبدِ جَذَبَاتِ تَجَذُّبِ قَلْبِهِ وهو في غمارِ الغفلةِ تتلاطمُ عليه فيه أمواجُ الطبيعة والهوى، ويستبينُ له الرشدُ والهدى على قدرِ استمرارِ تلكِ الجذبات التي تجذبُ قلبه من عوالمه الأرضية إلى مقرِّ رَوْحِهِ، فيشرقُ له في ذلك الحالِ بنورِ عقله ضياءُ الطريق، ثم تعودُ عليه عوالمه الأرضية، فيبقى متحيراً في ظلماتِها، فمنهم مَنْ يتعاطى في تلكِ الظلمةِ ما يتقاضاه الطبعُ والهوى إلا أن يَعِصِمَهُ الله تعالى، فلا يزالُ كذلك صاعداً مرةً إلى أَوْجِهِ، وتارةً أخرى إلى حَضِيضِهِ، فيكونُ في أولِ الأمرِ أوقات صعوده نادراً، ثم تتوالى عليه الجذباتُ إلى أن يبقى الصعودُ والنزولُ متساويين، ثم تغلبُ أوقاتُ الصعودِ على أوقاتِ النزولِ، ثم تبدأُ أوقاتُ النزولِ، كما كانت أولاً أوقات الصعودِ نادرة، فهو بينَ ظهورِ القلبِ والروحِ هما أَوْجَاهُ الذي تُصعده الجذبة إلى مقرِّهما العلوي، والطبعُ يحطُّه عن أَوْجِهِ إلى حَضِيضِهِ الذي هو مركزُ النفس والشهواتِ والحظوظِ الدنيوية، فصاحبُ القلبِ الذي أغلبُ أوقاته يظهر عليه حكم القلب، إذا سقطَ على أرض طبيعته وصاحب الروح أغلبُ أوقاته يظهر عليه أحكام الروح إذا سقطَ وقع على القلب، فيكون محفوظاً بنور قلبه، وقد يسقط في بعض الأحيان على طبعه، لكن يكون ذلك نادراً، وَمَنْ وَقَعَ على طبعه فحكمه ضبط نفسه عن أن ينصرف بحكم نفسه طبعه إذ لا يبقى معه نور يحرسه ويتغذى به.

الفصل الثاني

في الأمور التي يعتني بها صاحب هذا الحال

لا شك أن من هذا شأنه يكون غالباً تارةً، ومغلوباً أخرى، تارةً يقهرُ جند القلب والروح، فتكون كلمة الله العليا على باطن الشخص وظاهره، وتارةً يغلبُ جند النفس والهوى والشيطان، فتكون الشهوات والإرادات النفسانية حاکمةً على الشخص، غالبةً عليه، فهو في كلّ وقتٍ في حربٍ وجهادٍ، تردُّ عليه في كلّ يومٍ من العوارض المحمودّة والمذمومة، من ظاهره وباطنه من الخلائق أمورٍ متعارضة متقابلة، ومثل هذا لا بدّ أن يُبتلى بقواطع وموانع ليُمْتَحَن صبره فيها.

وقد جعل في الكون جنوداً تتقوى بها جنود القلب والروح، وجنوداً تمدح الطبع والهوى والشيطان من الجنّ والإنس، فالعلماء والصالحون والأولياء والمقربون والعبادات والقربات والدعاء والالتجاء جنودٌ تمدح القلب والروح، والباطلون والغافلون، وتعاطي الشهوة والغفلة عن الله تعالى يتركب منها جنودٌ يتقوى بها جنود الطبع والهوى، ولا بدّ أن تعرض له فتنٌ كقطع الليل المظلم، وتدعوه الشياطين إلى طرق الضلالات وسبيل المتهاتات، فليستعن بالله، ويكثر الدعاء والتضرع والابتهاال في طلب النصره منه، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾، وقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾.

ثم أنفع ماله الاشتغال بمواد تقوي جنود قلبه وتسهل له سبيل رشدّه لتغلب جنود الرحمن جند الشيطان، وتبقى كلمة الله هي العليا، وتفتح عكا النفس، وطرابلس الهوى، وتكسر الصلبان، ويوحد الرحمن وتندلى على القلب أسباب الهدى، وتفتح مغالق المطالب التي إليها المنتهى كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُتُونِ﴾ [النجم: 42]، وأهم ما له بعد القيام بالأوامر واجتناب النواهي رعاية الجوارح عن المحرمات والمكروهات، والتخلص من قضاء الصلوات الفاتئات والحقوق الواجبات، فيما بينه وبين الله تعالى، وبين الخلق حتى لا يبقى قلبه مظلماً، ولزوم المحاسبة يحاسب النفس على كل قول يقوله، أو عمل يعملّه، فلا يعمل شيئاً

إلا لله ﷻ، مثلاً: لا يتكلم إلا لله، ولا يتحرك إلا لله، يُقدم النية الصالحة على كل عملٍ من أعماله، وأي حركة أو عمل خلث من نية صالحة استغفر الله منها، ولزوم المراقبة على الهموم والإرادات، فلا يهمل إلا بخير، ولا ينوي إلا خيراً، فإن الهموم مقدمات الأعمال، فمتى صلحت الهموم صلحت الأعمال، ومتى فسدت، فسدت الأعمال، ويراقب نظر الله تعالى إلى قلبه ويستشعر علمه به وقيامه عليه، كما قال تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: 61]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المُلْك: 13] فيراقب علم الله تعالى في سويداء قلبه، فيتقيه ويخشاه في ضميره، فهذا كله مُهمٌ وقته وواجبٌ حاله لا غنى له عنه البتة ولا يستقيم إلا به، ولا ينفذ إلا به، فإن باستعمال ذلك تذوب طبيعة النفس، ويضعف الشيطان وتقوى جنود القلب والروح بالمحبة والعرفان.

فأهم ما له مع ذلك الإعتناء بعلم الحديث والسير النبوية، والأيام الصحابية كالسيرة لابن إسحاق، والواقدي وغيرهما، والصحاح الستة، والاعتناء بالمرور عليها، ويطالع المسانيد الكبار كمسند الإمام أحمد بن حنبل وعبدالله بن حميد وغيرهما، ويطالع كتب دلائل النبوة كدلائل النبوة للبيهقي ولأبي نعيم الأصفهاني، والقاضي عياض المغربي، وشرف المصطفى لابن الجوزي وغير ذلك، ومطالعة قصص الأنبياء كالمبتدي الذي للكسائي أو غيره، فيعرف كيف بعثت الأنبياء وكيف عالجوا الكفار، فيعرف من السيرة بعثة النبي ﷺ، ويتحقق بقلبه أنه بُعث كما بعثوا، وأن الذي جاءوا به جميعاً من مشكاة واحدة، وكذلك يعتني بعلم أيام الصحابة كالطبقات لابن سعد، والاستيعاب لابن عبدالبر، وعلم أسباب النزول، وعلم التفسير والتأويل للقرآن بعد معرفة محمد ﷺ وواجبات الوضوء والصلاة وشرائطهما، وعلم واجبات ما تخصه من الأمور التي يتلى بها دون أمر العامة إلا إن يستعد له ويتسع لتحصيله مع حفظ مهمات حاله وواجبات وقته.

ولا بدّ من شيخ نافذٍ إلى الله يعرف الله تعالى من طريقة الرسول ﷺ، يكون علمه خالصاً عن شوب العلوم الفاسدة المنحرفة، قد ارتضع من لبان الرسول ﷺ، وتضلع من رضاعه، فيأخذ عنه مقاصد الكتاب والسنة بلا تأويل ولا تحريف، فإن رزق مثل هذا الشيخ فهو من الطاف الله، وذلك من جملة التوفيق.

الفصل الثالث

في بيان المطلوب حقيقةً هو في الكتاب

والسنة دون غيرهما من الأشياء والطرق

اعلم أن الله سبحانه وتعالى أكمل هذا الدين، ولم يجعله معوزاً فيتمّم من غيره، كما يعملُه أهل هذا الزمان، يجعلون الكتاب والسنة علماً ظاهراً يستعملونه في ظواهر العبادات والمعاملات والعادات، فإذا طلبوا معرفة الله والنفوذ إليه، والوصول إلى الحقائق والأسرار الإلهية صرّفوا وجوههم عن الكتاب والسنة، وطلبوا ذلك من علوم الصوفية والفقراء، ومن الرياضة والتجوع والعزلة والانفراد، أو من قطع الأسباب والتجرد عما لا بدّ منه، فيفتح لهم أمرٌ مجملٌ لا تفصيل فيه كما ذكر أولاً.

فمن جعل علم الصوفية قبلة قلبه أعطته حالاً مُجَمَّلاً لا تفصيل فيه، ومن جعلها طريقاً إلى أن يستنبط بها من الكتاب والسنة الحقائق التي أشارت علوم الطائفة إليها فقد وُفّق وهُدِيَ إلى طريقٍ مستقيم، وإنما الطريقة الكاملة الجامعة المستقيمة التي لا زيغ فيها ولا انحراف أن تطلب معرفة الله من حيث تعرّف إلينا من أسمائه العلية وصفاته الجلالية والجمالية التي نطق الكتاب العزيز بها، ونص الرسول ﷺ عليها من أخبار الصفات وآياتها، التي يدلُّ كل خبر منها على سرٍّ عظيم من أسرار المعرفة، وشأنٍ كبيرٍ من شؤون العظمة، يفتح به على الطالبين أبواب المعارف وتُحَفُّ اللطائف، عرّف ذلك من عرفه، وجهله من جهله.

والسرُّ في إظهارها لنا وخطابنا بها هو أن نعرّف الموصوف بها فنعبدته ونتوكل عليه ونتألّه، ونشتاق إليه ونراقبه، ونعظم حُرُماته، فيكون لقلوبنا بالمرصاد، فبعض الناس يتخذ آيات الصفات وأخبارها من قبل الحروف والمتشابه الذي لا يعلم

تأويله إلا الله، وحقيقة لا يعلم تأويل آيات الصفات وأخبارها إلا الله، لكن ما الحكمة في خطابنا بها، وإظهارها لنا ؟ فما هو إلا لنذوق منها أذواق المعارف، ونحب الموصوف بها صاحب المكرمات واللطائف، وننفي عنها التمثيل والتكييف والتأويل والتحريف، فمن المحال أن يُبين الله تعالى في كتابه العزيز، وفي سنة رسوله ﷺ كل شيء، كما ورد: (عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ)، ويترك شؤون المعرفة، وطريق الوصول إلى الله تعالى مبهمة، فنفتقر إلى المعرفة بها إلى علم آخر غير الكتاب والسنة، بل ذلك في الكتاب والسنة، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله.

ثم اعلّم أن الله تعالى تعرّف إلينا، وأعلّمنا بأنه فوق عرشه، وفوق سبع سمواته في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:5]، وبقوله ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:50]، وبقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:10]، وبقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:1] وبقوله {وهو القاهر فوق عباده} وبقوله {أأمنتم من في السماء} وبقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَافِعُكَ إِلَىٰ﴾ [آل عمران:55]، وقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:158]، وقوله حكاية عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُمَنَّ ابْنُ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ ، وهذا يدل على أن موسى عليه السلام أخبره بأن إلهه فوق السموات، ولأجل ذلك قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:36-37].

فمجموع ذلك، ومعراج النبي ﷺ من سماء إلى سماء، إلى أن أوحى إليه ما أوحى دلائل قطعية، وعلوم ضرورية بأن ربنا سبحانه فوق عرشه وفوق سبع سمواته، وفوق الأشياء كلها منتزعة عن الدخول في خلقه، ووجوده سبحانه بائن عن وجود خلقه، منفرد بنفسه وبجميع صفاته عن خلقه، وفوقيته سبحانه فوقية مختصة به، لا كفوقية الجسم المخلوق على الجسم المخلوق المحصور المحدود، تعالى

الله عن ذلك، فإنَّ العرشَ المجيدَ لا يُقَلُّه ولا يُحيطُ به، وهو الحاملُ للعرشِ، المحيطُ به، فعلُوهُ وفوقيُّه واستواؤه مختصةٌ بهِ صفاتٌ تليقُ به، منزّه عن صفاتِ الحدَث، كما أنَّ سمعَه العظيمَ منزّه عن سَمْعِ المخلوق، وبصرُه العظيمُ منزّه أن يكونَ كبصرِ المخلوق، وعِلْمُه منزّه عن أن يكونَ كعلمِ المخلوق، فكذلك علُوهُ واستواؤه منزّه أن يكونَ كعلوِّ المخلوق واستوائه، فافهم ذلك، وأثبت الصفةَ ونزّه الموصوفَ عن صفاتِ الحدَث، وقوله تعالى: ﴿أَمْنَمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ [المُلْك: 16]، أي: مَنْ على السماءِ كما قال تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: 2]، أي: على الأرض، وقوله: ﴿وَلَأُصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: 71]، أي: على جذوع النخل، فهذه مسألةُ العرشِ، فافهمها وحققها تفزُّ بالكنزِ الأكبر، والسرِّ الأعظم.

الفصل الرابع

في أن مسألة العرش أصلٌ من أصول السالكين

لا يستقيم أمرهم إلا بها، ولا ينفذون إلى دينهم إلا بمعرفتها

وتحقيقها.

اعلم وفقك الله أنَّ مسألة العرش أصلٌ من أصول السالكين، هي مبدأ المعارف الإلهية، والأذواق الوجدية، هي نقطة أمرهم، ومركز دائرتهم، عليها تنشأ قواعدهم، وأكثر من انحراف عن التحقيق فلجهله بها، فمعظم من لقيته من السالكين والطلالين وجدُّتهم ليس لقلوبهم قبلةٌ تتوجّه إليها، لكونهم لا يُحقِّقون أن ربَّهم فوق كلِّ شيء بائنٌ من خلقه، فهم حائرون فيه، فمنهم من يعتقد أنه لا داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا فوقه ولا تحته، وفيهم من يقول: إنه في كل مكان، فهؤلاء قطعاً لا تصلُّ قلوبهم إلى حقيقة الأمر لأن مبدأ الحقائق ووجودها علماً واعتقاداً في نفس المريد والسالك، ثم تعود تلك العقائد فتصيرُ مشاهد، فإذا كانت العقائد فاسدةً كانت المشاهدُ وهميةً فاسدةً، فأولُ أمور الصادقين معرفتهم بأن ربَّهم فوق كلِّ شيء، فمن عَرَف منهم ذلك صارَ لقلبه قبلةٌ في توجَّهه ودعائه، كما أن المصلي قبلته في صلاته

الكعبة، إليها يتوجّه، ونحوها ينحو، فالطالب المريد إذا أيقنَ بذلك يصيرُ ما فوق العرش قِبلةً قَلْبِه في توجهه وإرادته، ومن ذلك المحلّ العلويّ تنزل عليه البركات، وتُفتح عليه حقائِق الفتوحات بمشيئة الله وإرادته، وهو سبحانه وتعالى قريبٌ في علوّه، عليٌّ في قُرْبِه، لا يُغيّر قُرْبُه ومعِيته علوّه وفوقيته، فهو بذاته وصفاته فوق عرشه بائن من خلقه وهو في علوّه مع خلقه بمعية هي صفته وحيطه هي نعته، لا يُكَيّف ولا يُمثّل، وهو بذاته فوق العرش المجيد، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فيما وصف به لنا نفسه، وتعرّف إلينا بأنه فوق عرشه، وتعرف إلينا بأسمائه العلية وصفاته القدسة الجلالية، من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وإرادته وقدرته ومشيته ووجهه الكريم ذي الجلال والإكرام، ويديه المبسوطتين، وقبضته ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، ويمينه في قوله ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: 67].

ووصف نفسه بعزته وقهره، ولطفه ورضاه، ومحبه وغضبه، ولعته وسخطه وبطشه وانتقامه، ورؤيته لعباده، ومعيته معهم، ومراقبته ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52]، وإتيانه يوم القيامة، ومجيئه في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: 210]، و﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22]، وغير ذلك من الصفات المقدسة الواردة في الكتاب العزيز لمن عرفها وتدبرها، وعرف الكتاب العزيز وتدبره، وفهمه وتلاه حق تلاوته.

فمن فتحت بصيرته ورزق صفاء الفهم وحسن الاستماع، يجد الباري تعالى في كتابه العزيز يتعرّف إلينا بمعاني صفاته، فتارةً يخاطبنا بكلامٍ رحيم لطيف بعباده، وتارةً يخاطبنا بكلامٍ جبارٍ قاهرٍ منتقمٍ من مخالفيه وأعدائه، وتارةً يخاطبنا بكلامٍ مقتدرٍ يدبّر الأمر ويفعل ما يشاء، وتارةً بكلامٍ عظيمٍ ذي مهابة وعزة، كل ذلك معرفة بمعاني صفاته، ويقابل كل صفة من صفاته بمقتضاها من العبودية والخضوع والطاعة فمثال الأول قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿[الزمر: 53]﴾، فانظر ما الذي تدل عليه هذه الآية من معاني صفاته الرحيمة، واللطف، والكرم، والجود الموجب لسعة الرجاء.

ومثال الثاني قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: 30/32]، فانظر ما الذي تدل عليه هذه الآية من معاني صفات الجبروت، والقهر، والانتقام من مخالفيه وأعدائه.

ومثال الثالث قوله: ﴿الْعَمَّ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [لقمان: 2/1]، الآية ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: 2]، فانظر ما الذي تدل عليه هذه الآية، من معاني الملك والربوبية والاقدار، ومثال ذلك، وإنما نبه على جنس هذه المعاني ليستدل بها على ما ورائها، وكذلك نطقت السنة النبوية بأخبار الصفات التي تُفيد المعرفة بالموصوف وهي كثيرة أيضاً، وقد ضُيِّفَ فيها كتب كثيرة، فليطلبها من أراد الوقوف عليها، فمن ذلك ما وَرَدَ من نزوله سبحانه وتعالى إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: «هل من تائب؟ هل من مستغفر؟» إلى أن يطلع الفجر.

ومن تجلّيه يوم القيامة ضاحكاً، ومن فرّجه بتوبة عبده، ومن تعجّبه، ومن رؤيته يوم القيامة في حديث الرؤية، وقد أفرد الدارقطني - رحمه الله - كتاباً في حديث الرؤية وطرقه، فإنه حديث عظيم من الأحاديث الدالة على المعرفة وأبواب المحبة، من تجلّيه في صفة غير الصفة التي عرّفوها، ومن كون المؤمنين يتبعونه حين يتبع أهل الطواغيت طواغيتهم.

ومن القَدَم حين يضعه في النار فتقول النار: قَطُّ قَطُّ، أو قَدْ قَدْ، ومن ذكر الأصابع الواردة في الصحيح - حديث الخبر - لما قال: «إِنَّ اللَّهَ يَأْخُذُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ»، الحديث، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً لما قال

الحبرُ وتصديقاً له، ومن غير ذلك من الصفات الواردة في السنة الصحيحة المأثورة، والمنزه عن التشبيه والتمثيل، المحققة التي لا تأويل لها إلا حقائقها، مع نفي التأويل والتعطيل.

وكل صفة من هذه الصفات بابٌ مفتوح إلى طريق المعرفة، وكونه يشرق منها سر من أسرار الإلهية، وشأن عظيم من شؤون العظمة، يشهد المحب العارف الذائق، الموصوف بها فتكون الصفة الواحدة باباً إلى معرفة الموصوف، فما ظنك بجميع الصفات الواردة والأسماء إذا كوشف العارف بحقائقها ووجد أذواقها فيشهدها كما تليق بالرب - سبحانه - عريّةً عن التمثيل بشيء من المخلوقات والمتوهمات والتمخيلات، والعارف الذائق، لا المحجوب الجامد البارد اليابس لكن المحب الصادق والواجد الذائق يذوق بقلبه حقيقة وجودها قائمة بالموصوف الكثير المتعال لا كيفية لها، ولا مثل، وكل عاقلٍ لبیب يفرّق بين وجود الشيء وحقيقته بالذوق بلا كيف ولا إحاطة، وبين تكيف الشيء والإحاطة به وتخيله.

فإن قلت: فالخيال لا بد منه لأنه لا بد أن يقوم بقلب العارف شيء، فيقال: نعم، لكن ليس كمثّل الذي يقوم بقلبه شيء، وكذلك يذوق العارف حقيقة وجود الصفة عريّةً عن التكيف والتمثيل، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: 27] وجاء في الحديث: (وتعالى جدك) فهو سبحانه وتعالى له المثل الأعلى في السموات والأرض، وفي قلوب المؤمنين، وليس لذلك المثل مثل يُشبه به، وهذا المثل يجده العارفون في قلوبهم، هو بمثابة الاسم والمسمى، فليس الاسم غير المسمى ولا عينه، ومن توهم أن الذي يجده في قلبه عين الحقيقة، فقد ادعى الحلول والاتحاد - تعالى الله أن يحل في شيء أو يحل فيه شيء - وهذا المثل مطابق للحقيقة بحسب استعداد المحل، فإن مطابقة المثل بحسب محله، فافهم ذلك فإنه مهم جداً إن كنت تطلب معونة الرب والوصول إليه، فصفات الباري تعالى يذوق العارف حقائقها بلا تكيف، ولا إحاطة، كما يؤمن المؤمن بها بلا تكيف ولا إحاطة، فإن قلت: كيف يعرف من ليست له ماهية محدودة؟ وكيف

يُحِبُّ من ليس له جمالٌ ممثَّلٌ؟

فالجواب: إن الحقائق إنما غابت ماهيتها عن القلوب وتعذر تمثيلها وتكييفها لِقَدَمِها وكمالها، وحدوث صاحب القلب ونقصه، فإذا كان الشيء المحدود المحصور يُحِب ويعرف بجسده وكيفيته، فمن غابت حقيقته عن القلوب وكمالها فهو أولى بالمحبة من الأشياء الممثلة، ولهذا الكمال جمالٌ يلوح في القلوب أظهر من الجمال الظاهر المحدود الموصوف يجدد العارفون فافهم السرَّ عساكَ أن تذوقه.

فإذا وفق الله تعالى العبد للتفقه في كتابه وسنة نبيه ﷺ يستفيد أولاً معرفة الرسول ﷺ فيعرف بسيرته وأيامه ومعجزاته وآياته وستته وآدابه وغزواته وحركاته وسكناته وكراماته كما يعرف فقراء زماننا وصوفيَّته شيوخهم بأنسابهم وصفاتهم ووقائعهم وكرامتهم.

واعلم أن معرفة الرسول ﷺ هي أول رتبة من رتب المعارف، وهي أصل المعرفة وأساسها، لأن الله تعالى تعرّف إلينا بواسطته، وتجلّى علينا من جهته فصارت معرفة الرسول هي الأساس، عليها تُبنى مباني المعارف، وعلى قدر التحقق بمعرفة الرسول ﷺ يكون التحقق بمعرفة المرسل، فإذا أتقن العبد معرفة الرسول ترقى حينئذ إلى معرفة المرسل من الرسالة، وهي القرآن فيرقى إلى فهم الكتاب العزيز، ويعرف الرب تعالى حينئذ من الصفات الواردة فيه فيبقى حينئذ يسمع القرآن كأنه يسمعه من متكلمه من فوق عرشه - وهو معه - وتستولي المراقبة حينئذ على قلب العارف والهيبة للرب تعالى والشعور بعظمته فيتحقق حينئذ بمعرفة الإلهية، وهو معنى الإله الذي تؤلّفه القلوب وتعبدّه وتطلبه وتحبه وتحبّ قربّه، فإذا كمل هذا المشهد يرجى أن يفتح عليه بمعرفة الربوبية التي مضمونها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد أن يتحقق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

الفصل الخامس

في كيفية الترقى إلى علم صفة الربوبية بعد أحكام صفة الإلهية

فإذا يسر الله تعالى للسالك التحقق بمشهد الإلهية وقام السالك بتحقيقه، واستولى عليه حكمه يرجى أن يفتح له علم معرفة الربوبية، وهو الكشف عن سرّ التوحيد والكلمات التكوينية، ويظهر له قيام الرب تعالى بتدبير خلقه، فلا نفع ولا ضرر ولا حركة ولا سكون، ولا قبض ولا بسط، ولا خفض ولا رفع إلا والله سبحانه وتعالى فاعله وخالقه وقابضه وباسطه، وخافضه ورافعه، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، فحينئذ يتحقق العبد العبودية ويخضع لأحكام الربوبية ويستسلم للقدر، ويطمئن إلى كفالاته سبحانه، ويرضى بتقديره وتدبيره، ويتحقق حينئذ (بإياك نعبد) فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهذا الباب هو كشف سرّ الكلمات التكوينية، وهو علم صفة الربوبية، والأول هو علم صفة الإلهية، والتحقق بالقيام بالأمر والنهي يكون عن كشف علم الإلهية، والتحقق بالتوكل والتفويض، وحقائق العبودية يكون بكشف علم الربوبية وهو علم التدبير الساري في الأكوان من الكلمات التكوينية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40]، وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ [التحريم: 12]، أي: بكلماته التكوينية، وكتبه أي: بالكلمات التكليفات.

فإذا وفق الله تعالى العبد وحققه بهذا المشهد بحيث لا يحجبه عن المشهد الأول فهو الكمال، فكثير من المفتوح عليهم ينحجب بأحد المشهدين عن الآخر، ومن وفق للجمع بينهما بلا ضعف منه بل يكون كمن له عينان ينظر بأحدهما إلى هذا أو بالأخرى إلى هذا، فيقوم بحكم هذا ويستعين بالله بحكم الآخر، فقد وفق وهدى إلى صراط مستقيم.

ففيهم من يكون قوياً في باب العبادة، قائماً بالأوامر الشرعية، فإذا جاءت الأحكام القدرية ضعف وتزلزل واضطرب ولم يقف على حقيقة التوكل ولا على حقيقة التفويض، بل خاصم وسخط ونازع ولم يرض بقضاء الله ولا بفعله، وهذا

عبد شهد الإلهية ولم يشهد الربوبية، وفيهم من يكون قوياً في باب الاستعانة والتوكل والجريان مع القدر ضعيفاً في باب الحلال والحرام والمحاسبة والمراقبة، والقيام بأحكام الكلمات التكوينية فيقع في المحظورات والمحذورات بحكم طبعه وشهوته، وهذا عبد شهد الربوبية ولم يشهد الإلهية، والطبع والشهوة لا يخدم ناراها إلا القيام بالعبادة التامة مع الاستعانة التامة، ومن وفق للجمع بينهما استقام على الجادة على صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فحيث أن يفتح له بالكشف عن صفة المعية.

الفصل السادس

في بيان الكشف عن صفة المعية الخاصة

وهي معية خاصة، وهي صفة ثابتة لله تعالى بأنه مع كل شيء كما يليق به فيجتمع للعبد الجمع في هذا المشهد بين مشهد الإلهية والربوبية فيشهد الإله الأمر الناهي المتكلم بالقرآن، الباعث للرسول ﷺ هو الرب القادر المدبر لملكه، وكل شيء في قبضته وتديره، وهو في علوه وارتفاعه مع العبد ومع كل شيء فيأنس العبد حينئذ من بعد وحشته ويصير له سميع من فيض معرفته حين تحقق بصفة معيته فلا يرى بينه وبين ربه مسافة تحجبه، ويجده محيطاً به قابضاً على ناصيته، ناظراً في سويداء سرّه ذوقاً، ووجداً لا نظراً وعلماً، هو معه حيث ما كان، فحيث ما تحرك أو تصرف، باطنه ممتلئ من ذوق صفة معيته فيستحييه العبد ويراعي اطلاعه عليه وعلمه به، فإذا صار إلى هذا المقام فقد شارب مقام الجمع ويرجى أن يفتح له بمشهد الجمع.

الفصل السابع

في بيان الكشف عن حال الجمع

فإذا جمع الله تعالى للعبد المشاهد الثلاثة مشهد الإلهية والربوبية والمعية يبقى

القلب مستهتراً بذكر الذات الجامع لجميع الصفات الكمالية، وهذا أول الجمع، ثم يرد عليه حال الجمع بمشيئة الله تعالى، فهو هجوم اليقين عليه من جميع جهاته في فناء وجوده، فيفنى حينئذٍ من لم يكن ويبقى من لم يزل، ويضمحل الحدث لظهور القدم، ومن ذاق من ذلك شيئاً فهو يعمل على صفاء شهوده من شوب وجوده، فهو يتوب أبداً من وجوده المزاحم لصفاء شهوده كما قيل:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

والنفس في هذا المقام تتلطف في الدخول عليه بإرادات لطيفة مشوبة بأعمال صالحة، ليعود عليه وجوده، فإن عيشها في بقاء وجودها وموتها في فناء وجودها، فلا يزال كذلك حتى يستقر له حال الجمع، وتارة يضعف قلب صاحب الجمع عن مخالطة الصفات المتقدمة لشدة ظهور حكم الذات، فلا يتسع للصفات حتى يتقوى ويرى الأمر مطابقاً للاعتقاد، فإن الكشف الصحيح هو ما كان مطابقاً للاعتقاد يقتضي أن الرب تعالى لم يزل متصفاً بالصفات قديماً وأزلاً، ولا يزال كذلك أبداً، فيكمل له حينئذٍ شهود الجمع مع الصفات، وهو المشهد التام الكامل، وحال صاحب هذا المقام التزام العبودية لله تعالى، ورفض الاستبداد بقول أو فعل، فمتى استبد بقول أو فعل عوقب، إما بعقوبة ظاهرة أو باطنة، فإنه قد وجد الله بقلبه، ومن وجد الله بقلبه استسلم له ولأحكامه، وصار عبداً له في جميع شؤون وأحواله، فهو لا يدبر ولا يتحرك، ولا يتكلم إلا ما أمر به في ظاهر العلم أو ندب إليه شرعاً، وأما ما لم يجب عليه لم يندب إليه، فهو في الشرع مخير بين تركه والدخول فيه فيطرق قلبه فيه بين يدي سيده ينظر ما يفيض عليه من شهوده شارع فيه، وإن وجد الفيض توقف حتى يتبين له حكمه، فهو عبد الله تعالى، وآثار العبودية وخضوع القلب لله عليه ظاهر، وحكم التوكل والتفويض عليه لائح، وقد يؤمر بالدخول في الأمر بهاتف أو منام ليمضي فيه أما ما وجب بظاهر العلم لم يحتج معه إلى بينة باطنة، لكنه يمضي فيه وإن وجد الفيض لأن الحكم حاكم على الذوق الباطن في كل شيء، فلا يزال قائماً مع الله تعالى بوصف العبودية حتى يقبله الله تعالى ويتخذه

عبداً، ويصطنعه ويقربه ويرتب له مرتبة بين يديه.

فأول علامة ذلك جذبة تأخذ بروحه فتعرج به إلى الملكوت حتى يجاوزه بعروج روحه، وترتب له مرتبة في القرب بعيان الروح، وهذا الذي يسمى الوصول، وتلك مشاهدة القلوب بأنوار الإيمان، وفرق بين عيان الروح وشهادة القلب، فحكم هذا حينئذ حكم من رأى الملك أعني صاحب هذه المشاهدة الإيمانية، وبعد لم يصل إلى قربه، فهو يتأدب ويترك الاختيار، ويرجع إلى الله تعالى في كل شيء حتى يرحمه ويقربه وينظر بقلبه إليه، ويرتب له بين يديه مرتبة فذلك حينئذ أول وقوعه في تولي الحق وأول علاماته في قبوله له، فلا يزال قائماً في حكم تلك المرتبة حتى ينتقل إلى غيرها، ثم إلى غيرها حتى يتصفى من كدره وتذوب بقاياها فيصلح للدخول على الملك ومناجاته كفاحاً ويصير من الخواص الذين لا يحجبون عن منازل الملوك، وذلك الغاية التي انتهى عندها الطلب، وحصل المقصود من السير والسلوك، وحينئذ يبقى مأذوناً له لطهارته باقياً بربه بقيد حاله، ولا تقيده الحال لأنه بربه لا محالة فبه يسمع وبه يبصر وبه ينطق، وهذا مقام المقرّبين المحبوبين المصطنعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الثامن

في لواحق بها يكمل الكتاب

اعلم أن هذه المعارف الشريفة والمقامات العالية المنيفة، لا تسكن إلا في القلوب الطاهرة والأبدان المستعملة في مرضي الله تعالى من الأعمال الصالحة، ولا تسكن في قلب ملوث بالشهوات، محشو بمحبة العلو والاستتباع والرئاسات، ولا في قلب معلق بشيء من العوالم السفليات، إلا في قلب صادق في طلب رب السموات، لتقر عينه ببلقائه، ويحظى لديه بخصائص التقربات، وعلامة صاحب هذه الهمة كمال التقوى والمحاسبة، ورعاية الجوارح السبعة: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل - كما مرّ أولاً - عن جميع محرمات الشرع ومكروهه، ومع ذلك فيكون قواماً على قلبه بالرعاية التامة والمراقبة للهمم الدينية، والخواطر

النفسانية، يراعي اطلاع الربّ تعالى عليها فهو يتقيه ويخشاه في سرّه كما يخشاه في علانيته، فهذا علامة الصديقين الطالبين المستعدين لهذه المعارف السنية والأحوال العلية، وكل من لم يحقق هذا الأصل ولم يدخل فيه لا يصلح لهذا الشأن إلا إن شاء الله له ذلك.

فإن علامة المرادين لهذا الأمر قيامهم على الخواطر حتى ينقوها من المكاره، ثم من الفضول، ثم ينطلق من أسرار النفس فتبقى سماوية ذا كُره ذكر اللذات، ومن لم يتحقق هذا لم يروض نفسه فيه غالباً لا يثبت مشهده ولا يستقر، ولا يصلح لانطلاق قلبه إلى ملكوت ربه، ووصوله إلى ما تعينه الأرواح التي تبقى فيها مشاهدة القلوب المذكورة كالظلمات لمعاينة الحقائق، فاعلم ذلك وحققه. فليزن الإنسان نفسه بهذه الموازين أولها: خلو قلبه عن التعلق بالأدنى من جميع العوالم السفليات، فإن صاحب العلائق محجوب عن الولوج إلى عالم السموات، فيحتاج مثل هذا القلب إلى تطهر، فإذا طهر استعد لطلب الحقائق، فكثير من الناس يكون مشغلاً بالتقوى والمراقبة، وسياسة النفس بالآداب الشرعية، وقلبه مقيد معلق بشيء من الكون، وذلك هو حجاب له لأن لذلك الشيء على قلبه سلطنة وهيمنة وربانية، تمنع وصول سلطنة الحق وربانيته إلى القلوب، وأكثر المحجوبين عن الحقائق لهذه الموانع وذلك مثل حب رئاسة أو مال أو جاه أو مملوك أو معاشرة أو غير ذلك من الأشياء التي يتعلق بها سرّه ويسكن إليها قلبه، فلا يكمل إقباله على ربه ولا طلبه، فيحجب لذلك، فمن حُرِم الوصول من الطالبين فليتهم نفسه وليتطهر من الأدناس ولينفك عن العلائق، وقد يكون الإنسان باشر الأمور الكبيرة وليس بين قلبه وبينها ارتباط، بل قلبه متعلق بالله تعالى، وتشبه حال هذا حال الحزينة الثكلى تُباشر مصالحها والحزن كامنٌ في قلبها، فنفس المباشرة لا تحجب بل تعلق القلب وتقيد به هو الحاجب.

قال بعض المشايخ: المحب من لا سلطان على قلبه لغير محبوه ولا مشيئة له مع مشيئته.

خاتمة الكتاب

فإذا وفق الله تعالى العبد لما ذكر من استعمال التقوى والتلبس بالآداب الشرعية، وتطهر الباطن عن التعلقات فلا بد أيضاً من الانفراد وقطع الشواغل المفرقة، وإن لم يتعلق القلب بها وجمع الهمة والعكوف على صدق الطلب. والتوجه إلى قبلة القلوب المذكورة أولاً، وإن أمكن الجمع بين التوجه إلى قبلة الطائفين بالظاهر وإلى قبلة الباطن بالباطن كان أكمل ولا بد من مفارقة الإخوان البطالين والأقران الغافلين الذين لا يساعدونه على حقيقة الإسلام والدين.

واعلم أن هذا المعنى كالعروس المفتتة بحسنها وجمالها الممتنعة على خطابها تطلب عاشقاً صادقاً في حبها يبذل في طلبها مهجته، ويحلو عنده المرات في طلبها وتهون عليه الشُّقات في طلب الوصول إليها كما قيل: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

خليلي قطع الفيافي إلى الحمى كثير وأما الواصلون قليل
تروم وصالاً من سليمى ولم تجد بنفسك هل نال الوصال بخيل؟
وقال آخر:

عمن مسائل من في الدار من رجل بات مشغولاً (...) عن الشغل
قد جرحته الصبا مما يكابدها ليلاً وقد تمتته نسمة الأضل

ومن عرف هذا المعنى تحقق أن هذا السر لا يفتح غالباً إلا على القلوب الطاهرة والقصود الصادقة والهمم المحترقة المتخلية عما سوي مطلوبها وهيئات أن يحصل لها بعض مطلوبها، فكيف بأهل القلوب الملوثة والأسرار المقيدة المعانقة لأجزاء الكون بالإرادة والتعشق، إن هذا منهم بعيد.

ومن رزقه الله تعالى هذه الهمة العلية والتخلي عما سوي مراده والتعرض التام لبواديه ونفحاته أيضاً عليه شرط آخر وهو القصد من السير، فبعض الصادقين من الطالبين لحدة عزمه وفرط غرامه يتعدى الأمور المشروعة ويتحمل من المشقات ما لا يطيق بل على المرید أن يتعلم السنة يستفيد منها معرفة الرسول ﷺ، ومعرفة

آدابه وأخلاقه ويمرّر السنة على نفسه قولاً وفعلًا، ويقتصر على ذلك بلا غلو ولا انحراف.

فالصوم والسهر الدائم وترك الأسباب التي بها يقوم الوجود البدني كل ذلك غير مشروع، بل يصوم قصداً ويقوم قصداً، ويقطع قلبه عن الركون إلى الأسباب، ولا يعامل الله تعالى ولا يتقرب إليه إلا بما شرعه في كتابه أو سنة رسوله ﷺ، ومن خالف ذلك وارتكب أعمالاً شاقة غير مشروعة لم يجد لها ثمرة وأوهت بدنه وأضعفته في آخر الأمر عن المشروع والمندوب، وأورثته أحوالاً منحرفة ممزوجة بحدّة وسوء خلق، عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله، وليقتصر الطالب على الصلوات الخمس المشروعة بإكمال وضوئها والخشوع والحضور في ركوعها وسجودها، وبعض الناس يعتقد أنه خاشع في صلاته، وإنما الخشوع هو أن لا يخطر له في التلاوة غير معاني ما يتلوه فيها فإذا قال: (الحمد لله رب العالمين)، قال: بقلبه (الحمد لله رب العالمين)، ويجتهد أن يكون اللسان تبعاً للقلب فيها، فإذا ركع، فليخضع بقلبه كما يخضع، وإذا سجد، فليسجد بقلبه تواضعاً لربه تعالى ولا يغفل عن شيء منها البتة فذلك هو الخشوع، وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ [المؤمنون: 2/1].

وفي الجملة فليقتصر على المشروع والمسنون الذي سنه رسول الله ﷺ، ولا يتعداه بل يخص قلبه فيه ويعتني بمعاملة ربه به خصوصاً في الصلاة وفي الأذكار المشروعة في عقبها، وما شرع قبلها من إجابة المؤذن والتهجير ومراعات الصفّ الأول، واجتناب تخطي الرقاب، وغيره من السنن ويستعمل الصوم المشروع، ويقتصر عليه مثل الاثنين والخميس وأيام البيض والعشران، فإن ذلك كافيه، وكذلك يتناول القوت المشروع وهو القدر الذي تتم به صحته ويقوي ضعفه.

وفي الجملة فلا يغير عادته من المأكّل والمشروب أصلاً لكن ينقّض منه قليلاً ويجتنب السرف فيه، وكذلك ينام حتى يستريح، ويقوم من الليل بالتهجد المشروع

بحزب خفيف لا يشق عليه، ومع ذلك فيشد عزيمته ويجمع همته وقصده على التورع عن المحارم ومجانبة الفضول والمآثم. ويكون غيب همه أن لا يعصي ربه في جميع نهاره وجميع ليله لا بقول ولا بفعل. فإن وفق للاقتصار على ذلك اجتمعت همته وتوفرت قوته على القيام بما أمر، وشدة الانبعاث إلى ما يحب ويطلب.

وهذا الانبعاث والطلب هو السر المظنوب من الصادق، فمن الناس من تموت همته ومحبته لشدة ما يتعاطاه من الأعمال الشقة. وحسب العبد الطالب قيامه بأمر ربه، وتوفر همته على طلب مراده مع حفظ قوته وصحة مزاجه، وعدم انحرافه، ثم عليه أن يترجي الأوقات الفاصلة مثل يوم الجمعة ويوم عرفة والثالث الأخير من الليل، فإن فيها تنزل الأنصبة على الضائين. وتلوح البوارق على المحبين والمشتاقين.

أما يوم الجمعة فهو شبيه بيوم الزيادة، وأتمودج منه إذا اجتمع الناس للصلاة تنزل التجليات على القلوب الصادقة الفارغة من الهموم المطلقة من القيود، وكذلك يوم عرفة، وكذلك أواخر الليل وعليه أن يستعمل ما يحلو له من الأذكار، ويجعل عقدة أمره وذروة سنامه تدبر كتاب ربه تعالى، وفهم خطاب ربه تعالى، ويعمل على أن يتعرف منه معاني صفاته بقلب طالب، وقصد صادق، وهم مجموع، ويفتقر إلى ربه في ذلك، فالفهم والمعرفة فتوح. وهو هبة وإنما العمل والتدبر واسطة وسبب، وإنما السر في ذلك أن الله تعالى بعث إليه رسولاً برسالة، فمن اعتنى بالوقوف على فهمها وغاص في حقائق المراد منها، وطلب تعرف صفات المرسل المتعالي منها، كان ذلك هو طريقه إلى معرفته حقيقة وغير ذلك من الطرق فروع وشعب.

هذا أصلها فافهم هذا السر راشداً تفكر إن شاء الله تعالى، ولا تزال كذلك مجتهداً حتى تتحقق بمشهد صفة الإلهية، فإنها إذا فتحت جاء الخير وانفتح الباب وانجلي الظلام، واجتدت الأفهام وانجذبت القلوب، فقد يظهر للقلوب من مشاهدة الإلهية بوارق تلوح للقلوب أحياناً، ولا تدوم بمثابة البروق اللوامع، فليلازم حاله ولا يستبطن عودها، فإن المواهب على قدر الاستعداد فقد لا يكون في هذا الآن

مستعداً لكمال الأمر، فمنهم من تلوح له البارقة في سنة مرة، وفي الشهر مرة، وفي الأسبوع مرة، ثم يتقارب حتى تصوير في اليوم مرة ثم متى توجه وجد ذلك الحال، ثم يترقى إلى أن يكتسي القلب بصيغة فيشتغل عنه وهو غير منفصل عنه.

واعلم أن المشاهدة تلتبس بالمقاعد فقد يشهد المريد مشهداً، ولا يكون لقلبه مقعد، فأول الأمر يكون المشاهد عقائد، ثم تصوير لهم مقاعد، فيروح الواحد يميناً وشمالاً لا في مرضاة ربه، ثم يعود إلى مقعده ومركزه، كالفرس تجول ثم تعود إلى أخته، فعلى العبد الاعتناء بهذا المشهد الأول، فإنه الباب، فإذا شهده لا يقنع حتى تصوير له مقعداً.

ثم يرجى أن يفتح الله عليه ببقية المشاهد المكملّة للأمر الكلّي، والحال الصديقي، ومن فتح الله عليه بحقائق هذه المشاهد وختم له بالحسنى عليها رجا له أن يتحقق حقائقها الذاتية في الدار الأخرى في مراتب الكشف والعيان، كما حققها في الدنيا في مراتب الإيمان والإيقان والإحسان والعرفان، فالذي رزقوه في هذه الدار من الأحوال نموذجات مقاصد الصدق ورقابها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: 55/45]، والله تعالى بكرمه وإحسانه يوفقنا لما يقربنا إليه ويزلفنا لديه، ويدخلنا في زمرة أوليائه المفلحين وحزبه المقربين الذين اختصهم لنفسه واصطنعهم لقربه إنه أرحم الراحمين.

مفتاحُ طريقِ المحبِّينِ وبابُ الأُنسِ
برَبِّ العالمينَ المُوَدِّيِّ إلى أحوالِ المُقَرَّبِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على تواتر نعمته وتوالي آلائه، حمداً كثيراً يصعد به في شموله وعلائه، تلوح أمارات القبول على صفحاته وأرجائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة موحد في مقصده وإنجائه، وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله المسدد في جميع أعماله وآرائه. صلى الله عليه صلاة دائمة ملء أرضه وسدته.

وبعد: فإن الله تعالى إذا أُرِدَ بعبد خيراً أقام فيه شاهداً من ذكر الآخرة يُريه فيه الدنيا وبقاء الآخرة ودوامها فيزهد في نفعي ويرغب في الباقي، فيبدأ بنسب السلوك في طريق الآخرة، وأول نسب فيها تصحيح التوبة، والتوبة لا تصح إلا بالمحاسبة ورعاية الجوارح السبع: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل عن جميع المحارم والمكرهات ونقصها. هذا أحد شطرين، ويبقى الشطر الآخر وهو القيام بالأوامر، فيحقق الشطر الأول وهو ترك المناهي من قلبه وقلبه.

أما القلب فلا يعصي الله بجارحة من جوارحه. ومتى زلَّ أو أخطأ تاب، وأما القلب فينتقي منه الموبقات والمهلكات مثل الغيبة والنعجب والكبر والحسد، والبغض لغير الله، وبغض الدنيا، ورد الحق واستحقاقه، والازدراء بالخلق ومقتهم وغير ذلك من الكبائر القلبية التي هي في مقبة الكبائر القلبية. ومثلها من شرب الخمر والزنا والقذف وغير ذلك، فهذه كبائر ظاهرة وتلك كبائر باطنة تحبط الأعمال، فمن انطوى على شيء من الكبائر باطنة ولم يتب حبط عمله، والدليل على ذلك الأخبار والآثار، فمنها ما في الحديث لا يدخل الجنة من في قلبه أو رأسه مثقال ذرة من كبر».

وجاء: «أن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»، وجاء: بقول الله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه»، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]، وقد جاء: «من قال هلك الناس فهو أهنكهم».

فصل

ومتى تنقى القلب من مثل هذه الخبائث والرذائل طهر وسكن فيه الرحمة في مقابلة البغض، والتواضع في مقابلة الكبر، والنصح في مقابلة الغش، والإخلاص في مقابلة الرياء والسمعة، ورؤية المنة في مقابلة العجب ورؤية النفس، فعند ذلك تزكو الأعمال وتصعد إلى الله تعالى، ويظهر القلب ويبقى محلاً لنظر الحق بمشيئة الله تعالى ومعونته، فهذا أحد شطري الدين وهو رعاية الجوارح السبعة عن المآثم والمحارم ورعاية الباطن والقلب عن موبقات الجرائم.

فصل

وأما الشطر الآخر من الدين فهو القيام بالأوامر، ولا يتم القيام بها حتى ينصح الله تعالى فيها، كما ينصح العبد البار الناصح لسيده إذا بعثه في مهم من حوائجه، فإنه يبذل نصحه ومجهوده حتى يوقع الحاجة على أكمل الوجوه وأحسنها، يتقرب بذلك إلى سيده ليرضى عنه ويحبه، وكذلك العبد إذا توجه عليه أمر من أوامر الله تعالى مثل: صلاة أو صوم أو زكاة أو قضاء فائت، أو قضاء دين، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو حق من الحقوق التي بينه وبين الله تعالى، أو بينه وبين عباده، فإنه ينصح الله في ذلك العمل ويبذل فيه مجهوده ويوقعه على أتم الوجوه وأكملها إن كانت صلاة خشع فيها لله تعالى بقلبه وخضع وحضر بين يدي الله تعالى بقلبه وفؤاده، وتضرع إليه والتجأ فيها بصره إليه، وإن كان الحق صياماً حفظه من الغيبة والنميمة والنظر إلى كل قاذح يقدر فيه.

وهذه الأعمال لا يقوى على القيام بها إلا المحبون والمحبة تُسهل هذه الأشياء الشاقة على المحب الصادق، ولا يقوى على ذلك العبد السالك إلا بمعونة الله تعالى وفضله، فعليه بدوام الالتجاء إلى ربه ليعينه في سائر أموره، وسائر شؤونه كما علمنا في الصلوات الخمس أن نناجيه ونقول ﴿إِيَّاكَ تَبَتُّ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْثُ﴾ فلا بد من العمل والصبر والمكابدة والمجاهدة فبذلك تتم العبادة، ولا بد من الاستعانة والالتجاء فإنه لا معين إلا الله فتكميل شطري الدين أمر لازم لا يتم الإسلام

والإيمان والسلوك إلا بهما، ومن لم يصحح ذلك ولم ينفذ فشر ذلك كمثل زارع قمحاً وشوكاً، فالقمح ينبت قطعاً لكن مجاورة الشوك ومن حنته به: نفسه. كذلك موبقات الأعمال الظاهرة والباطنة تفسد الأعمال وتحثها كد يفسد شوك ما حوله من النبات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

ولا يتم تكميل شطري الدين إلا بصحة الاعتقاد ومحبة الرسول ﷺ. وصحة الاعتقادات بإثبات صفات الرب تعالى كما يليق به أولها صفة العلو، فيعتقد أن ربه سبحانه وتعالى علي فوق الأشياء كلها والدنيا، ينظر إلى عباده من فوق عرشه ويرعاه ما هم عاملوه ويسمع ما هم قائلوه، ويدبر ما هم فاعلوه، ويريد ما هم مكتسبوه، فإذا أيقن القلب بذلك بلا تكييف ولا تشبيه يرجى أن يتم بذلك سير العبد في سلوكه بمعونة الله تعالى.

وأما محبة الرسول ﷺ فهي أن يتخذ السالك نبيّه وأستاذه وشيخه ومؤدبه فيجمع نعمه عليه دون كل شيخ ومؤدب وأستاذ، ويعكف على مطالعة سيرته واستماع سنته ويطالب نفسه بالاتباع للرسول ﷺ في جزئيات المتابعة ووكلياتها، ولا يسامح نفسه أن يترك سنة من السنن مثل السواك والتهجد والصف الأول وميامن الصفوف والقرب من الإمام وحضور التكبيرة الأولى، والتهجير إلى المسجد، والتميم في اللباس والأفعال، وغير ذلك فبذلك يكمل الاتباع للرسول ﷺ، ويصح الحب له، ومتى صحت محبة الرسول ﷺ واتباعه يرجى للعبد أن يحبه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

وجميع ما ذكرنا من التوبة والمحاسبة والرعاية والخشوع في الصلاة، فكل ذلك من جزئيات المتابعة للرسول ﷺ، والمتابعة أصل جامع بجميع الخيرات والله الموفق للصواب.

ومن جزئيات المتابعة التهجد والمواظبة عليه، فإن الرسول ﷺ أخبرنا بأن الرب ينزل إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الأخير فيقول: «هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فاستجيب له»، ولا يزال لذلك حتى يطلع الفجر. وقد جاء في الحديث: «أقرب ما يكون من عبده في جوف الليل الآخر»، فالمريد ينبغي له أن لا يفوته ذلك الوقت فإنه وقت يفتح الملك بابه، فيتعين علينا

أن نرجي ذلك الوقت، ومن وازب على التهجد في جوف الليل الآخر يرجي له نصيب من أنصبة المقربين إن شاء الله تعالى، ويرجي أن يرقون من محبة الرسول ﷺ إلى محبة مرسله سبحانه ويرقى إلى فهم كلامه سبحانه وهو القرآن المجيد، وتتبع رؤية تجليات الصفات المقدسة فيرقى بذلك إلى مواطن القرب والمحبة الخاصة بمعونة الله تعالى وتوفيقه.

فصل

والمرتبة الثانية من السلوك فهي الطلب والإرادة والشوق إلى الوصول والقرب، وهذا شأن من ذاق بقلبه شيئاً من لوائح الإيمان، ووجد آثار الصفات المقدسة اليقينية، ومتى ذقت القلوب شيئاً من ذلك لم يهنأ عيش حتى تبلغ من ذلك الذوق إلى غايته وكماله ونهايته وكان مثل هذا الذائق لها كمثّل شخص رأى من وراء حجب كثيفة شيئاً من لمحات محبوب فاق كل شيء في الملاحظة والجمال والحسن والكمال ولم يحققه ببصره لكن لاحت له منه لمحات على بعدٍ من الدار فهيجت أشواقه إليه وتعلقت الروح به فلا تزال الروح مجذوبة إليه مشتاقة إلى لقائه وقد شغلها عن ذلك شواغل من أمور الطبيعة ولكنه متى صفا قلبه وخلّاهاج وتأججت نيرانه كما قيل:

وما في الأرض أشقى من محبٍ وإن وجد الهوى حلو المذاق
فبيكى إن نأوا شوقاً إليهم ويبكي إن دنوا خوف الفراق
وكما قيل:

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى برق تألق موهناً لمعانه
يبدو لحاشية الرداء ودونه صعب الذرى متمّع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق نظراً إليه وهده هيجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سحّت به أجفانه
فمثل هذا إذا لم يكن له أستاذ عارف أو قرين ناصح يرشده في حيرته قد

يخشى عليه أن تقطعه الفاقات والمجاهدات والرياضات فينحرف لذلك مزاجه ويفسد حاله لانحراف قلبه فيفوته المطلوب ومثل هذا يحتاج إلى سياسة لطيفة تتم بها مصالحه في أمور دينه ودنياه وآخرته بمعونة الله وتوفيقه فأول ذلك دوام الالتجاء إلى الله ﷻ فإنه لا ينجي من المهالك والمتآلف في أسفار الدنيا والآخرة إلا الله ولا يوصل إلى الله إلا الله، هذا أول الأمر وأساسه، وليعلم أن الجوع المفرط مضر كما أن الشبع المفرط مضر، والخروج من الأسباب الدنيوية التي تتم بها المعيشة مضر كما أن الانهماك فيها والتكالب عليها مضر.

فصل

والأمر الذي يبلغ السالك به إلى المطلوب بمعونة الله الأمر الوسط المعتدل من الصوم والفطر والجوع والشبع والتقشف والتنعم والتسبب والتجرد، أما الصوم فيكفيه صوم الأيام الفاضلة المشروع صومها كالاثنين والخميس وأيام البيض وعرفة وعاشوراء، وبعض هذا يكفيه إن عجز عن جميعه والجوع والشبع، فليعتمد على أكل الأشياء الرطبة المولدة للأخلاط الصحيحة والدم الصحيح كالمسلوقة واللبن أو الحليب والعسل المرقق بالماء يغلي حتى يبقى كاللبس السائل، ومثل الفواكه الناضجة كالشمش والبطيخ والعنب وأمثاله، ويجتنب الأغذية المولدة للسوداء إلا القليل منها فإن البدن لا يستغنى عن ذوات الطعوم كالحامض والحريف والمالح فيتناول من الأغذية الملائمة قدرًا معتدلًا بين القليل والكثير مثل أن يأكل حتى يكتفي ولا يمتلئ منه وإذا شبع في يومه مرة فلا يشبع مرة أخرى فيه إلا إذا أصبح صائمًا لكن يأكل لقيمات خفيفة على القلب حتى يبقى فارغًا من ثقل الطعام، ولا يثقل الطعام على أحدٍ إلا ينحجب عن الصفاء والنور، فهذا حد الأكل والمأكول وقانونه، والله الموفق والمعين.

وأما التقشف والتنعم فليستعمل من التنعم مثل الحمّام والنكاح واللباس والطيب وغيره بقدر الحاجة، وبقدر ما يصلح به البدن متى وجد البدن قد قشف وقحل أو قارب أن يتقشف رطبه وغذاه، ومتى وجده قد كاد أن يقسو أو يغلظ عدله بالتقلل من الشهوات والصوم، ويحوم حول الاعتدال في كل شيء، فبذلك يكمل الأمر بمعونة الله تعالى، فإذا أعطى الجوارح حقها فيشرع فيستوفي الحق الذي عليها.

وأما التسبب والتجرد فلا يشرع له ترك الأسباب كما لم يشرع له الحرص والتكالب عليها، لكن يسعى في أمر يكفيه ويكفي عياله في عامه بالمعروف، ويؤثر منه ويتصدق ويعين الصالحين، ولا يحرص الحرص البالغ بحيث يستحوذ عليه الشيطان بحب الدنيا فينسه ذكر الله تعالى، فيبقى كالذين نسوا الله فأنسيهم، فينقطع بذلك عن الله تعالى، وكذلك التجرد عن الدنيا بالكلية يشغل النفوس بالحاجة والفاقة وذلك حجاب أيضاً، وخير الأمور أوساطها، والله الموفق والمعين.

فصل

وإذا وفقه الله تعالى للقيام بشطري الدين المذكورين أولاً ثم بسياسة النفس على قانون العدل، من الصوم والفطر والشبع والتقشف والتجرد والتسبب، فليسلك إن شاء الله تعالى ليتحقق قلبه بذلك الذوق الذي وجدته.

واعلم أن كل حال جاء بالجوع ذهب بالشبع، أو حصل بالخلوة ذهب في الخلطة في أغلب الأمور، ومن سلك طريقاً سهلاً معتدلاً في أمور معاشه وصلاح جسمه استقام حاله بمعونة الله تعالى وتوفيقه، فإذا استقامت النفس على الاعتدال المذكور وتعودته، واعتادت المحاسبة ورعاية الجوارح، واستقبال الحركات بالنيات الصالحة، والنصح في البيع والشراء، وسائر المعاملات بحيث يحب العبد لأخيه ما يحبه لنفسه، ويرضي ربه في زوجه وإخوانه بما يتعانه معهم من مكارم الأخلاق وبشاشة الوجه وحسن السيرة وظهور الرحمة من قلبه لهم وإرادة المصلحة لهم في سائر أمورهم، فليشرع حينئذ في هذه الطريقة السهلة الخاصة إلى الله تعالى بلا جوع مفرط، ولا تقشف بشيء يضر به الأخلاق ويعطب بسببه الجوارح لظهور اليبس في بدنه والطيش في دماغه لانحراف عن حد الاعتدال.

فصل

أول هذه الطريقة السهلة أن يعلم العبد أن صلاح القلوب وقربها من الله إنما يكون بشعورها بقربه سبحانه منها، إذا شعرت القلوب بقرب الله منها، وبأن الله يعلم سرّها وخفيّ هواجسها ودبيب خطراتها استقامت القلوب وصلحت وقربت من

ربها، ولا طريق أعدل من أن يجعل الإنسان لنفسه وقتاً يتخلى فيه عن الشواغل، إما في الليل أو النهار، ثم يجلس في موضع خالٍ فيصلي ركعتين ويتوب إلى الله تعالى من جميع الذنوب التي اجترحها في يومه ذاك أو ليلته ما علم من ذنوبه، وما لم يعلم فإن ما لا يعلمه من الذنوب أكثر مما يعلمه، فإذا تاب كذلك يشرع في التلاوة للقرآن المجيد ويجعل نفسه بين يدي ربه تعالى، فكأنه يناجي ربه تعالى بكلامه، وكأن الرب تعالى يسمع مناجاته ويرى مكانه في هذه الحال ويجتهد على أن لا يُخطِرَ بقلبه غير معاني ما يتلو فيجعل المعاني في محل ديب الخواطر.

وهذا أنفع شيء للسالكين من كثرة الصلاة والعبادة بلا قلب، وليس بينهما نسبة إلا شخصاً يتلو كلام الله تعالى ويجعل الحق تعالى ناظراً إليه ويجعل المعاني عوضاً عن حديث النفس في محل ديب الخواطر، وهذا أمر لا يقوى عليه إلا من يريد الله أن يقربه ويصطنعه، والله الموفق والمعين.

فصل

فأول ما يفتح على من سلك هذه الطريقة بمشيئة الله تعالى وتوفيقه أن يغيب قلبه في المعاني، وتلتذ الروح بالمعاني كما تلتذ بالنسيم البارد في الهواجر الحارة، وهذا أول الفتوح، ثم يفتح له بعد ذلك شم القلب لنسيم القرب بعد شمه لنسيم معاني كلام الرب تعالى، وحينئذ يشعر القلب بعظمة الله تعالى المتكلم بالقرآن، وهذه مرتبة ثانية، ثم يُرجى أن يفتح له بعد ذلك سماع الكلام كأنه يسمعه من متكلمه، فإنه كان في الابتداء يقرأ القرآن كأنما يقرأه على الله تعالى، والله تعالى ناظر إليه يسمع قرآنه، فيرقى من الرتبة إلى سماع الكلام كأنه يسمعه من متكلمه، ويشعر القلب بقربه وعظمته، ويكشف في القرآن بصفات المتكلم، من رحمته ولطفه وعظمته وقهره وجلاله وكماله ووعدته ووعيده وتخويفه وتحذيره وترغيبه، وغير ذلك من الصفات.

فصل

من فتح له هذا القرآن العظيم في التلاوة فقد صار القرآن ربيع قلبه، وشفاء صدره، وجلاء حزنه، وطريقه إلى الله تعالى، وصراطاً مستقيماً يبلغه إلى قرب الله

بمعونته وتوفيقه.

فصل

واعلم أن هذه الأذواق العظيمة التي هي أذواق المقرئين، ومشارب العارفين والمحبين لا يذوقها في كلام رب العالمين من يبس مزاجه بالصوم والجوع، فإن الصوم والجوع المفرطان يؤثران في القلب اليبس والانحراف، ويبقى القلب جامداً كالحجر لا يتصرف فيه القرآن ولا تؤثر فيه قوارعه لغلبة حكم اليبس عليه، ولا يناوله من الأحوال إلا ممتزجاً بطبيعة اليبس، فيثور من باطنه عند الحال حدة وصراخ وانحراف يستدل بذلك على انحراف مزاجه.

وأما صاحب المزاج المترطب المعتدل إذا شرع في التلاوة والخلوة وثار له شيء من هذه الموارد تتصرف الموارد في قلبه وينفعل القلب لها للطفاته ورقته واعتدال مزاجه، ويغيب في الموارد ويستغرق فيها كما يستغرق من لاحت له شواهد محبوبة وأنس به وغاب به وبصفاته عن كل شيء سواه، فإذا أفاق من ذلك رجع إلى أعماله الباطنة والظاهرة، ومساعي دنياه التي لا يتم صلاح جسمه إلا بها، وهذا هو الأمر الكامل المعتدل المناسب لمألوف الصحابة والتابعين لهم بإحسان، رضي الله عنهم أجمعين.

فصل

ومن سلك هذا القانون، وهذه الطريقة كان حاله كمن عمّر الدنيا بقيامه في مصالحه، وعمّر الآخرة بقيامه بمأمورات ربه، وعمّر مكارم الأخلاق بحسن تأتبه مع أهله وإخوانه بما يرضي ربه، وعمّر منازل القرب ومواطن الأُنس بدخوله في طريق قريبة سهلة إلى ربه، ومع هذا فجسده صحيح رطب، وقلبه خاشع لين، وأخلاقه طيبة زاكية، وزوجته راضية قد أعطاه ما تستحقه، وقام بما يصلح نفسه ويصلحها من حقوق الله تعالى الواجبة، وإخوانه راضون بما بذل لهم من حقوقهم المتأكدة عليه.

وهذا هو الكمال إن شاء الله تعالى، والله الموفق والمعين، وأصول ذلك وعمدته التوبة النصوح، والانتها عن منهيات الظاهر والباطن، وسياسات النفس في العادات

بمقتضى العدل يستعمل الأمر الأوسط بين الإفراط والتفريط. وعمدة الطريقة أن
تصل معاني القرآن إلى ديب الخواطر، فمتى وصلت سهر الأمر وقرب بمشيئة الله
ومعونته، ونسأل الله نكره أن يوفقنا لما يحب منا، وأن يدك عليه من أقرب الطرق
وأدلهها عليه، وأن يعفد من تعب الطريق وطولها، ولا يجعل من طول عليه
وابتلاه من أمور دنيء. فم فيه التعويق آمين يا رب العالمين. وحمد لله رب
العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

فهرس المحتويات

3	مقدمة.....
4	عماد الدين الواسطي.....
16	النسخة الخطية لهذه الرسائل.....
17	نماذج من صور المخطوط.....
25	رحلة عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي وشرح تَقْلِبَاتِهِ في عُمرِهِ.....
25	(ترجمة المؤلف نفسه).....
27	النص.....
29	مقدمة المؤلف.....
53	أَشْعَةُ النُّصُوصِ فِي هَتْكِ أَسْتَارِ " الْفُصُوصِ ".....
87	لَوَامِعُ الاسْتِزْشَادِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِتِّحَادِ.....
99	رسالته إلى الشيخ أحمد المغربي.....
101	نص رسالة المغربي إلى الواسطي.....
103	جواب الكتاب.....
	لَوَائِحُ مِنْ قَوَاعِدِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ الْمُبْطِلِينَ وَلَوَائِحُ مِنْ قَوَاعِدِ طَرِيقِ
119	الصادقين.....
135	وصيئته إلى بعض قضاة الشام.....
	تَلْقِيحُ الْأَفْهَامِ فِي مُجْمَلِ طَبَقَاتِ الْإِسْلَامِ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
147	محمد رسول الله وأفتراقهم في سَعَايَاتِ الْقُلُوبِ وَالْأَجْسَامِ.....
149	فهرست الطبقات.....
151	الفصل الأول.....
165	قاعدة في الصفات.....

قاعدة في المثل الأعلى لقول الله سبحانه ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وقول النبي ﷺ	
(تبارك اسمك وتعالى جدك).....	175
عمدة الطلاب من مؤمني أهل الكتاب المشتاقين إلى ذوق الأحباب الراغبين	
في رُسوخ دين الإسلام في السرائر والألباب	179
ميزان الحق والضلال في تفصيل أحوال الثجباء والأبدال وشرح كبر الجهلة	
من العمال الذين عَدِمُوا عِلْمَ التَّفْصِيلِ والإجمال	217
ميزان الشيوخ.....	227
الفصل الأول	234
مفتاح المعرفة والعبادة لأهل الطلب والإرادة الراغبين في الدخول إلى دار	
السعادة من الطريقة المحمدية التي ليست منحرفة عن الجادة	249
الفصل الأول	256
الفصل الثاني	257
الفصل الثالث	259
الفصل الرابع	261
الفصل الخامس	265
الفصل السادس	267
الفصل السابع	267
الفصل الثامن	269
مفتاح طريق المحبين وباب الأنس برَبِّ العالمين المؤدِّي إلى أحوال المقربين	275
فهرس المحتويات.....	287

الْعِبَادَاتُ

هذه رسائل للإمام عماد الدين الواسطي، وهو صوفي فيمكن أن يقال عنه إنه من الأمثلة النادرة التي طبقت الشعر الذي أطلقه الجنيد البغدادي قديماً، والذي لم تزل الصوفية تردده حتى يوم الناس هذا، أعني قوله: ”عَلِمْنَا مُقَيِّدٌ بِالْكَتَابِ وَالسَّنَةِ“، ولكنَّ تَرَدُّدَهُمْ لَهُ لَمْ يَمْنَعَهُمْ مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْحَابَ الرَّقْمِ الْقِيَاسِيِّ فِي الْعَمَلِ بِضَدِّ مُقْتَضَى كَلِمَةِ الْجَنِيدِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْإِمَامِ الْوَاسِطِيِّ فَقَدْ كَانَ فِي مَنْهَجِهِ فِي رِسَائِلِهِ مُقَيِّدًا بِالْكَتَابِ وَالسَّنَةِ بِالْقَوْلِ وَبِالْعَمَلِ وَالْعَمَلِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَقَدْ زَهَدَ الصَّوْفِيَّةُ فِي كِتَابِ هَذَا الصَّوْفِيِّ، بَلْ لَمْ يَسْلُكُوهُ فِي طَبَقَاتِ أَوْلِيَائِهِمْ، بَلْ إِنْ كَثُرَ مِنَ الصَّوْفِيَّةِ يَجْهَلُونَهُ.

نعم، لقد كان المؤلف صوفياً ولكنه في هذه الرسائل لم يثِنْ على فكرة صوفية محضة، وإن كتب بأسلوبهم، وامتدح طريقة أوائلهم، ولكنه لم يكن مدحاً لهم بإطلاق، بل لما قالوه من كلمات تؤكد معنى كلمة الجنيد من وجوب تقيد سالك التصوف بالكتاب والسنة.

وكان من آثار هذا التقيد بالكتاب والسنة على المؤلف ما سرى فيما كتبه من مؤلفاته، وما أعلن عنه فيها بعبارات مختلفة من محبته لأهل الحديث، فمن ذلك قوله: ”ثم رأيتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَبَلَنِي عَلَى مَحَبَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْإِنْفَعَالِ لَهُمْ“، وقد شهد الإمام الذهبي له بأنه: ”كان داعيةً إِلَى السَّنَةِ وَمَتَابَعَةِ الْأَثَارِ“، وأنه: ”كان ذا ورع، وإخلاص ومنازمة للاتحادية، وذوي المعقول“، وأكبر الظن أن امتداح شيخ الإسلام ابن تيمية له ووصفه إياه بـ ”جُنَيْدٍ وَقْتِهِ“، إشارة منه إِلَى أَنَّ الْوَاسِطِيَّ مِنَ الْقِلَّةِ الَّذِينَ سَلَكَوا نَهْجَ الْجَنِيدِ الْبَغْدَادِيِّ، وَالتَزَمُوا فِي صُوفِيَّتِهِمْ بِشَرْطِهِ.



Designed & Printed By: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

أُسِّسَتْهَا مَحَلَّةُ بَيْرُوتَ بَيْرُوتَ سَنَةِ 1971 بَيْرُوتَ - لُبْنَانُ

Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

ص.ب. 9424 - 11 بيروت - لبنان

رياض الصلح - بيروت 2290 1107

+961 5 804810 / 11 / 12 هاتف

+961 5 804813 فاكس

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

www.al-ilmiyah.com

DKI



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah